



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ - العرب والإسلام

العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية خلال عصر الامبراطور هرقل (610-641م) و انعكاساتها

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالبة:

غدير محمد ياسين الإدلي

إشراف :

د. حليلة عبد الهادي

1440هـ/2019م

إهداء

لطالما ظننت أن أجمل ما في الدنيا هو الأحلام

ولكنني اكتشفت أن الأجمل منها هو تحقيقها

أهدي هذا العمل إلى كل من كان له فضل في تحقيقي لهذا الحلم

والدي... الذي لم يكن ليتم هذا العمل إلا بدعائه

والدتي ... التي فارقتني ولم يفارقني رضاها

إخوتي وأخواتي ... سندي عند الضعف

أصدقائي ... رفاق الدراسة والتعب والنجاح

شكر وتقدير

أشكر الله عز وجل وأحمده على توفيقه لي في إنجاز هذا العمل المتواضع.
وأقدم بخالص الامتنان إلى الدكتورة المشرفة "حليمة عبد الهادي" على إرشاداتها وتوجيهاتها والتي لم تدخر جهداً في مساعدتي.
والشكر موصول أيضاً إلى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقراءة هذا البحث وتقييمه للارتقاء به نحو الأفضل.
وتحية تقدير مني لكل من ساهم من قريب أو بعيد في إتمام هذا العمل ولو بكلمة.

دليل رموز البحث

صفحة	ص
جزء	ج
توفي	ت
ميلادي	م
هجري	هـ
ترجمة	تر
تحقيق	تح
اقتباس	" "
طبعة	ط
دون تاريخ نشر	(د.ت)
دون مكان نشر	(د.م)

فهرس المحتويات

ملخص الرسالة	
1	المقدمة
5	دراسة المصادر والمراجع
17	التمهيد
الفصل الأول: أوضاع الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية قبيل تسلّم الامبراطور هرقل	
33	أولاً: الصراع على العرش الساساني:
33	1. ثورة بهرام جوبين على الشاهنشاه هرمزد الرابع
34	2. معركة النهروان 590م
37	ثانياً: عهد كسرى الثاني (590-628م):
37	1. الاستتجاد بالامبراطور موريق (موريس)
39	2. استعادة كسرى للعرش
40	3. أعماله الداخلية
42	4. التخلص من معارضيه
44	5. معركة ذي قار
47	6. نفائس كسرى وثروته
49	ثالثاً: عهد الامبراطور موريق (582-602م) والانقلاب عليه:
49	1. موريق قبل تسلمه العرش الامبراطوري
51	2. الوضع الداخلي للامبراطورية في عهد موريق:

51	أ. المسألة الدينية
52	ب. إنشاء أرخونيتي رافنا وقرطاجة
53	3. أعمال موريق الخارجية:
53	أ. على الجبهة الشرقية
54	ب. على الجبهة الأوربية
55	4. انقلاب الامبراطور فوقاس ونهاية موريق
56	5. عهد الامبراطور فوقاس (602-610م)
الفصل الثاني: الامبراطورية البيزنطية خلال حكم الامبراطور هرقل (610 - 641م)	
60	أولاً: وصول هرقل للعرش (610م)
65	ثانياً: إصلاحات هرقل:
65	1. الإصلاحات الإدارية والعسكرية
68	2. الإصلاحات السياسية
70	3. الإصلاحات الاقتصادية
73	4. الإصلاحات الدينية
80	ثالثاً: علاقته مع الآفار
الفصل الثالث: الحروب البيزنطية الفارسية (611-628م) في عهد هرقل	
84	أولاً: الجغرافية السياسية:
84	1. إقليم أرمينية
84	2. آسيا الصغرى

85	3. بلاد الشام
86	4. إقليم الجزيرة
86	5. إقليم أذربيجان
87	ثانياً: الجيش البيزنطي واستراتيجيته العسكرية:
87	1. فرق الجيش
89	2. أسلحة الجيش
90	3. لباس الجنود
90	4. رواتب الجند
91	5. الاستراتيجية العسكرية
92	6. الأسطول
92	ثالثاً: الجيش الساساني واستراتيجيته العسكرية
94	رابعاً: أسباب الصراع البيزنطي الساساني:
94	1. الأسباب السياسية والاستراتيجية
95	2. الأسباب الاقتصادية
96	3. الأسباب الدينية
98	خامساً: اجتياح كسرى الثاني أراضي الامبراطورية البيزنطية 611م
103	سادساً: حروب هرقل المضادة ضد فارس:
103	1. استعادة آسيا الصغرى 1هـ/622م
105	2. غزو غزنالك 2هـ/623م

106	3. الحصار الفارسي الآفاري للقسطنطينية 5هـ/626م
107	4. معركة نينوى 6هـ/627م
110	سابعاً: معاهدة الصلح 7هـ/628م وانتهاء الحرب
111	ثامناً: موقف ودور العرب (المناذرة والغساسنة) في الحروب البيزنطية الفارسية (611-628م)
الفصل الرابع: انعكاسات الحرب البيزنطية الفارسية على حركة الفتوحات الإسلامية	
116	أولاً: استراتيجية الفتوحات الإسلامية خلال عهد هرقل
127	ثانياً: عوامل نجاح الفتوحات الإسلامية
129	ثالثاً: عوامل هزيمة البيزنطيين والفرس
131	الخاتمة
134	الملاحق
141	قائمة المصادر والمراجع

ملخص الرسالة

تتضمن رسالة "العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية خلال عصر الامبراطور هرقل (610-641م) وانعكاساتها" شرحاً مفصلاً للعلاقات القائمة بين أكبر امبراطوريات العالم خلال مطلع القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، فيتضح فيها أوضاع الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية قبيل تسلّم الامبراطور هرقل الذي بدأ منذ استلامه للعرش عملية إصلاح شاملة للبلاد بعدما وصلت إلى شفير الهاوية في عهود أسلافه، حيث عانى الداخل البيزنطي من اقتصاد متهالك نتيجة خروج كثير من المناطق خارج نطاق النفوذ البيزنطي، إضافة إلى التفكك الاجتماعي الذي عصف بالامبراطورية جراء الخلافات الدينية بين رعاياها، أما الخارج فلم يكن أحسن حالاً حيث أحاط الأعداء بالامبراطورية من كل جانب، فهناك البرابرة بغزواتهم المستمرة يهددون حدودها الشمالية ومن الشرق تمكن الفرس الساسانيون خلال عهد الشاهنشاه -ملك الملوك- كسرى الثاني أبرويز من فرض نفوذهم على بلاد الشام ومصر وتهديد العاصمة البيزنطية القسطنطينية، إلى جانب الإهانة الضخمة التي تسببوا لهم بها بسلب الصليب المقدس رمز الديانة المسيحية من بيت المقدس ونقله إلى عاصمتهم طيسفون (المدائن)، وكذلك كان لا بد من تسليط الضوء على دور العرب من منازرة وغساسنة في هذه الحرب.

لذلك كان هرقل خير رجل لدولته في تلك الحقبة إذ أصلح النظام الاقتصادي والعسكري وطوره وأنقذ الامبراطورية من براثن الانهيار، فقد أصبحت قادرة على مواجهة الطامعين بها من خلال جيشها القوي الذي هاجم الفرس في عقر دارهم ووصل إلى مشارف عاصمتهم طيسفون وهدد وجودهم، كما أنزل هزيمة فادحة بالبرابرة من آفار وسلاف أثناء هجومهم على القسطنطينية، ولكن لم ينعم البيزنطيون طويلاً بما حققوه من انتصارات إذ جاءت الضربة القاضية لهم من عدو لم يُحسب له حساب يوماً، ففي الوقت الذي كان فيه البيزنطيون مشغولين بحروبهم مع الساسانيين، شهدت الجزيرة العربية ولادة الدين الإسلامي الذي كان العرب -الذين لطالما كانوا عمالاً للبيزنطيين والساسانيين- نواته الأولى ومادته الأساسية، فأنشؤوا دولة لهم على قواعد متينة روحية وبشرية وبدؤوا ينشرون دعوتهم في الأراضي المجاورة ومحاربة ما تغلغل فيها من ظلم واضطهاد إلى أن أخرجوا بلاد العرب جميعها من نطاق الدولة البيزنطية إلى غير رجعة، وهزموا بجيوشهم الناشئة امبراطورية تصل جذورها إلى مئات السنين بسرعة يُعجب لها وقوة أذهلت أصحاب الباع الطويل في الحروب.

المقدمة:

لطالما كانت العلاقات بين جناحي العالم الشرقي والغربي منذ أقدم العصور في حالة صراع مستمر على اختلاف الحضارات والدُول التي نشأت على أراضي كلٍ منهما، والصراع السَّاساني البيزنطي في نهاية القرن السَّادس ومطلع القرن السَّابع الميلادي/الأول الهجري أبرز مثال على ذلك، فخلال تلك الحقبة أصابت العرش الساساني موجة من الاضطرابات، فاغتيال الشاهنشاه -ملك الملوك- هرمزد الرابع Hormizd IV (579م - 590م) نبأً بعهد ضعف بدا جلياً باستتجاد كسرى الثاني أبرويز Khosrow II (590 - 628م) بالامبراطور موريق (موريس) Maurice (582 - 602م) مما أسفر عن عقد اتفاقية تمكنت من تحقيق سلام مؤقت بين الطرفين، إلا أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن أفضل حالاً، إذ عانت هي الأخرى من تدهور في مختلف جوانب الحياة، ليستغلَّ أعداؤها فيما بعد هذا الضَّعف حيث أطبقت عليها قبائل السلاف والآفار من جهة الغرب، واخترق الفرس السَّاسانيون بعهد الشَّاهنشاه كسرى أبرويز حدودها الشرقية فسيطروا على بعض أراضيها الهامَّة كبلاد الشام ومصر وهددوا العاصمة القسطنطينية نفسها، ووجهوا إهانة كبيرة لها بدخول بيت المقدس والاستيلاء على خشبة الصليب المقدَّس ونقله إلى عاصمتهم طيسفون (المدائن)، ولكن اجتزاء مناطق بهذه الأهمية منها ساهم بازدياد سرعة التدهور في أوضاع الامبراطورية البيزنطية، إضافة لما كانت تعانيه داخلياً من اضطرابات دينية، فبعد أن اعترفت القسطنطينية بالديانة المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية البيزنطية عام 313م منهيةً بذلك سنوات طويلة من الاضطهاد والظلم على أتباعها، فارتفع شأن المسيحية وكثر عدد معتققيها إلى أن خشي الفرس الزرادشتيون من انتشارها ضمن أراضيهم، فينتقل ولاء قاطنيتها إلى عدوهم الامبراطورية البيزنطية المسيحية، فكان الصراع العقائدي أحد الأسباب التي أضيفت أيضاً إلى أسباب النزاع بين الامبراطوريتين.

ولكن ما لبث أن وُلدت الخلافات من جديد بين المسيحيين أنفسهم حيث انقسموا إلى طوائف متعددة تتمسك كل منها بمعتقداتها وآرائها، وكان أبرزها المذهب الملكاني الذي عُدَّ المذهب الرسمي للامبراطورية وانتشر في جميع أقاليمها عدا مصر وبلاد الشام اللتان دانتا بالمذهب المونوفيزتي وأخلصتا له، مما أوقد فتيل الصراعات فيما بينهم على الرَّغم من تعدُّد محاولات التَّوفيق كإقرار مذهب الإرادة الواحدة (المونوثلستية) ولكن دون جدوى.

وكنتيجة طبيعية لهذا الوضع المتردي أن انتشرت ظاهرة الاغتيالات والانقلابات السياسية حيث استلم الامبراطور هرقل (610 - 641م) العرش البيزنطي ذا الحال المتدهور بالانقلاب على سلفه الامبراطور فوقاس Phocas (602 - 610م)، ولكن الامبراطور هرقل كان خير رجل لدولته في تلك الحقبة إذ أصلح النظام الاقتصادي والعسكري وأنقذ الامبراطورية من براثن الانهيار، فقد أصبحت قادرة

على مواجهة الطامعين بها من خلال جيشها القوي الذي هاجم الفرس في عقر دارهم ووصل إلى مشارف عاصمتهم أيضاً، وقد حُسم الصراع بينهما نهائياً بمعركة نينوى الشهيرة عام 627/هـ 627م فردَّ هرقل للدولة هيبتها وأعاد صليب المسروق إلى موطنه الأساسي، تلك الهيبة التي أخافت قبائل السلاف Slavs والآفار Avars وأدت في النهاية إلى تفككها وتشرذمها، والجدير بالذكر هنا أنه قد طغى على سمة العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والساسانية الطابع السياسي والعسكري في هذه الحقبة، فخلال الحرب تنقطع العلاقات وتتمزق الصلات بأنواعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ولكن لم ينعم الامبراطور هرقل طويلاً بما حققه من انتصارات إذ جاءت الضربة القاضية له من عدو لم يُحسب له حساب يوماً، ففي الوقت الذي كان فيه البيزنطيون مشغولين بحروبهم مع الساسانيين، شهدت الجزيرة العربية ولادة الدين الإسلامي الذي كان العرب - الذين لطالما كانوا عمالاً للبيزنطيين والساسانيين - مادته الأساسية فأنشؤوا دولة لهم على قواعد متينة روحية وبشرية وبدؤوا بنشر دعوتهم في الأراضي المجاورة ومحاربة ما تغلغل فيها من ظلم واضطهاد إلى أن أخرجوا بلاد العرب من نطاق الدولة البيزنطية إلى غير رجعة، وهزموا بجيوشهم الناشئة امبراطورية تصل جذورها إلى مئات السنين بسرعة يُعجب لها وقوة أذهلت أصحاب الباع الطويل في الحروب.

وقد ابتدأ هذا البحث بدراسة لأهم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في كتابته كالمصادر اللاتينية والسيانية التي احتوت على معلومات هامة ودقيقة عن القرن السابع وعهد الامبراطور هرقل، إلى جانب المصادر الفارسية التي تم الاستعانة بها لوفرة ما يختص فيها من أحداث عهد الشاهنشاه كسرى أبرويز، إضافة إلى عدد من المصادر العربية التي أغنت البحث بأدق التفاصيل عن نشوء الإسلام وحركة الفتوحات العربية الإسلامية، ولم يغن ذلك عن الاستفادة ببعض المراجع العربية والأجنبية والمعرّبة التي احتوت على دراسات وقراءات معاصرة لأحداث ذلك العصر.

وتلا هذه الدراسة تمهيد وصفي وتحليلي للأوضاع السياسية السائدة على المسرح السياسي العام، وما كانت تعاني منه بيزنطة من ثورات داخلية اجتماعية وخلافات دينية وتهديد خارجي منذ عهد الامبراطور جستنيان الأول Justinian I (527-565م)، بينما انشغلت فارس بتحسين أوضاعها الداخلية والنهوض بالبلاد وذلك في عهد الشاهنشاه كسرى الأول أنوشروان Khosrow I (531-579م) وكذلك ضم لمحة عن عهود خلفائهما حتى وصول هرقل وكسرى أبرويز للحكم.

أما الفصل الأول فقد تضمن أوضاع الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية قبيل تسلم الامبراطور هرقل بسنوات قليلة، إذ شهد العرش الساساني ثورة كادت أن تطيح بحكم كسرى أبرويز لولا استتجاده بالامبراطور موريق البيزنطي ومساعدة الأخير له، يلي ذلك شرحاً لأعمال كسرى أبرويز بعد استعادته للعرش في سبيل توطيد حكمه، إضافة إلى توضيح الأسباب التي أوصلت الامبراطور موريق نفسه للعرش

وحال الامبراطورية البيزنطية الداخلية والخارجية في عهده وكيف انتهى حكمه بتمرد الجنود عليه واغتياله، ووصول فوقاس لسدة الحكم.

بينما اختص **الفصل الثاني** في الحديث عن تفاصيل وصول هرقل للعرش البيزنطي وما هي المعوقات الجمة التي واجهته في سبيل توفير الأمان والاستقرار لبلاده، وذلك من خلال إصلاحاته الإدارية والعسكرية كإقامة نظام الثغور والإصلاحات السياسية لإنهاء الصراع بين الحزبين الرئيسيين فيها وهما الزرق والخضر، إضافة إلى الإصلاحات الاقتصادية اللازمة للنهوض بهذه الدولة التي كانت على وشك الانهيار التام، فقد خويت خزائنها المالية وخرج كثير من أراضيها الغنية خارج نطاق نفوذها لصالح الفرس، إلى جانب إصلاحاته الدينية فقد كان من الضروري تجديد المحاولة كل مدة لإصلاح الوضع الديني المتدهور داخل الامبراطورية، حيث انقسم الناس إلى فئات متخاصمة متعادية لا بد من حل للتوفيق بينها وخاصة أن الوضع الخارجي لم يكن مستقراً إذ استغل الأعداء ضعفها وشرعوا في الهجوم على أراضيها كالأفار والسلاف ففي نهاية الفصل الثاني تم توضيح العلاقات التي تجمع الامبراطورية البيزنطية معهم في عهد هرقل.

ليكون **الفصل الثالث** شاملاً لأدق تفاصيل الحرب البيزنطية الفارسية التي تلت إصلاحات هرقل للامبراطورية وكان لا بد قبل الخوض في دراستها من التعرف على جغرافية المناطق التي جرت عليها هذه الحرب، وأهم تقسيمات وتنظيمات الجيشين البيزنطي والفارسي واستراتيجيتهما العسكرية، إضافة إلى توضيح أهم المسوغات والدوافع التي أدت لوقوعها، ثم تلا ذلك شرحاً مسهباً عن اجتياح كسرى أبرويز لأراضي بيزنطة وأيضاً لتحركات هرقل والمعارك التي خاضها لاسترداد تلك المناطق، وكيف انتهت هذه الأحداث مع توضيح لموقف الغساسنة والمناذرة منها.

ولكن انتصار هرقل في حربه مع كسرى أبرويز لم يدم طويلاً إذ خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية وانطلقوا يحررون أراضيهم من الفرس والروم على حد سواء وينزلون بقواتهم أقوى الهزائم المتكررة بعدد من المعارك الفاصلة، فانتصار العرب المسلمين وهزيمة أقوى امبراطوريات العالم له عوامل كثيرة ومهمة وهذا ما اشتمل عليه **الفصل الرابع** إلى جانب تبيان انعكاسات الحرب البيزنطية الفارسية على نجاح حركة الفتوحات العربية الإسلامية ودمار الامبراطوريات الكبرى التقليدية وبدء عصور سيكون فيها العرب المسلمون القوة الأكبر على مسرح الأحداث.

وقد تجلت أهمية هذا البحث في كونه بحث أصيل لم يتم الطرق إلى موضوعه بتوسع من قبل والمتمحور حول الاطلاع الأوسع على العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية التي غلبت عليها الصراعات عبر تاريخهما الطويل، ولكنها وصلت إلى أوجها في عصر الامبراطور هرقل

فبعدما كانت الغلبة لفارس لسنوات طويلة أصبح النصر حليف بيزنطة التي أوشكت على الانهيار، وبالتالي فإن هذا التغيير في ميزان القوى يعدّ إشكالية مهمة جداً تستحق الدراسة والتحليل.

ومن خلال تحليل الوقائع والأحداث يمكن الوصول إلى الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذه الحروب التي دارت بينهما وتسليط الضوء على ماهيتها وهدفها سواء كان اقتصادياً تبعاً لغنى وأهمية المناطق التي كانت تدور فيها، والرغبة في فرض السيطرة على الطرق التجارية للاستفادة من عوائدها وخاصة تجارة الحرير، أو دينياً ولا سيما أن هرقل قد جعل من أيقونة المسيح المخلص لواءً له وكان هدفه إعادة الصليب المقدس إلى القدس، أو ربما كان السبب وراءها استراتيجي سياسي نظراً لسعي كل من الامبراطوريتين نحو فرض نفوذها السياسي على الأخرى تبعاً لكونهما أكبر قوتين في ذلك العصر.

كما تم توضيح أثر هذه الحرب الطويلة على كلا الدولتين، ودور العرب من منازرة وغساسنة في هذا النزاع البيزنطي الفارسي، وكيف تحولت قبائلهم المتنافرة المتناحرة إلى قوة متّحدة استطاعت بعد سنوات تمزيق ملك الساسانيين وتقليص حدود البيزنطيين المتمرسين في القتال وهم مجرد قوة مبتدئة في هذا المجال وذلك بسرعة غير معهودة، فما هي دوافع ومسوغات انتصار هؤلاء العرب المسلمين المفاجئ والسريع على الامبراطورية البيزنطية بعد انتصارها المبهز على الفرس الساسانيين فقط قبل سنوات قليلة؟ وكيف أثر ذلك على تغيير موازين القوى وتوجيه أنظار العالم لقوة قادمة لا يجب الاستهانة بها؟

وقد تم الاعتماد في كتابة هذه الفصول على المنهج التاريخي الذي يقوم على استقراء الأحداث التاريخية ثم تفسيرها والربط بينها بشكل دقيق بعيد عن التهويل والمبالغة، ثم تحليلها علمياً وموضوعياً بعيداً عن الأهواء والميول الشخصية.

وقد تمت مواجهة بعض الصعوبات في كتابة هذا البحث كالاعتماد على الكتب الأجنبية وما يتطلب ذلك من امتلاك لغة قوية متمكنة يتم التوصل من خلالها إلى ترجمة دقيقة لنصوصها، فضلاً عن ندرة ما احتوته المصادر العربية من معلومات عن الامبراطورية البيزنطية وتاريخها قبل ظهور الإسلام، ولكن بفضل الله تعالى وعونه ثم بمساعدة الدكتورة المشرفة حليلة عبد الهادي تمّ هذا العمل، حيث لم تتوان عن تقديم ما يلزم في سبيل ذلك، كإعطاء الإرشادات الضرورية ومنح المصادر والمراجع الهامة والمتابعة الدقيقة، إضافة إلى التعامل الحسن المتواضع، فلها جزيل الشكر والعرفان.

دراسة المصادر والمراجع:

لقد تم الاعتماد في كتابة هذا البحث على عدد من المصادر والمراجع التي أغنته بمحتواها، فهناك المصادر اللاتينية والسريانية والفارسية والعربية سواء التاريخية منها أو الجغرافية، تلك المصادر التي تم ترتيب دراستها حسب الأهمية بالنسبة للبحث ومضمونه وليس تبعاً للأقدمية في تاريخ وفاة المؤلفين، وذلك إلى جانب عدد من المراجع الأجنبية والعربية والمعرّبة التي كان لا بد من الاستعانة بها في كتابة البحث.

أولاً: المصادر اللاتينية:

1. Strategikon Taktica، الامبراطور موريق (موريس) (582-602م):

يعد كتاب الاستراتيجية من الكتب البيزنطية الهامة في استراتيجية الحروب وتكتيكاتها، ويُنسب إلى الامبراطور موريق Maurice (582-602م)، وهو عمل يهدف إلى تزويد القادة العسكريين من الطبقة الوسطى بالمعلومات العسكرية، حيث كُتب بلغة يمكن فهمها واستخدم فيه مصطلحات عسكرية وحواشي واضحة ومتكاملة مفسرة بالرسوم البيانية، كما ورد بين صفحاته قوانين المناصب العسكرية ومعلومات تلمّ بالعدو وأساليبه في المعارك، كما تبنّى الكاتب فيه تعبيرات لاتينية وجرمانية ومصطلحات من لغات أخرى.¹

وتعود أهمية هذا المصدر بالنسبة إلى البحث في التعرف على أهم القواعد التي يجب على القائد العسكري اتباعها قبل المعركة وخلالها كي يضمن الانتصار في معاركه، إضافة إلى توضيح أبرز تكتيكات وخصائص الأقسام التي أحاطت بالامبراطورية البيزنطية ومن الممكن أن تسبب أي تهديد لها وخاصة الفرس والسلاف Slaves والآفار Avars، وبالتالي اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمواجهةهم في حال الخطر، فكل قوم طريقة في القتال وأسلوب في الهجوم يختلف فيه عن الآخر فهناك من تقودهم جرأتهم وروحهم المندفعة بينما يلجأ آخرون إلى التخطيط المسبق والحكمة والقيادة القوية.

2. Chronicle of Theophanes confessor، ثيوفانس (135-203هـ/752-818م):

يعد ثيوفانس من المصادر الهامة بالنسبة للتاريخ البيزنطي وكتابه بعنوان تاريخ الأزمنة، وبرز أبوه كحاكم عسكري في ظل حكم الامبراطور ليو الرابع Leo IV (159-164هـ/775-780م) وبالتالي كان ثيوفانس في صباه موضع رعاية هذا الامبراطور وحمايته، فبدأ بكتابة مدونته التاريخية التي شملت المدة منذ عصر الامبراطور دقلديانوس Dcoclodianus (284-305م) حتى سقوط الامبراطور ميخائيل

¹ أبو الجدايل (عائشة): الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي، الرياض، دار المفردات، 1995م، ط1، ص34.

الأول Michael I (196-198هـ/811-813م) واعتمد في كتابته على أسلوب الحوليات،¹ كما اتسم بغزارة المعلومات عن أحوال الامبراطورية البيزنطية قبل عصر هرقل Heraclius والأسباب التي أدت إلى سقوط سلفه ومهدت السبيل لوصوله للعرش 610م وتحدث عن نظام الثغور ومذهب الإرادة الواحدة كما فصل حملات الامبراطور هرقل (610-641م) ضد الفرس وغير ذلك من المعلومات الهامة.²

ثانياً: المصادر السريانية المعربة:

1. تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، مار ميخائيل الكبير (521-596هـ/1126-1199م):

وُلد مار ميخائيل في ملطية³ وكان أبوه أحد قساوستها، وبدأ حياته كراهب في دير برصوما بالقرب من ملطية، ثم أصبح بطريكاً لأحد الكنائس فهناك من يقول أنها كنيسة أنطاكية⁴ وهناك من يقول ملطية⁵ ومهما كان من أمر فقد اعتلى كرسي البطريركية منذ عام 1166م لمدة 33 عاماً حتى وفاته.⁶

وكان هذا البطريرك خصب الإنتاج يكتب ليل نهار، ولعل أهم مؤلفاته تاريخه الذي انتهى من كتابته عام 1195م، وقد عرفته أوروبا عن طريق مختصر أرمني اكتُشفت نسخته السريانية عام 1887م كاملة في الرها⁷، وتمت ترجمته بواسطة مار غريغوريوس شمعون إلى العربية فبيّن فيه توالي رؤساء الكهنوت على رأس الكنيسة وتعاقب الامبراطوريات الزمنية في حياة الناس، وقسّم تاريخه إلى 13 كتاباً موزعة إلى فصول، ولكن النص بدوره موزع إلى ثلاثة حقول أو أعمدة في الأول منها يذكر توالي الأساقفة

¹ اسماعيل (إلى): الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، دار النهضة العربية، 1985م، ص13؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص28.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص14.

³ ملطية: مدينة من الثغور الجزرية بالشام، بناها الاسكندر المقدوني ثم خضعت للبيزنطيين ومن بعدهم العرب المسلمين. الحموي (ياقوت بن عبد الله ت626هـ/1228م): معجم البلدان، تح فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج5 ص192، 193، مادة ملطية. الحميري (محمد بن محمد ت900هـ/1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1984م، ط2، ص545.

⁴ عوض (محمد): الامبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، 2007م، ط1، ص81.

⁵ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص29.

⁶ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص29؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص81.

⁷ الرها: مدينة تقع في الجزيرة الفراتية بين الموصل والشام، وتعد من أقدم مدن النصارى وهي إحدى الكراسي المطرانية لأنها تضم رفاة بعض الحواريين، وتكمن أهميتها في موقعها على طريق التجارة بين الشرق وبلاد الشام وعلى مفترق الطرق بين الامبراطوريات الكبرى في العالم القديم. الحموي: معجم البلدان، ج3 ص106، مادة الرها؛ زكار، (سهيل)، اسماعيل، (اكتمال) وآخرون: حروب الفرنجة، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2004م، ص75.

وفي الثاني توفي الدول وفي الثالث الحوادث المختلفة، ولكنه كان يقدم الأحداث والأخبار من وجهة نظر الطائفة اليعقوبية¹، وتكمن أهميته في هذا البحث في إلقاءه مزيداً من الضوء على بعض الجوانب الهامة في سياسة الامبراطور هرقل الدينية وخاصة علاقته بالمونوفيزيتيين واليهود وكذلك اجتياح كسرى أبرويز Khosrow II للأراضي البيزنطية.²

2. تاريخ مختصر الدول، ابن العبري (623-685هـ/1226-1286م):

وابن العبري هو غريغوريوس بن أهرون الملطى، وكان أبوه على اليهودية ثم تحول إلى المسيحية اليعقوبية، وُلد ونشأ ابن العبري في ملطية حيث درس اليونانية والسريانية والعربية، كما درس اللاهوت والطب والفلسفة³ ولكن المصائب التي توالى على الجزيرة الفراتية أيام غزوات المغول أجبرته على الارتحال إلى أن استقر في مراغة من أعمال أذربيجان ومات فيها.⁴

ولابن العبري ما يزيد عن ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية وفيه تلتقي الثقافتان العربية والسريانية معاً، وكتابه الأهم هو تاريخ مختصر الدول الذي كتبه في آخر حياته وقد كتبه في نسختين الأولى سريانية والأخرى تُرجمت إلى العربية.⁵

ويبدأ ابن العبري تاريخه بآدم عليه السلام ثم دولة قضاة بني إسرائيل ثم ملوكهم ثم دولة ملوك الكلدانيين وملوك الفرس وملوك اليونان الوثنيين وملوك الإفرنج ثم البيزنطيين، ليصل إلى دولة ملوك العرب المسلمين وينتهي بدولة ملوك المغول.⁶

وقد تم الاعتماد أيضاً على غيرهما من المصادر السريانية الهامة ككتاب تاريخ المسيحية الشرقية لمؤلفه عزيز سوريال عطية.

¹ شاعر (مصطفى): التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، 1978م، ط1، ج2 ص423، 424.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص29.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص29؛ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص455.

⁴ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص455.

⁵ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص29؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص42، 43؛ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص455.

⁶ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص455، 456؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص81.

ثالثاً: المصادر الفارسية:

1. فارس نامة، ابن البلخي:

يعد كتاب فارس نامة من أهم المصادر الفارسية، لأنها خلاصة معلومات كاتبها الجغرافية والتاريخية، ولكن التاريخ فيه أكثر من الجغرافية، إذ ضم تواريخ ملوك الفرس الذين حكموا في فارس¹، إلا أنه لم يكتمل على يد مؤلفه بل أكمله في القرن السابع مؤلف آخر اسمه زركوب بكتاب شيراز نامة²، ورغم أهمية كتاب فارس نامة إلا أنه لم يُعرف الكثير عن مؤلفه سوى أنه من عائلة بلخية³ عاشت في فارس، وعمل فيها جده باستيفاء الضرائب، فوُلد ابن البلخي ونشأ فيها كما عمل في الجهاز الإداري في عهد السلطان السلجوقي بركيا روق⁴ (486-498هـ / 1094-1106م) مما أتاح له الاطلاع على ما لم يُتَحَ لغيره.⁵

وقد أفاد البحث بما يحتويه من معلومات مفصلة عن ثورة بهرام جوبين على الشاهنشاه⁶ كسرى أبرويز وكيفية تمكن الأخير من استعادة عرشه الشرعي، كما يتضمن حوارات بين كسرى أبرويز وأبيه وغيرها من الأقوال التي قلما وُجدت في غيره من المصادر.

2. الشاهنامه، الفردوسي (329-411هـ / 490-1021م):

وهو كتاب لأبي منصور بن فرخ الفردوسي، نشأ في طوس بخراسان وهو على رأس شعراء إيران الذين حفظوا شهرتهم إلى اليوم بتأليفه الشاهنامه المتضمنة للأساطير الإيرانية ابتداء من عهد الأساطير

¹ ابن البلخي: فارس نامة، تر وتح يوسف الهادي، القاهرة، دار الثقافة، 2001م، ص4.

² ابن البلخي: فارس نامة، ص4؛ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص397.

³ نسبة إلى بلخ وهي مدينة مشهورة بخراسان، تقع في الإقليم الخامس ولقبت بأُم البلاد وتمتاز بأنهارها الكثيرة وثمارها الوفيرة. الحموي: معجم البلدان، ج1 ص479، مادة بلخ.

⁴ بركيا روق: ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، ويلقب ببهاء الدولة، تملك بعد أبيه، تميزت أيام حكمه بدوام الحرب الأهلية بين التركمان وبالانفراط الفعلي لوحدة الدولة السلجوقية وتمزقها إلى عدة دول، ثم بدخول الصليبيين إلى بلاد الشام وابتحلال أجزاء كبيرة منها. الذهبي (محمد بن أحمد ت748هـ/1347م): سير أعلام النبلاء، تح حسان عبد المنان، عمان، بيت الأفكار الدولية، 2004م، ص1198؛ زكار (سهيل)، المحمد (أنس): تاريخ العصر العباسي الثالث، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2017م، ص167، 168.

⁵ ابن البلخي: فارس نامة، ص12؛ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص397.

⁶ الشاهنشاه: كلمة فارسية ومعناها ملك الملوك. معلوف (لويس): المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار المشرق، 1969م، ط20، ص410.

إلى العصر الإسلامي في قصة منظومة، وكانت الشاهنامه كتاباً يقص البطولة مما رغب فيه الأرمن والكرج والترك من الأقوام المتأثرة بالحضارة الإيرانية، ولهذا الكتاب مكانة ممتازة في آداب العالم¹. وللشاهنامه أهمية كبرى في الاطلاع على تاريخ فارس وحكامها وتوضيح أهم الأحداث التي جرت في عهودهم وسمات العلاقات التي جمعت بين فارس وبيزنطة خلالها، فعليه اعتمد بذكر أحداث وصول كسرى أبرويز لعرشه وأهم مجريات عهده الطويل بعد الاستجداد بالامبراطور البيزنطي موريق.

3. غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، الثعالبي (350-429هـ/961-1037م):

ومؤلفه عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري، وُلد في نيسابور ونسب إليها، عمل في خياطة جلود الثعالب وقيل له الثعالبي لأنه فزاء، واشتغل أبو منصور باللغة والأدب والتاريخ فنبح واشتهر، وجمع أشتات النثر والنظم، ورأس المؤلفين في زمانه²، ولم تتحدث كتب التراجم عن تفاصيل حياته ولكنها أسهمت في ذكر فضله وعلمه، حيث كان الثعالبي أديباً فاضلاً فصيحاً بليغاً وكان يؤدب الصبيان³، كما صنف كتباً كثيرة أهمها غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم وهو كتاب في التاريخ العام يقع في أربع مجلدات الأول في تاريخ الفرس منذ القدم إلى يزيدجرد بن بهرام (438-457م) والحروب بين أبنائه، والثاني إلى سقوط يزيدجرد بن شهريار (10-31هـ/631-651م) والفتح العربي، وفيه تاريخ ملوك اليهود والأنبياء وملوك اليمن وأمراء الشام وبلاد الرافدين والأباطرة البيزنطيين وظهور الإسلام، أما الثالث والرابع فهما في التاريخ الإسلامي منذ العصر الراشدي إلى ظهور الدولة الغزنوية⁴.

4. سفر نامه، ناصر خسرو (394-481هـ/1003-1088م):

وناصر خسرو هو أبو معين الدين القبادياني⁵ المروزي من كبار دعاة الاسماعيلية، وقد كان في الأصل من الكتّاب ومن كبار رجال الدولتين الغزنوية ثم السلجوقية، غير أن توقّده الفكري أدى به إلى بحث الأديان والأفكار والشك فيها حتى انتهى إلى اعتناق المذهب الاسماعيلي، وقد كثرت مصنفاته

¹ بارتولد (فاسيلي): تاريخ الحضارة الإسلامية، تر حمزة طاهر، القاهرة، دار المعارف، 1952م، ط2، ص72.

² الباخريزي (علي بن الحسن ت467هـ/1074م): دمية القصر وعصرة أهل العصر، تح محمد التونجي، بيروت، دار الجيل، 1993م، ط1، ج2، ص966؛ الصفدي (خليل بن أبيك ت764هـ/1362م): الوافي بالوفيات، تح أحمد أرناؤوط وتزكي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000م، ط1، ج19 ص130.

³ ابن خلكان (أحمد بن محمد ت681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968م، ج3 ص178؛ ابن العماد (عبد الحي بن أحمد ت1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر أرناؤوط ومحمود أرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير، 1986م، ط1، ج5 ص151.

⁴ شاكر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص382، 383.

⁵ قباديان: من نواحي بلخ. الحموي: معجم البلدان، ج4 ص303، مادة قباديان.

الأدبية التي كان أهمها سفر نامة وهو كتاب جغرافي يحكي قصة رحلته إلى مصر، وبالرغم من أنها تحمل طابع المذكرات الشخصية إلا أنها مليئة بالأمور التاريخية والمشاهدات الحية، وفيها أهم وأصدق وصف لمصر وللقاهرة في عهد الخليفة العباسي المستنصر (427-487هـ/1035-1094م) بجوامعها وأعيادها ونظام الحكم فيها، كما وصف مكة وبلاد الشام والبصرة وكل ذلك في وصف يعتمد على المشاهدة¹، وما به من معلومات جغرافية غزيرة هي ما أغنت محتوى البحث لا سيما أنها تمتاز بالدقة وقلة المثل لها في المصادر الفارسية.

5. سياست نامة، الطوسي (408-485هـ/1017-1092م):

ومصنفه هو حسن بن علي بن اسحق الطوسي، وزير السلاجقة المشهور وهو سليل عائلة من الدهاقين²، تمكن من أن يصبح كاتباً لدى حاكم بلخ، وهناك تعرف على ألب أرسلان³ (456-467هـ/1063-1075م) الذي اتخذه وزيراً، وبقي في خدمة ابنه ملكشاه⁴ (467-485هـ/1075-1092م) يدير أمور الامبراطورية السلجوقية الواسعة حتى أصبح لقبه نظام الملك، وقد صنّف كتاب سياست نامة بناء على طلب ملكشاه، وقد بسّط فيه قواعد السياسة وأصول الحكم ووضع فيه خلاصة تجاربه الطويلة الممتدة على مدى أربعين سنة، فجاء في تسعة وثلاثين فصلاً، كتبه على البديهة دفعة واحدة ثم أصلحها وأضاف إليها ما جعله خمسين فصلاً، وقد اشتمل الكتاب على قدر كبير من الأخبار والروايات التاريخية كما ضم بالمقابل آراءه السياسية فقد كان واحداً من أنبغ الوزراء الذين ظهروا في المشرق وأطولهم عهداً⁵.

وقد تم الاعتماد على كتاب سياست نامة في توضيح الأعمال الداخلية الهامة للشاهنشاه كسرى أبرويز داخل بلاد فارس إضافة إلى اقتباس بعض الأقوال والحوارات التي دارت بينه وبين بهرام جوبين Bahram Chobin.

¹ شاكر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج 2 ص 390.

² دهقان: كلمة أطلقها العرب المسلمون على أمير كل قبيلة من قبائل الغز. زكار، المحمد: تاريخ العصر العباسي الثالث، ص 90.

³ ألب أرسلان: ابن أخ طغرل بك المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية، تمرد على أخيه ووصل إلى العرش السلجوقي، وهو صاحب النصر في معركة ملاذكرد الشهيرة 463هـ/1071م ضد البيزنطيين ومات مطعوناً على يد أحد المتمردين. زكار، المحمد: تاريخ العصر العباسي الثالث، ص 129، 130.

⁴ ملكشاه: ابن ألب أرسلان وكانت في عهده مرحلة هجرة التركمان إلى بلاد الشام والجزيرة وإخضاعها للحكم السلجوقي المباشر، ووجد مقتولاً بالسهم. زكار، المحمد: تاريخ العصر العباسي الثالث، ص 138.

⁵ شاكر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج 2 ص 390، 391.

رابعاً: المصادر العربية:

1. الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري (282هـ/895م):

والدينوري هو أحمد بن داود بن وند، وُلد في بدايات القرن الثالث الهجري ويُنسب إلى مدينة دينور¹، وكان نحويًا لغويًا مهندساً منجماً حاسباً، رواية ثقة فيما يرويه ويحكيه²، وله العديد من المصنفات أهمها الأخبار الطوال الذي درس فيه فترات من تاريخ العالم، على أن القسم الأول منه تناول التاريخ من آدم عليه السلام شاملاً جميع الأنبياء، والقسم الثاني تناول تاريخ الفرس الساسانيين والبيزنطيين، أما القسم الثالث فقد تناول حروب العرب والعجم متعمقاً في الأحداث الهامة ضمن التاريخ الإسلامي، وقد راعى التسلسل الزمني في كتاباته التاريخية، ومنهجه فيها قائم على إهمال الأسانيد الطويلة مؤثراً السرد الروائي³. وأغنى هذا الكتاب البحث في معرفة أهم أحداث حكم الساسانيين وخاصة الشاهنشاه كسرى الأول أنوشروان Khosrow I (531-579م) وهرمزد الرابع Hormizd IV (579-590م) وكذلك أدق تفاصيل ثورة بهرام جوبين عليه ومن ثم على ابنه كسرى أبرويز وكيف آلت الأمور في النهاية لصالح كسرى أبرويز.

2. تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي (292هـ/905م):

وقد صنّفه أحمد بن اسحق بن جعفر بن واضح اليعقوبي، وهو من أسرة بغدادية عملت في دواوين الخلافة، فجمع إلى جانب الخبرة العملية ثقافة واسعة فكان مؤرخاً وجغرافياً كثير الأسفار⁴، وله كتب متعددة منها كتاب في الجغرافية ويسمى البلدان وكتاب آخر في التاريخ يدعى تاريخ اليعقوبي وهو موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ الخلق حتى سنة 259هـ/872م، ومنهجه في العرض قائم على إهمال الأسانيد بسبب انتشار التدوين مما ساعد على استقرارها في تلك، كما اتبع في عرض مادته على تسلسل العهود خليفة بعد خليفة وأتبع كل خليفة توالي السنين جامعاً بين أسلوب العهود والحواليات⁵، كما

¹ دينور: وهي بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين. الحموي: معجم البلدان، ج2 ص545، مادة دينور.

² الحموي (ياقوت بن عبد الله ت 626هـ/1228م): معجم الأدباء، تح إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993م، ط1، ص258.

³ ترحيني (محمد): المؤرخون والتأريخ عند العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص76، 77؛ شاکر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج1 ص248، 249.

⁴ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص36.

⁵ ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص77، 78؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص46، 47؛ شاکر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج1 ص249، 250، 251.

انفرد بإيراده نصاً لرد هرقل على كتاب الرسول ﷺ وغيرها من المعلومات الهامة المتعلقة بعلاقة الدولة البيزنطية بالفرس.¹

3. تاريخ الرسل والملوك، الطبري (225-310هـ/839-923م):

والطبري هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ، وُلد في آمل² بطبرستان وارتحل بين البلاد وجمع من العلوم ما لم يشاركه به أحد من أهل عصره³ ثم استقر ببغداد وعاصر الخليفة العباسي المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) وكان أبوه قد ترك ضيعة واسعة يُرسل له نصيبه منها حيث حل، فامتنع بذلك عن منح الخلفاء وعطاياهم.⁴ وقد كان حافظاً لكتاب الله عز وجل عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن عالماً بالسنن، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين وملماً بأيام الناس وأخبارهم،⁵ وله تصانيف عديدة أهمها كتاب التفسير الكبير وكتاب تاريخ الرسل والملوك وهو تاريخ عالمي تكلم فيه عن أحداث الزمان، من أول الخلق مروراً بذكر الأنبياء وملوك الفرس والبيزنطيين ومولد النبي ﷺ وصولاً إلى بني أمية والعباس إلى سنة 294هـ/906م⁶، واعتمد في تدوين ما يتعلق فيه بالتاريخ الإسلامي على المنهج الحولي أو التأريخ على السنين.⁷

خامساً: المصادر العربية الجغرافية:

1. فتوح البلدان، البلاذري (279هـ/892م):

لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، أبو الحسن، ذكره الصولي في ندماء الخليفة العباسي المتوكل (232-247هـ/847-861م)، ومات في أيام الخليفة المعتمد (256-279هـ/870-892م) أو في أواخرها وربما أدرك أول أيام الخليفة المعتمد (279-289هـ/892-902م)، نشأ في

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص37.

² آمل: أكبر مدن طبرستان في السهل لأن طبرستان سهل وجبل. الحموي: معجم البلدان، ج1 ص57، مادة آمل.

³ الحموي: معجم الأدباء، ص2457؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص3366؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4 ص53.

⁴ الحموي: معجم الأدباء، ص2449.

⁵ الخطيب البغدادي (أحمد بن علي ت463هـ/1070م): تاريخ بغداد، تح بشار معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001م، ط1، ج2 ص550؛ الحموي: معجم الأدباء، ص2457.

⁶ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص3366؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2 ص212، 213.

⁷ ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص79.

بغداد ثم أصبح عالماً فاضلاً شاعراً نساباً متقناً ينقل عن الفارسية إلى العربية، كثير الهجاء بذئ اللسان أخذاً لأعراض الناس، له من الكتب البلدان الصغير، البلدان الكبير.¹

ومن أهم مصنفاته وأشهرها فتوح البلدان وهو مختصر من كتاب أطول منه كان قد أخذ في تأليفه وسماه كتاب البلدان الكبير ولم يتمه، فاكتفى بهذا المختصر وقد أفاد البحث بغناه بأخبار الفتوح العربية الإسلامية بلداً بلداً بدءاً بفتوحات النبي ﷺ فلم يفرط بشيء منها مع التحقيق اللازم واعتدال الخطة.²

2. معجم البلدان، الحموي (574-626هـ/1178-1228م):

ومؤلفه هو ياقوت بن عبد الله، وهو من مشاهير المؤلفين في الإسلام وأصله رومي ولكنه بيع أسيراً وهو طفل لتاجر حموي أمي اسمه عسكر بن أبي نصر ابراهيم، فأخذ لقبه وتربى في بغداد على يده ليكون كاتباً له يساعد في تجارته، ولكن ياقوتاً تابع الدراسة بحسن استعداده وأتقن الخط والعلوم كما أناب عن سيده في رحلاته إلى فارس ومصر والشام، وقد أعتقه سيده سنة 596هـ/1199م فأخذ يكسب الرزق بنسخ الكتب وبيعها وهذا ما فتح له باب الاطلاع الأوسع، ثم استقر في خوارزم إلا أن الغزو المغولي أجبره على الهرب فأوصلته الدروب في النهاية إلى حلب حيث مات، تاركاً ثروة من المؤلفات أهمها معجم الأدباء ومعجم البلدان وهو موسوعة جغرافية تاريخية على حروف المعجم في قرابة أربعة آلاف صفحة، وقد اعتمد عليه في توضيح المناطق الجغرافية التي وردت خلال البحث.³

سادساً: المراجع الأجنبية:

وهناك جملة من المراجع الأجنبية التي أفادت البحث وأغنته بأهمية المعلومات الواردة فيها وهي على سبيل الذكر لا الحصر:

1. The Reign of Heraclius, G. J. Reinink, Bernard H. Stolte:

وقد اشتمل هذا الكتاب على ثلاثة عشر بحثاً تتناول عهد هرقل بما شهدته من غزو الفرس للمقاطعات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية وهجوم هرقل المضاد واستعادة هذه الأراضي والخسارة النهائية للشرق البيزنطي لصالح العرب المسلمين، وكيف أثر ذلك على أوضاع الامبراطورية ونظرة رعاياها لها.

¹ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص1031؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج8 ص155، 156، 157.

² ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، ص75.

³ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص53؛ شاعر: التاريخ العربي والمؤرخون، ج2 ص250، 251.

2. Heraclius emperor of Byzantium, Kaegi. W:

ويتضمن دراسة عن تاريخ البلقان والشرق الأوسط، وأبرز الإصلاحات والتحديات التي واجهها الامبراطور هرقل في العقد الأول من عهده، إلى جانب الحديث عن أعداء الامبراطورية آنذاك والأخطار التي كانت تحيط بها، ومن ثم توسع المؤلف في الحديث عن الغزو الذي حصل من قبل الفرس على أراضيها وخاصة بلاد الرافدين وكيفية استعادتها لها وينتهي الكتاب بوصف لسنوات كما تم وصفها بالعجاف المتمثلة بالتوسع العربي الإسلامي وما كانت نهاية هرقل.

وقد تمت الاستفادة من هذا الكتاب مما يتضمنه عن حياة الامبراطور هرقل وتوضيحه خلفية التغييرات الأساسية في الامبراطورية بما في ذلك ظهور الإسلام، فبعدما استعاد هرقل الأراضي البيزنطية من الفرس خسرها أمام المد العربي الإسلامي.

3. History of the later Roman empire, Bury. J:

وقد تناول في هذا الكتاب المرحلة من 395م إلى 800م ووقع في جزأين، كان له كبير الأثر في كتابة البحث بما توفر فيه من معلومات عن الامبراطورية البيزنطية¹، وخاصة بما يتعلق بالامبراطور موريق (582-602م) وعلاقته مع الشاهنشاه الساساني كسرى أبرويز عندما أنجده وقدم له المساعدة لاستعادة عرشه المستلب، وكذلك كيفية وصول الامبراطور فوقاس Phocas (602-610م) للعرش البيزنطي وأهم سمات عهده، وتفاصيل إنقاذ الامبراطور هرقل للعرش وللإمبراطورية من حكمه الفاسد.

4. History of the byzantine empire, Vasiliev. A:

يعد من أشهر المؤرخين المشتغلين بالدراسات البيزنطية وكتابه عن تاريخ الامبراطورية البيزنطية، جرت ترجمته إلى لغات عديدة، ويتناول هذا الكتاب دراسة تاريخ الامبراطورية البيزنطية منذ القرن الرابع الميلادي حتى سقوطها عام 1453م.²

5. History of the byzantine state, Ostrogorsky. G:

ويعد من الطراز الأول في الدراسات البيزنطية ومؤلفه أوستروجورسكي Ostrogorsky عالم روسي أصدر كتابه المعروف بتاريخ الامبراطورية البيزنطية ليعالج فيه الدولة البيزنطية حتى سقوطها عام

¹ العربي (السيد الباز): الدولة البيزنطية 323-1081م، بيروت، دار النهضة العربية، 1982م، ص11؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص93.

² العربي: الدولة البيزنطية، ص15.

1453م وأشار إلى تاريخها بين عامي 324م حتى 610م وما يلي ذلك راعى فيه التفصيل وخاصة في المجال السياسي.¹

6. Cambridge history of Iran, R.N. Frye:

وهو كتاب لعدة كُتَّاب مؤلف من سبعة مجلدات مختصين بتاريخ فارس والأقوام التي حلت وحكمت فيها، فالمجلد الأول كان عن جغرافية إيران، أما الثاني فهو عن الدولة الإخمينية، والثالث عن الحكم السلوقي والبارثي والساساني، وقد كان المجلد الرابع عن الزحف العربي الإسلامي والسلجوقي وتضمن الخامس تنمة عن الدولة السلجوقية والمغول، ليكمل المجلد السادس الحديث عن التيموريين والصفويين، بينما يتفرد المجلد السابع بشرح الأوضاع في إيران الحديثة حتى قيام الجمهورية الإسلامية. ومن هذا الكتاب وخاصة من المجلد الثالث تم استقاء بعض المعلومات عن معركة ذي قار الشهيرة والتي دارت بين الساسانيين والعرب المناذرة ولكن من وجهة نظر أجنبية، فضلاً عن غنى هذا الكتاب بمعلومات هامة عن اجتياح كسرى أبرويز لأراضي الامبراطورية البيزنطية واقتطاع أجزاء كبيرة منها لصالح دولته.

سابعاً: المراجع العربية والمعرّبة:

لقد تم الاعتماد في هذا البحث على عدد من المراجع العربية والمعرّبة التي ساهمت في إغناء محتواه بتحليلها الحديث للأحداث، ويأتي في طليعتها:

1. الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، ليلي اسماعيل:

تألف هذا الكتاب من ستة فصول شملت دراسة مفصلة ودقيقة لجميع جوانب عهد الامبراطور هرقل (610-641م) حيث بدأ البحث بالتكلم عن اعتلاء هذا الامبراطور للعرش وما الظروف التي أوصلته لذلك، ليتوسع بعد ذلك بشرح الأوضاع الداخلية والسياسية للامبراطورية البيزنطية خلال سنوات حكمه الطويلة وما كان لها من علاقات مع جيرانها الفرس في الشرق والآفار والسلاف وغيرهم في الغرب ومن ثم العرب المسلمين، ويُعتمد في هذا الكتاب على أهم المصادر اللاتينية والسريانية والعربية وغيرها.

2. الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع، عائشة أبو الجدايل:

يتألف من بابئين أساسيين يتضمن الأول منهما توضيحاً لأوضاع الامبراطورية خلال القرن السادس من امتداد حدودها وطبيعة سلطاتها ونظمها الإدارية وأوضاعها الاقتصادية والدينية وذلك بخمسة

¹ العريني: الدولة البيزنطية، ص16.

فصول، ليكون الباب الثاني شاملاً لتسعة فصول تتكلم بالتفصيل عن الامبراطورية خلال القرن السابع وما طرأ عليها من تغييرات في جميع المجالات.

3. إيران في عهد الساسانيين، آرثر كريستنسن:

أما عن الجانب الفارسي الذي تمت دراسته في هذا البحث فقد اعتمد على العديد من المراجع الهامة المختصة في التاريخ الفارسي والتي كان أبرزها كتاب آرثر كريستنسن وهو أستاذ الدراسات الإيرانية في جامعة كوبنهاجن، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ يحيى الخشاب، وقد انقسم إلى عشرة فصول استلها بملخص عما كانت عليه بلاد فارس قبل مجيء الساسانيين وفرض نفوذهم على المنطقة، ثم أورد التاريخ المفصل للدولة الساسانية من النشوء إلى السقوط والانهيال وما مرت به من عهود قوة وضعف، كما درس الجانب الحضاري لهذه الدولة كالتنظيم الإداري والوضع الديني فيها.

4. تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني، حسن بيرنيا:

ولم يكن من بد من الاعتماد على كتاب الأستاذ حسن بيرنيا المترجم على يد الأستاذين محمد عبد المنعم والسباعي السباعي، وقد شمل هذا الكتاب كل ما يخص بلاد فارس، حيث مهّد له بتعريف عن جغرافية هذه الأرض وأتبعه بموجز عن تاريخ عيلام¹ بمراحله الثلاثة منذ أقدم العصور حتى عام 645م، ومن بعده خمسة أبواب تناولت أربعة منها التاريخ الدقيق لبلاد فارس وما مر عليها من أسر حاكمة وقوى خارجية فرضت نفوذها عليها حتى ظهور الأسرة الساسانية وهو ما يتضمنه الباب الخامس الذي تضمن تاريخاً فصل فيه أحداث عهد كل حاكم على حدة، حتى انتهى الجانب السياسي بوضع إيران بعد الفتح العربي الإسلامي، إضافة إلى أنه لم يهمل الجانب الحضاري في العصر الساساني من جميع النواحي الإدارية والدينية والأدبية والفنية.

¹ عيلام: أطلق مصطلح عيلام على المنطقة التي يحدها نهر دجلة غرباً وجزء من مقاطعة فارس شرقاً، ويحدها من الشمال الطريق الممتدة من بابل إلى همدان، ومن الجنوب الخليج حتى مدينة بوشهير. بيرنيا (حسن): تاريخ إيران القديم، تر: محمد عبد المنعم والسباعي السباعي، الفجالة، دار الثقافة، 1992م، ط2 ص94، 95.

التمهيد:

لكل زمان دولة ورجال، ولكل عصر عظماءه الذين يتنافسون على الصدارة في الساحة السياسية، فعرف الإنسان الصراع بين المشرق والمغرب منذ أقدم الأزمان على اختلاف الأسر الحاكمة والدول القائمة، ولعل أهمها ما حدث من نزاع في بداية القرن الأول الهجري/ نهاية القرن السادس و بطلع السّابع الميلادي بين الساسانيين في بلاد فارس والبيزنطيين في بلاد الروم بسبب نتائجها المؤثرة، فما هي بدايات هذا الصراع؟

بعد أن دبَّ الضعف في الامبراطورية الرومانية القديمة انقسمت على نفسها لتخلق وريثاً لها مركزه القسطنطينية Constantinople ويحمل أعباء الدفاع عما تبقى منها، ولكنه تمكّن أن يقوّي نفسه وينشئ امبراطورية مترامية الأطراف وهي الامبراطورية البيزنطية تنافس الفرس الذين شهدوا في ذلك الوقت سقوط الأسرة الإثكانية وتسلم الأسرة الساسانية الذين لم يقلّوا عن البيزنطيين قوة ونفوذاً.

عاشت كل من الامبراطوريتين مراحل ضعف أوشكت أن تؤدي بها ومراحل قوة لم تأت من فراغ، فقد مرَّ على كل منهما أباطرة وملوك رفعوا من شأن دولتهم وجعلوها في مصافِّ الدُول، فها هو الامبراطور البيزنطي جستنيان الأول الكبير Justinian I the great (527-565م) الذي ابتداءً عهده بذكاء عندما عقد صلحاً مع كسرى الأول أنوشروان¹ Khosrow I (531-579م) عام 532م ليتفرغ من أجل تنظيم الوضع الداخلي المتردي في بلاده من خلال القضاء أولاً على ثورة النصر التي قامت في العام نفسه وكادت أن تطيح بحكمه لولا وقوف زوجته ثيودورا Theodora إلى جانبه وقسوة من حوله في إخماد هذه الثورة²، كذلك جمعه للقانون الروماني الذي كان يتألف من مجموعة عشوائية من المراسيم الامبراطورية وقرارات مجلس الشيوخ وأحكام أو فتاوى رجال القانون في القضايا المختلفة، فرتّبها وصنّفها ضمن أبواب ليسهل استخدامها³، ولا يجب تغييب دوره الواضح في المنجزات العمرانية كالأديرة والكنائس

¹ أنوشروان: معناه النفس السعيدة أو جديد الملوك أو الروح الخالدة. المسعودي (علي بن الحسين ت345هـ/956م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به كمال مرعي، بيروت، المكتبة العصرية، 2005م، ط1، ج1 ص201؛ الفردوسي (أبو منصور بن فرخ ت411هـ/1021م): الشاهنامه، تر سمير مالطي، بيروت، دار العلم للملايين، 1979م، ط2، ص169؛ العابد (مفيد): معالم تاريخ الدولة الساسانية، دمشق، دار الفكر، 1999م، ط1، ص62.

² عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص158.

Mango. C: The oxford history of Byzantium, London, Oxford university press, 2002, P45,46.

³ توفيق (عمر كمال): تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعارف، 1967م، ص55؛ الشيخ (محمد مرسي): تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994م، ص56؛ عمران (محمود): معالم تاريخ=

وتشجيعه للتجارة والصناعة، فكان من أنصار سياسة الإعمار والبناء في كافة أنحاء الامبراطورية وخاصة في عاصمة ملكه والمدن الرئيسية بالأقاليم.¹

كما عدّ جمع كلمة شعبه الدينية على شريعة واحدة ومحو الخلاف بينها عاملاً أساسياً في استمرار حركة النهضة الشاملة التي يسعى إليها، فأقام علاقات ودية مع البابا أجاييتوس Agapetus وانتصر لمذهب الطبيعتين² المذهب الرسمي للدولة، واهتم بالقضاء على الوثنية والمذاهب المخالفة له، لذا حارب أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزتي³، ونظراً للظلم الذي تعرضوا له، ذهب أسقف مدينة الرها Edessa يعقوب البرادعي Jacobus Baradaeus عام 528م إلى القسطنطينية لإقناع الامبراطورة ثيودورا Theodora زوجة جستنيان بمذهب الطبيعة الواحدة ودفعها لوقف الاضطهاد عن أتباعه الذين عُرفوا باليعاقبة Jacobite church⁴، وفعلاً حصل له ما أراد حيث اعتنقت ثيودورا مذهبهم سرّاً وبدأت بدعمهم إلى أن صار جستنيان نفسه وتدرجياً على نفس مذهبها بل وحارب أصحاب مذهب الطبيعتين.⁵

=الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2000م، ص53؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص163، 164

Mango: The oxford history of Byzantium, P45. Ostrogorsky. G: History of the byzantine state, translated by Joan Hussy, Oxford, Alden press, 1968, P75,76.

¹ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص59؛ الشاعر (محمد): السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في القرن السادس، المنوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989م، ص82؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص164، 165.

² مذهب الطبيعتين: مذهب اعتقد أصحابه أن للمسيح طبيعة بشرية مستقلة ومنفصلة تماماً، وطبيعة إلهية مستقلة ومنفصلة تماماً، فكان المسيح بشر وإله معاً، وساد هذا المذهب في الامبراطورية البيزنطية باستثناء مصر وبلاد الشام. العبادي، (مصطفى): الامبراطورية الرومانية، اسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1999م، ص259، 260.

³ المذهب المونوفيزتي: مذهب يدعى أتباعه بالمونوفيزتيين أي القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة حيث ذابت الطبيعة البشرية في الطبيعة الإلهية وبقيت الطبيعة الإلهية وحدها، أي أن طبيعة المسيح هي الإلهية، وساد هذا المذهب في الأقاليم الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية وخاصة مصر وسورية وفلسطين وأرمينية. اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص142؛ بينز، (نورمان): الامبراطورية البيزنطية، تر حسين مؤنس ومحمود زايد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1950م، ط1، ص104؛ علي، (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (د.م)، 1993م، ط2، ج6 ص630، 631.

⁴ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6 ص631.

Bury. J: A history of the later Roman empire, London, R. Clark, 1889, volume2, P6,10.

⁵ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص54، 55؛ الشاعر: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص125؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص166، 167.

كما سعى جاهداً لعدم إغضاب هؤلاء اليعاقبة بعدما أدرك أهميتهم ومكانتهم داخل الدولة، وخاصة لأنهم كانوا غالبية سكان مصر وسورية ويتركزون في الأقاليم الشرقية المتاخمة لبلاد فارس، ليضمن الهدوء في المناطق الشرقية القريبة من عدوّه الفارسي، وبالتالي أخفق في التوفيق بين أنصار المذهبين.¹ وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن انتصاره لمذهب معين دون غيره لم يكن نابعاً عن رغبته في تحقيق الوحدة بين أتباع المذاهب الدينية، بل كان يسعى وراء ما يحقق له مصالحه السياسية والسلام مع أخطر أعدائه ولو تطلب ذلك تغيير مذهبه الشخصي واتباعه لمعتقدات مذهب آخر مخالف له.

ثم عمل جستنيان على تنظيم جيشه والنظم الحربية لازدياد الأخطار على امبراطوريته وليتمكن من تحقيق حلمه الأكبر ألا وهو إعادة الامبراطورية الرومانية إلى مجدها السالف واستعادة أملاكها في الغرب، تلك الأملاك التي هاجمتها القبائل البرابرية² واستقرت فيها، فكان منهم القوط *Goths*³ الذين انقسموا إلى شرقيين *Ostrogoths* يحكمون إيطاليا وغربيين *Visigoths* في إسبانيا وكذلك الواندال *Vandals*⁴ في إفريقية⁵ الذين انتصر عليهم جستنيان عام 533م وحرّر إيطاليا من القوط الشرقيين بالسيطرة على عاصمتهم رافنا *Ravenna* عام 540م رغم تنظيمهم الجيد وقوتهم الكبيرة، ولم تزده نجاحاته إلا طمعاً بمزيد من الانتصارات فوجّه مجهوده نحو إسبانيا حيث كان القوط الغربيون يحكمون، وأحرز فيها نجاحاً كبيراً فقد استطاعت جيوش الامبراطور أن تستعيد الجزء الجنوبي الشرقي لإسبانيا حتى قرطبة *Cordoba* عام 554م.⁶

¹ العلان (أرواد): فارس وبيزنطة، دمشق، دار رسلان، 2009م، ص31.

² البرابرية: وهي تسمية لا تعني الهمجية أو الوحشية لأن المقصود بها مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي الذي لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة، وهم قبائل أحاطت بالامبراطورية الرومانية واجتاحوا حدودها ليس بغرض الاستعمار الحاد بل بحثاً عن ملجأ لهم يخلصهم من ضغط قبائل أخرى أشد عنفاً منهم. عاشور (سعيد): أوربا العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1986م، ط10، ج1 ص72؛ يوسف، (جوزيف): تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1984م، ص69.

³ القوط: أول الشعوب الجرمانية التي نزلت بالامبراطورية الرومانية، وكانوا يقيمون في سهول روسيا الجنوبية الغربية، وقد اضطروا إلى النزوح عن مواطنهم الأصلية بسبب ضغط القبائل الآسيوية القادمة من الشرق. يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص72.

⁴ الواندال: من الشعوب الجرمانية التي دخلت الامبراطورية الرومانية في وقت متأخر عن غيرها، وعُرفوا بالبطش والشدّة في معاملة الناس. يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص77.

⁵ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص48.

⁶ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص48، 51؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص44، 53؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص29.

كما ازداد الخطر البرابري أيضاً بين عامي 540-550م عند نهر الدانوب Danube وشبه جزيرة البلقان Balkans، فكانت قبائل السلاف¹ تغير على الأراضي الواقعة جنوب هذا النهر من أجل السلب والنهب وتعود سريعاً إلى شماله² فأقام الامبراطور جستنيان تحصينات مؤلفة من ثمانين قلعة على طول نهر الدانوب بعد هجمتهم المدمرة التي وصلوا فيها إلى اليونان عام 540م، ولكن كانت تحصيناته حلاً مؤقتاً إذ كرر السلاف هجماتهم مرات أخرى³، فعمد إلى تغيير سياسته معهم ولجأ إلى التفريق بينهم ليسهل السيطرة عليهم، وهذا ما يبرر العداء المتبادل بين قبائلهم (الانتيس Antes والسكلافينز Sclavens) عام 533-545م⁴، فتحالف مع الانتيس عام 545م⁵ بينما استمر السكلافينز بتكرار الهجوم على الامبراطورية البيزنطية.⁶

كما فعلت ذلك قبائل الهون Huns⁷ التي لم ترحمهم، بل وعاشت فساداً وخراباً بكل ما يصادفها، فنفذت إلى داخل بلاد الإغريق وبلغت الدردنيل Dardanelles وتراقيا Thrace، واحتلت سهول شبه جزيرة القرم فزعزعا استقرار المنطقة وهددوا وجودها، لكن بذكاء جستنيان وحكته وشجاعة قوّاده تمكن من أن يقضي عليهم ويضربهم ببعضهم بإقامة الحصون والأسوار ليحمي بلاده منهم.⁸

¹ السلاف أو الصقالبة: شعوب كانت مستقرة في أواسط آسيا ثم تعرضت لضغط قبائل برابرية شديدة الوطأة مما أدى بكثير من العناصر الصقلبية إلى الوقوع في الأسر والتحول للعبودية ومن هنا جاءت تسميتهم بالسلاف Slave أي العبد، وهم قوم يمتازون بالشعر الأصهب والصولة الشديدة. القزويني (زكريا بن محمد ت 682هـ/1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، (د.ت)، ص614. عمران (محمود): تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 2006م، ط1، ص73. يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص70.

² الشاعر: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص184، 185.

³ Barford: The early slavs, New York, The Cornell university press, 2001, P52. Bury: A history of the later Roman Empire, P21.

⁴ Barford: The early slavs, P51. Curta, F: The Making of Slavs, Cambridge, Cambridge University press, 2004, P77,78. Kmietowicz, F: Ancient Slavs, USA, Worzalla, 1976, P136.

⁵ Barford: The early slavs, P51. Curta, Florin: The Making of Slavs, P81.

⁶ Bury: A history of the later Roman Empire, P22. Kmietowicz: Ancient Slavs, P137, 138, 139.

⁷ الهون: قبائل تركية معروفة بهمجيتها، هجرت موطنها الأصلي أواسط آسيا وشمال الصين بسبب جفاف أراضيهم التي كانوا يعتمدون عليها في رزقهم ومعيشتهم، تمكنوا من تأسيس واحدة من أكبر الامبراطوريات التي عرفها التاريخ تمتد من سيبيريا شرقاً واجتازت نهر الراين في ألمانيا غرباً. تركماني: تاريخ الأتراك والتركمان، ص20، 21؛ يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص70.

⁸ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص52، 62؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص53، 54؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص77، 78.

وخلال تلك السنوات التي خاض فيها جستنيان حروبه على الجبهة الغربية استغل معاصره الفارسي كسرى بن قباد المعروف بأنوشروان (531-579م) انشغال عدوه البيزنطي وفرصة السلام التي بينهما بموجب معاهدة عام 532م وعمل على تحسين وضع بلاده الداخلي وتقويتها هو أيضاً، فشجّع الزراعة والصناعة والتجارة وعاقب المتشردين والمتسولين، واستصلح الأراضي وأصلح نظام الضرائب، كما عني بالعمران وأحكم البنيان وشيّد القلاع والحصون، كما أبدى اهتماماً بالجانب العلمي فنقلت بعض كتب الثقافة الهندية مثل كليلة ودمنة إلى لغتهم البهلوية¹، كما شجّع فلاسفة اليونان الذين لجؤوا إليه، وقوم فساد النظام القضائي حتى أنه كان يحقق ببعض المسائل القضائية بنفسه، وكانت الأحكام التي يحكم بها تنفّذ في أنحاء فارس على وجه السرعة²، وقد استتب الأمن في عهده داخل البلاد لما كان له من الحزم وشدة البأس وقوة الشخصية التي استطاع فرضها على شعبه، حيث لم يعرف التسامح مع من وجد فيه خطراً على استقرار بلاده، فأمر مثلاً بإباحة دماء المزدكية³ بعدما قُتل مزدك نفسه بين يديه وأُخرج وأُحرقت جثته، فنكّل بهم وأُحرقت كتبهم⁴، فقد عمت الفوضى والاضطرابات بسببهم في البلاد كافة واستبيحت أعراض النساء وأموال الأغنياء وغير الأغنياء وترزعزع الاستقرار الاجتماعي، كما أمر كسرى أنوشروان برّد النساء إلى بيوتهنّ والأموال المنهوبة إلى أصحابها، أما الأموال التي لا وارث لها فحوّلها إلى خزانة الدولة لإصلاح المفاسد، وألحق كل المواليد المختلف في نسبهم بالقصر الملكي الذي تكفل بأمور رعايتهم⁵.

¹ اللغة البهلوية: لغة تكلم بها الفرس من الأسرة الإشكانية، وهي من أصل آري إيراني ولكنها تأثرت بلغات أخرى فأطلقت عليها هذه التسمية، وعُدّت بمنزلة وسطى بين اللغة الفارسية القديمة والفارسية الحالية. بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص310.
² بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص360، 361.

³ المزدكية: حركة دينية اجتماعية تنسب إلى مزدك الذي ظهر أيام قباد الأول مطلع القرن السادس الميلادي وقال بوجود مبدئين أو أصليين للكون هم الظلمة والنور، وقد نهى عن المباغضة والمخالفة والقتال، ولأن أكثر أسباب ذلك النساء والأموال، أحلّ النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في النار والماء وانتشر في إيران وآسية الوسطى وأذربيجان. خطاب (محمود): قادة فتح بلاد فارس، بيروت، دار الفتح، 1965م، ط1، ص 42، 43؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص73، 74.

⁴ الثعالبي (عبد الملك بن محمد ت429هـ/1037م): غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، باريس، المطبعة الوطنية، (د.ت)، ص604، 605؛ أبو الفداء، (اسماعيل بن علي ت732هـ/1331م): المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، (د.ت)، ج1 ص67.

⁵ الطبري (محمد بن جرير ت310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك، تح محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1967م، ط2، ج2 ص101، 102؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص201؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص167، 168؛ فرزات (محمد): مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة قبل الإسلام، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، 1988م، ص143=

كذلك أدخل الإصلاحات الجديدة للنظام العسكري، فقسم بلاد فارس إلى أربعة أقاليم إدارية وألغى وظيفة القائد العام الذي كان يتولى قيادة الجيش، وفُرق سلطة هذا المنصب بين أربعة قادة من أجل الإسراع في تنفيذ الأحكام ومنع نفوذ الأقوياء، منهم واحد للمشرق وهي خراسان¹، والثاني من العراق حتى الحدود البيزنطية، والثالث لليمن والرابع لأذربيجان²، وما والاها وهي بلاد الخزر³، وهياً جيشاً قوياً جعل منه أداة عظيمة في الحرب وحفظ الأمن،⁴ ضرب به خصومه ومهددي عرشه مهما كانت قرابته حيث قتل إخوانه الطامعين بالعرش وأبناءهم جميعاً، وحقق به ما يصبو إليه داخلياً وخارجياً من توسيع نطاق دولته وضم أراضي جديدة إليها.⁵

وهكذا فإن نجاح أي دولة على الصعيد الخارجي سواء كان هذا النجاح سياسياً أو عسكرياً، يبدأ أولاً من داخل الدولة نفسها، فيكسب الحاكم دعم شعبه ويضمن هدوءه حتى لا يجمع على نفسه فيما بعد الضغط الخارجي والثورة الداخلية.

وتوجَّب على كل من الساسانيين والبيزنطيين على حدٍ سواء استكمالاً لإجراءات حفظ أمن بلادهم وحدودها الخارجية أن يتعاملوا مع العرب ويسترضوهم ويضعوا حساباً لهم، فقد كانت كل من الامبراطوريتين تعاني من القبائل العربية المنتشرة على حدودها، إذ كانت هذه القبائل تكسب معيشتها

=فيزهوفر (يُزِف): فارس القديمة 550ق.م-650م، تر محمد جديد، مراجعة زياد منى، بيروت، دار قدمس، 2009م، ط1، ص207.

¹ خراسان: ومعناها في الفارسية القديمة "البلاد الشرقية" وكان هذا الاسم يطلق في أوائل القرون الوسطى على جميع الأقاليم الإسلامية الشرقية من العراق حتى حد جبال الهند، إلا أنه مع الوقت أصبح اسم خراسان يدل على أحد أقاليم فارس في القرون الوسطى ولم يكن يمتد أبعد من نهر جيحون في الشمال الشرقي، ويشمل هذا الإقليم مدناً هامة كنيسابور وهراة ومُزو وبلخ. الحموي: معجم البلدان، ج3 ص350، مادة خراسان. لسترنج (كي): بلدان الخلافة الشرقية، تر بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، (د.ت)، ص423.

² أذربيجان: إقليم يحده من الشرق ولاية جيلان وبحر الخزر (قزوين) ومن الغرب أرمينية وجزء من بلاد الجزيرة الفراتية ويحدها من الشمال أران ومن الجنوب حدود العراق. بخيت (رجب): تاريخ الإسلام في أذربيجان، القاهرة، دار العلم والإيمان، 2009م، ص33، 34.

³ بلاد الخزر: هي المنطقة الواقعة ما بين نهر الفولغا والقفقاس. خطاب (محمود): أرمينية بلاد الروم، بيروت، دار قتيبة، 1990م، ط4، ص18.

⁴ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص360، 361؛ خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص57، 58؛ الكعبي (نصير): الدولة الساسانية، دمشق، دار رسلان، 2015م، ص126؛ ولبر (دونالد): إيران ماضيها وحاضرها، تر عبد النعيم حسنين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1985م، ط2، ص43.

⁵ الجاف (حسن): موسوعة تاريخ إيران السياسي، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2008م، ط1، ج1 ص106، 107.

بالغزو، فتترقب الفرص لتغير على أراضي الفرس أو الروم دون تفريق وإذا جابهتها قوة دفاعية تقهقرت إلى البادية حيث يصعب على غير العرب الدخول إلى أعماقها لتأديبهم، كما كانت تهاجم الحدود أو الجيوش النظامية في أثناء انتقالها إلى ساحات القتال أو اشتغالها فيه أو خلال تراجعها وهزيمتها، فتوقع بها وتكبدها الخسائر وتربك وضعها، ثم أنها كانت تنتقل من موضع إلى آخر أي من الأراضي الخاضعة لسلطان البيزنطيين إلى الأراضي التابعة للساسانيين وبالعكس، وقد نشور وتهاجم القرى في دولة ما، فإذا عاقبتها هاجرت إلى الدولة الأخرى المعادية لها مما يسبب الاضطراب في الدولتين معاً.¹

لذلك دعمت بيزنطة تأسيس مملكة عربية قوية موالية لها وتدافع عن مصالحها في المنطقة وهي مملكة الغساسنة ابتداءً من ملكها الحارث بن جبلة في بلاد الشام، بينما ساند الساسانيون أيضاً المناذرة ابتداءً من زعيمها المنذر ابن النعمان ومملكته في الحيرة،² ولكي تضمن كل من الامبراطوريتين ولاء العرب لهم زرعت بذور الفتنة بينهما وعملت على تنميتها غير مدركة عواقبها، فما حصل عام 539م من خلاف قد أوقع كل من الامبراطوريتين في حرب طويلة، واختلفت الروايات حول سببها فهناك من يقول أن النزاع قد بدأ حول الطريق التجاري المعروف بالاستراتا Strata³ الذي كان الغساسنة يحرسونه مؤكدين بأن هذه الأرض تخص بيزنطة كما يتبين من اسمها اللاتيني، بينما ادعى المنذر بأنها تدخل في منطقة نفوذه وطالب الحارث بدفع الأتاوة له وبالتالي أراد تملك هذه الأرض، ولحل النزاع أرسل جستنيان وفداً للنظر بالأمر دون الرجوع إلى كسرى أنوشروان لأن اتفاقية عام 532م بين بيزنطة وفارس لا تشمل العرب ورغم ذلك أعلنت عليه الحرب، فاعتقد البيزنطيون بأن كسرى أنوشروان هو من حرّض المنذر على هذا الأمر مدفوعاً بقلقه من استمرار انتصارات جستنيان على الجبهة الغربية ضد البرابرة.⁴

بينما يقول آخرون أن سبب الخلاف هو غزو خالد بن جبلة الغساني لأراضي المنذر، فقتل من أصحاب المنذر مقتلة عظيمة واستاق عدداً من إبله وخيله، مما دفع المنذر أن يكتب إلى كسرى أنوشروان

¹ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2 ص627، 652.

² الشاعر: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص165، 166.

³ الاستراتا: هو الطريق الروماني الكبير الذي يمر جنوب تدمر ويربط بين عدد من النقاط المهمة، وهو وإن كان طريقاً تجارياً إلا أنه كانت له أهمية استراتيجية. بيغوليفسكا (نينا): العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، تر صلاح الدين هاشم، الخرطوم، 1983م، ص116.

⁴ بيغوليفسكا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص116، 117؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص171.

يخبره بما حدث، فغضب له وأرسل يهدد جستنيان ويدعوه لتقدير عواقب الأمور فبعث له الأخير رسالة يحطُّ فيها من قدرته ودولته.¹

وعلى جميع الأحوال فقد سار الشاهنشاه كسرى أنوشروان إليه بجيش جرار بعد الاجتماع بكبار رجال دولته، وصل فيه إلى أذربيجان والجزيرة وسيطر على ما فيها من مدن، وعبر الشام مخضعاً حلب وقنسرين وحمص وأفامية²، حتى وصل أنطاكية عام 540م - وهي من أهم مدن بيزنطة آنذاك - حيث دانت له بعد حصار لثلاثة أيام فسبى أهلها ونهب ثرواتها، فاضطربت الامبراطورية البيزنطية ولم تجد أمامها سوى الصلح فسارعت نحوه، وفاوض الرسول البيزنطي كسرى أنوشروان، فوافق على عقد اتفاقية عام 545م تدفع بموجبها بيزنطة لفارس فدية سنوية مما يعدُّ إهانة كبيرة بحقها.³

وإن توقفت الحرب بينهما لاستغرب قارئ التاريخ من ذلك، حيث تجدد الصراع حول منطقة القفقاس (القوقاز) Caucasus⁴ ولأن الطرفان لم يتمكنوا من تحقيق نصر حاسم، اضطر كل منهما إلى توقيع صلح عام 562م مدته خمسون عاماً اقتسمت فيه الدولتان المصالح الاقتصادية والاستراتيجية والدينية في المنطقة.⁵

¹ الفردوسي: الشاهنامه، ص 171؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 361، 362؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 64.

² أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. الحموي: معجم البلدان، ج 1 ص 227، مادة أفامية. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P79.

³ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 102؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 171؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 361، 362؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 64؛ الكعبي: الدول الساسانية، ص 127.

⁴ القفقاس: وهي المنطقة التي يحدها بحر الخزر (قزوين) من الشرق وبحر بنطس (الأسود) من الغرب وبينهما تمتد سلسلة جبال القفقاس ويحدها من الشمال نهر ترك وقوبان ومن الجنوب نهر كورا وريفون، وتعدُّ الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا. شاکر (محمود): قفقاسيا، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1972م، ص 9؛ عزت (يوسف): تاريخ القوقاز، استنبول، مطبعة عيسى الحلبي، 1912م، ص 11.

⁵ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 65؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص 18.

عندها استغل كسرى أنوشروان فرصة السلام مع بيزنطة وعمل على جبهات أخرى، فصاهر خان الترك¹ موكان خان وحالفه ضد الهياطلة² Hephthalites واتفقا على مناصفة أراضيهم، عندها توقف كسرى أنوشروان عن دفع الجزية لهم وشن هجوماً عنيفاً على بلاد الهياطلة قُتل ملكهم خلاله وانتصر عليهم، فأصبح بذلك نهر جيحون Amu Darya³ يشكل الحدود الشمالية الشرقية للدولة الساسانية⁴، كما هاجم كسرى أنوشروان شعب الخزر Khazars⁵ وقضى عليهم وقتل منهم الأعداد الكبيرة، وفرض سيطرته على اليمن بعدما طلب أهلها مساعدته ضد الأحباش⁶.

وخلال هذه السنوات كان جستنيان قد قضى ليطل عصر جديد على العالم اتسم بالضعف وقلة الحيلة من حكامه، فها هو الامبراطور جوستين الثاني Justin II (565-578م) يتسلم العرش البيزنطي ليبدأ عهده بدولة تعاني داخلياً من أزمة اقتصادية بسبب كثرة ما أنفقه سلفه جستنيان الأول، فخوت الخزانة

¹ الترك: طائفة من الهون تُعرف باسم (أسنا) هاجرت إلى الغرب هرباً من ضغط امبراطورية الصين عام 433م وانقسمت إلى قسمين في أزمنة لاحقة، فاختار القسم الشرقي الإقامة في الأراضي الواقعة بين مغولستان وجبال الأورال، واحتل القسم الغربي المناطق الواقعة بين جبال ألتاي وسيحون، وكلمة ترك مأخوذة من الجبل الشبيه بقبعتهم التي تسمى في التركية (دورك) ويدعى ملكهم خاناً. بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 364، 365.

² الهياطلة (أو الهون البيض White Huns): قبائل تركية هاجرت من موطنها الأصلي في شمال غرب الصين وغزوا الأقاليم الشرقية من إيران وبلاد ما وراء النهر والهند وأنشؤوا امبراطورية لهم، وبلغوا من القوة أن اجتاحت الامبراطورية الفارسية أكثر من مرة. تركماني: تاريخ الأتراك والتركمان، ص 29، 30.

³ نهر جيحون: ينبع في المرتفعات شمال أرمينية الصغرى يسير من الشمال إلى الجنوب، ويصب في بحر خوارزم. الحميري (محمد بن محمد ت 900هـ/1494م): الروض المعطار، ص 185؛ البروسوي (محمد بن علي ت 997هـ/1589م): أوضح المسالك إلى معرفة الممالك، تح المهدي الرواضية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2006م، ط 1، ص 77؛ خطاب: أرمينية بلاد الروم، ص 201.

⁴ الدينوري (أحمد بن داود ت 282هـ/895م): الأخبار الطوال، تح عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الشيال، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1959م، ص 68؛ المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 202، 201؛ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ/1406م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط 1، 2001م، ج 2 ص 209، 210؛ خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص 58؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 65.

⁵ شعب الخزر: قوم من أصل تركي ولكن لغتهم ليست تركية ولا فارسية، بل لغة خاصة بهم لا يشاركون فيها فريق من الأمم. دنلوب (د.م): تاريخ يهود الخزر، تر سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، 1986م، ص 71.

⁶ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 1 ص 68؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 365؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 65.

المالية واضطرب الوضع السياسي¹ بسبب عودة الصراع بين حزبي الزرق والخضر² كما أحاط بها الأعداء من كل حذب وصوب، فنزل اللومبارديون³ Lombards في شمال إيطاليا عام 568م وأقاموا عدداً من الولايات التابعة لهم فيها،⁴ وهاجم السلاف والآفار⁵ Avars شبه جزيرة البلقان وهددوا العاصمة القسطنطينية⁶، ورغم هذه الأحوال لم تتجذّر جوستين حكمتها فاستخفّت بقوة ومقدرة كسرى أنوشروان بعدما بلغ من العمر السبعين خريفاً، فتحالفت مع الترك الذين قويت شوكتهم شيئاً فشيئاً، وسير الطرفان جيشاً نحو أرمينيا وشمال سورية، لكنّه سرعان ما تراجع عندما رأى كسرى أنوشروان على رأس جيوش الساسانيين عند أطراف أنطاكية، فتركها للفرس الذين أحرقوا المدينة ودمروا كنائسها العريقة،⁷ وليسيطروا أيضاً على مدينتي أفامية ودارا⁸ Dara والتي كان لسقوطها أثر كبير، إذ أصيب الامبراطور البيزنطي بلوثة عقلية⁹

¹ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص181.

² حزبا الزرق والخضر: انقسم المجتمع الروماني إلى أحزاب مؤيدة لسباقات العجلات التي كانت تُقام في الملعب وسط القسطنطينية، واتخذت من ألوان أثواب المتسابقين لقباً لها كالأزرق والأخضر والأبيض والأحمر، ثم تحولت إلى أحزاب سياسية ذات نفوذ ومال، ليرز منها في القرن السادس حزب الزرق الذي ارتبط بمصالح الطبقات العليا، وحزب الخضر الذي يمثل مصالح الطبقات الدنيا، واختلاف مصالحهم وأهدافهم استمرت الصراعات الطبقيّة الشديدة بينهما والتي أسفرت عن قيام ثورة النصر في عهد جستنيان الأول وكادت أن تطيح بحكمه. العريني: الدولة البيزنطية، ص79، 80.

³ اللومبارديون: قوم يعود موطنهم الأصلي إلى إقليم نهر الألب، وتمكنوا في القرن الخامس الميلادي من السيطرة على هنغاريا وحكموها ثم توسعوا بعد ذلك حتى وصلوا إلى نهر الدانوب، من ثم بدؤوا بالتوجه نحو إيطاليا والاستقرار فيها. عمران: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص148.

⁴ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص67؛ هسي (جون): العالم البيزنطي، ترأفت عبد الحميد، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، 1997م، ص100.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P79.

⁵ الآفار: شعب تركي أقاموا امبراطورية لهم في السهوب شمالي بحر الخزر (قزوين) وشمالي القفقاس، ثم انقسموا إلى قسمين أحدهما في أوروبا الشرقية، بينما تحرك الآخر غرباً إلى نهر الدانوب واستقر في إقليم داسيا (رومانيا الحالية) ليتوسعوا في أواخر القرن السادس الميلادي من نهر الفولغا شرقاً حتى بحر البلطيق غرباً وفرضوا جزية على الامبراطورية البيزنطية، وكان لهم تأثير كبير في هجرة القبائل السلافية إلى مناطق من أوروبا الشرقية لم يكونوا قد عرفوها من قبل. تركماني (أسامة): تاريخ الأتراك والتركمان، حمص، دار الإرشاد للنشر، 2007م، ص42.

⁶ العريني: الدولة البيزنطية، ص105، 106.

⁷ داووني (جلانفيل): أنطاكية القديمة، تر ابراهيم نصحي، القاهرة، دار نهضة مصر، 1967م، ص330.

⁸ دارا: بلدة تقع بين نصيبين وماردين. البكري (عبد الله بن عبد العزيز ت487/1094م): معجم ما استعجم، تح مصطفى السقا، بيروت، دار عالم الكتب، 1945م، ج2 ص532 حاشية رقم 3.

⁹ اللوثة: يقال أن الرجل به لوثة أي فيه مس من جنون. معلوف: معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ص738.

دفعت زوجته على تحمل المسؤولية في إدارة أمور الدولة بمساعدة القائد تيبيريوس، فعقد الصلح مع كسرى أنوشروان الذي لم يهنأ به إذ توفي عام 579م¹.

واتسمت أحوال الامبراطورية البيزنطية بالهدوء النسبي في عهد الامبراطور تيبيريوس Tiberius (578-582م) الذي حكم باسم الامبراطور جوستين الثاني حتى وفاته، فعلى الرغم من استمرار الصراع بين حزبي الزرق والخضر²، إلا أنه حاول التقرب إلى الشعب بتخفيض الضرائب عنهم³، كما نجح خارجياً عن طريق الدبلوماسية بكسب بعض قواد اللومبارديين بإغرائهم بالعمل لمصلحته في شبه الجزيرة الإيطالية، كذلك تمكن من مهادنة الآفار بعد أن وافق على دفع جزية لهم، إلى جانب هدنة مؤقتة مع الفرس في إقليم الجزيرة فقط ريثما يهيئ جيشاً جديداً قادراً على القتال، ففي عام 578م عين الامبراطور القائد موريق (موريس) قائداً للفرق العسكرية في الشرق الذي استطاع إحراز بعض الانتصارات على الفرس، مما دفع تيبيريوس على إعادة المفاوضات معهم، وعرض على كسرى أنوشروان فارس شروط مغرية مقابل السلام، ولكن وفاة كسرى أنوشروان حالت دون ذلك، ليسلم العرش من بعده لابنه الشاهنشاه هرمزد الرابع Hormizd IV (579-590م)⁴، ليكون معاصره الامبراطور موريق (موريس) Maurice (582-602م) بعد وفاة الامبراطور تيبيريوس أيضاً، فاستؤنف القتال من جديد بعد أن رفض الشاهنشاه الجديد توقيع الاتفاقية، فاشتعلت الحرب بين الطرفين من جديد.

ولكن هذه الحرب جلبت معها طمع الأقوام المجاورة لكل من الدولتين، فاستغل حاكم الخزر على سبيل المثال انشغال هرمزد الرابع بأوضاع البلاد المضطربة ليغزوها بجيش ضخم، ومن ناحية أخرى توجه جيش من العرب قوامه قبائل قحطان ومعد⁵، مما دفع بهرمزد الرابع أن يهادن الجميع بعد مشاورة وزرائه من أجل التفرغ للخطر الأكبر المتمثل بالأتراك الذين اغتصموا إجراءاته في دولته من عدل وإنصاف وإحقاق للحق، حيث حاول أن يساوي بين الفقراء والأغنياء ومال إلى الضعفاء والمساكين ونظر في شكواهم بنفسه خوفاً من ألا تصل إليه، واشتد على الأقوياء والمتجبرين فاقتص من الظالم منهم مهما علت شكواهم بنفسه خوفاً من ألا تصل إليه، واشتد على الأقوياء والمتجبرين فاقتص من الظالم منهم مهما علت

¹ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص365؛ خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص58؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص105؛ فرج (وسام عبد العزيز): دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، 1982م، ص105؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص66.

² عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص181.

³ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص63.

⁴ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص106، 107.

⁵ الدينوري: الأخبار الطوال، ص79؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص206؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج1 ص68؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص369.

مرتبته أو زادت قرابته إليه، حتى رجال الدين الزرادشتيين لم تحمهم مكانتهم من ذلك حيث أحطّ مراتبهم وقلل الاعتماد عليهم بل وأوقف بطشهم عن أصحاب المذاهب الأخرى، وبالف في ذلك إلى أن عادوه وأبغضوه¹.

فكان في ذلك فرصة لخان الترك شَبَّابة بن شب أراد انتهازها، وهاجم بلاد فارس على رأس أربعمئة ألف من جنوده، فانتدب الشاهنشاه أفضل قادته صاحب الري² بهرام جوبين (الرجل الخشبي)³ Bahram Chobin للفائهم فاستطاع التغلب عليهم وقتل ملكهم شَبَّابة بسهم واستباح معسكره وأقام مكانه، كما تمكن أيضاً في معركة أخرى من هزيمة ابنه برمومة بن شَبَّابة وحاصره في بعض الحصون حتى استسلم، وبعث به إلى الشاهنشاه هرمزد أسيراً ومعه الأموال والجواهر والآنية والسلاح وسائر الأمتعة من الغنائم⁴ التي قيل أنها احتاجت إلى مئتين وست وخمسين جملاً لحملها.⁵

وتباينت الآراء حول سبب قيام بهرام جوبين بثورة ضد هرمزد الرابع بعد هذا النصر فهناك من يرى أنها بسبب انتزاع الشاهنشاه القيادة العليا منه بطريقة مهينة بعد إخفاقه في مواجهة البيزنطيين في لازيكا⁶ Lazica أدت إلى غضب بهرام وإعلانه الثورة والانفصال عن السلطة⁷، بينما يقول البعض الآخر أنه

¹ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 77؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 172؛ مسكويه (أحمد بن محمد ت 421هـ/1030م): تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح سيد حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002م، ط 1، ج 1 ص 143؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 1 ص 68؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 637، 638؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص 137، 138.

² الري: مدينة بالقرب من خراسان وطبرستان، تم تخريب مدينتها القديمة وبناء الري الجديدة وهي مدينة بعد بغداد في المشرق. الحميري: الروض المعطار، ص 279.

³ لُقّب بهرام جوبين بلقب الرجل الخشبي، بسبب مظهره الطويل والنحيل.

⁴ https://en.wikipedia.org/wiki/Bahram_Chobin 9.12.2019

⁵ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 174، 175؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس ص 647؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 2 ص 211.

⁶ المسعودي: مروج الذهب ج 1 ص 206؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 369.

⁷ لازيكا: من المناطق المهمة قرب منطقة بحر بنطس (الأسود)، تقع على حدود الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية ولطالما كانت مجالاً للنزاع بينهما. العلان (أرواد): السياسة الساسانية تجاه بيزنطة في القرن السادس الميلادي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، إشراف الدكتور محمود فرعون، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2005م، رسالة غير منشورة، ص 98.

⁷ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 369؛ كريستسن (آرثر): إيران في عهد الساسانيين، تر يحيى الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص 427.

عندما وصلت غنائم انتصار بهرام على الترك إلى هرمزد حيث عُرضت عليه وحوله وزرأوه وعظماء موظفيه، استصغر أحدهم بحجم الغنائم، متهماً بهرام جوبين صاحب النصر بالاستئثار بما تبقى منها، مما أقلق هرمزد وغازله على بهرام بسبب تنامي قوته، فأرسل له علبة بها أدوات حياكة وملابس النساء بما تحمله من إهانة كبيرة لقائد مثله.¹

وعلى جميع الأحوال فقد غضب بهرام جوبين وجنوده فأعلن العصيان والانفصال عن سلطة الشاهنشاه، فجمع جيشه وتوجّه نحو طيسفون Ctesiphone (المدائن) لقتال هرمزد الذي أرسل لهم بدوره جيشاً لمقاومتهم إلا أن هذا الجيش انضم إلى بهرام طواعية، مما أضعف موقف الشاهنشاه أكثر، كذلك أعمل الحيلة لزرع الفتنة في البيت الحاكم بين الأب وابنه فسكّ نقوداً باسم كسرى أبرويز بن هرمزد ووزعها في العاصمة فتداولها الناس، مما دفع هرمزد للاعتقاد بأن لابنه كسرى أبرويز يد في الأمر، فهمّ لقتل ابنه مما دفعه للهروب إلى أذربيجان²، حينها استدعى الشاهنشاه بندويه وبسطام خالي كسرى أبرويز وسألها عن مخبأه ولكن دون جدوى فعاقبهما بالحبس، إلا أنهما عملا من مكانهما على تحريض الغاضبين على الإطاحة بهرمزد وتتصيب ابنه كسرى الثاني أبرويز Khosrow II (590 - 628م) وفعلاً تمكن الثائرون من إطلاق سراح بسطام وبندويه.³

إلا أن كسرى أبرويز عندما بلغه ضعف أمر أبيه واتفاق أكابر الدولة والعسكر على خلعه خشي من استيلاء بهرام جوبين على الملك، فعاد إلى العاصمة طيسفون، حينها وثب خالا كسرى أبرويز على هرمزد، وسملا عينيه ولبس كسرى أبرويز التاج وجلس على العرش، بينما بقي هرمزد معتقلاً سنوات طويلة، كان خلالها بهرام جوبين قد أظهر عدم طاعته لكسرى أبرويز، بل وأراد الانتقام منه لما فعله بأبيه متخذاً من ذلك ذريعة للوصول إلى السلطة، وجرى بينهما مراسلات أساء فيها لكسرى أبرويز، ونظراً لرجحان كفة بهرام جوبين الواضحة، وخوف كسرى أبرويز من أن يقيم أباه الأعمى صورة ويستولي هو على الحكم، اتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمزد، فقتلوه.⁴

¹ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص145؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس ص657؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص370.

² الدينوري: الأخبار الطوال ص82، 83؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس ص658، 659؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج2 ص211؛ الفردوسي: الشاهنامه ص195، 196، 198.

³ الدينوري: الأخبار الطوال، ص84؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين ص427.

⁴ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج1 ص69؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج1 ص109.

بينما أورد الثعالبي في كتابه غرر أخبار ملوك الفرس رواية أخرى تقول بأن خالي كسرى أبرويز قد قتلًا هرمزد الرابع ليس بأمر واضح منه ولكن بموافقة الضمنية والتي تمثلت بصمته وعدم إظهار أي معارضة أو امتعاض على ما أقدم خلاله على فعله.¹

لكن كسرى أبرويز لم يكن على استعداد لمواجهة بهرام الطامع بالسلطة، فانهزم أمامه في معركة قريبة من النهروان²، ليهرب بعدها إلى بيزنطة³ يستتجد بالامبراطور البيزنطي موريق الذي أنجده بعدد من الفرسان، جاء بهم لقتال بهرام الذي كان قد جلس على العرش الساساني وأدعى الملك لنفسه وسك النقود باسمه⁴، فكان عهده القصير (590-591م) مليئاً بالاضطرابات والمعارك لمعارضة رجال الدين له ولحكمه الذي لم يدم طويلاً، إذ عاد كسرى أبرويز إلى بلاد فارس بعد توقيع اتفاقية 591م مع الامبراطور موريق تنازل فيها عن بعض المناطق ومعه جيش يساعده ليستعيد عرشه الشرعي⁵ وليأمن بها موريق على امبراطوريته من الخطر الفارسي ويتفرغ لما يهدد بلاده، فقد عُرف عن موريق العدل والحزم المعتدل، فأحبّه الشعب والجيش واحترمه كما تميّز بحنكته وخبرته السياسية ومعرفته الواسعة بالمجال الإداري والعسكري، فعالج ما أصابه من مشكلات وأزمات.⁶

ولازدياد الشأن اللومباردي في إيطاليا لجأ موريق إلى جعل الإدارة المدنية في يد الحكّام العسكريين، وبالتالي خضعت الإدارة البيزنطية في إيطاليا لسلطة حاكم عسكري عام، وهو الأرخون، الذي صار يدير من مقره في رافنا كل نواحي نشاط الموظفين المدنيين، وعُدَّ الأرخون في إدارته ممثلاً للامبراطور على أصول وقواعد الاستبداد الامبراطوري البابوي الذي يحظى بتأييد الأباطرة، كما لم يكن لسلطته حدود أو قيود، بل ونال الألقاب والتشريف الامبراطورية، وقامت على نفس القواعد أرخونية إفريقية أو قرطاجة Carthage.⁷

ومن جهة الشمال هاجم الآفار حدود الامبراطورية فهياً الامبراطور جيشه ليحاربهم في عدة معارك كانت النصر له في أكثرها، ولكنها لم تكن كافية للقضاء نهائياً عليهم لأسباب عديدة كنقص الأموال

¹ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس، ص 666.

² النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدّها الأعلى متصل ببغداد. الحموي: معجم البلدان، ج 5 ص 325، مادة النهروان. الحميري: الروض المعطار، ص 582.

³ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 175؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص 140.

⁴ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس، ص 665؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 1 ص 69.

⁵ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 428.

⁶ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 63.

⁷ العريني: الامبراطورية البيزنطية، ص 110، 111.

اللازمة لتمويل الحرب واقتصاده في النفقات العسكرية، مما كان كفيلاً باستياء الجند وتمردهم عليه منادين بامبراطور غيره يكون منهم وهو القائد فوقاس Phocas الذي تمكن فعلاً من الوصول إلى العرش البيزنطي في النهاية.¹

ورغم الحروب المتواصلة بين الامبراطوريتين إلا أن التجارة كانت قائمة، ولم يسهم العداء العنصري إلا بدور صغير في العلاقات بينهما، ففي الجنوب عدت صحراء العرب حاجزاً أكيداً بين أملاك الدولتين كانت الاشتباكات الحربية نادرة الوقوع بل ويسود الطرفين ودٌ مشترك، وخاصة أن التوابل والأحجار الكريمة والعاج وغيرها من بضائع الترف لم تكن تُستحضر من بلاد العرب عن طريق سورية فحسب، إنما تنتقل أيضاً عبر الطرق التجارية الكبيرة بالقارة الآسيوية تلك التي كانت تمر بفارس وتنتهي في أرض بيزنطة عند طرابزون في الشمال وعند مدن مثل أنطاكية في الجنوب، بل إن الطريق الجنوبي الذي كان يمر بالبحر الأحمر كان يعدُّ في تلك الأيام أقل صلاحية من الطريق البري، فكادت أن تتركز تجارة الشرق في الطريق الذي كان يمر بوسط فارس، مما جعل الفرس يتحكمون بالتجارة ويرفعون من الأسعار.²

وبالتالي يُستنتج مما سلف أن قيام الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في مناطق غنية واستراتيجية هامة خلق التنافس بينهما للسيطرة عليها والاستفادة من عوائدها، فكانت الحرب المستمرة هي الخيار الأول الذي لجأ إليه الطرفان تتخللها بعض فترات من الراحة، حيث كانت بينهما سجالاتاً وبلا جدوى تذكر، فلم يكن الغالب فيها منتصراً بل أقل ضعفاً من غيره، يساق الناس إليها كما يساقون إلى الموت المحتم بأعدادهم الغفيرة.

¹ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 67؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص 182؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 110.

² ابري، (ا.ج): تراث فارس، تر محمد كفافي ومحمد خفاجة وأحمد عيسى، القاهرة، 1959م، ص 66، 67.

الفصل الأول: أوضاع الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية قبيل تسلّم الامبراطور هرقل

أولاً: الصراع على العرش الساساني:

1. ثورة بهرام جوبين على الشاهنشاه هرمزد الرابع.
2. معركة النهروان 590م.

ثانياً: عهد كسرى الثاني أبرويز (590-628م):

1. الاستنجاد بالامبراطور موريق (موريس).
2. استعادة كسرى أبرويز للعرش.
3. أعمال كسرى أبرويز الداخلية.
4. التخلص من معارضيه.
5. معركة ذي قار.
6. نفائس كسرى أبرويز وثروته.

ثالثاً: عهد الامبراطور موريق (موريس) (582-602م) والانتقال عليه:

1. موريق قبل تسلمه العرش الامبراطوري.
2. الوضع الداخلي للامبراطورية في عهد موريق.
 - أ. المسألة الدينية.
 - ب. إنشاء أرخونيتي رافنا وقرطاجة.
3. أعمال موريق الخارجية:
 - أ. على الجبهة الشرقية.
 - ب. على الجبهة الأوربية.
4. انقلاب الامبراطور فوقاس ونهاية موريق.
5. عهد الامبراطور فوقاس (602-610م).

أولاً: الصراع على العرش الساساني:

1. ثورة بهرام جوبين على الشاهنشاه هرمزد الرابع:

للحقيقة أكثر من وجه كما هو الحال دائماً، فعلى الرغم مما سعى الشاهنشاه هرمزد الرابع (579-590م) جاهداً لتحقيقه من بسطٍ للعدل والمساواة بين الناس بإعطاء الفقراء منهم والإقتار على الأغنياء، فكان عدل هرمزد مخيفاً للأقوياء والمتنفذين وإنصافه معيقاً لمسايعهم، لذلك عندما بالغ الشاهنشاه بإجراءاته هذه أوغلت صدور الأشراف والعظماء عليه فعمدوا على إثارة كره الشعب له إلى أن حانت الفرصة أخيراً للتخلص منه نهائياً¹.

ففي تلك الحقبة كانت الامبراطورية الفارسية تتعرض لهجمات الأعداء من كل جانب، ولكنها تفرغت بمصالحات معهم لمواجهة أخطرهم على مستقبل البلاد وهو خطر الأتراك المتمثلين بملكهم شَبَّابة بن شب الذي عمد أخيراً إلى قتال هرمزد الرابع الذي كتب إلى عامله في الرِّي بهرام بن بهرام المعروف ببهرام جوبين يأمره بالقدوم على وجه السرعة لمواجهة الأتراك، بعد أن أباح له بيوت الأموال والسلاح وديوان الجند ليختار منهم ما أراد².

عرض خان الترك على بهرام جوبين أن ينضمَّ إليه مقابل أن يولَّيه حكم إحدى المدن ولكنه رفض رفضاً قاطعاً وآثر القتال على الخيانة، والتحم الجيشان في معركة حامية انتهت بمقتل خان الترك شَبَّابة بن شب بسهم رماه به بهرام، فخرَّ الأتراك منهزمين مما أغضب برمومة بن شَبَّابة ابن الخان الكبير فهرع للثأر من القتلة بجيش من فلول قوات أبيه، فأعاد بهرام تعبئة جيشه استعداداً له³.

وقد اختلفت الروايات حول ما جرى هنا، حيث ذكر البعض أنه حينما التقى الطرفان هاب كلُّ منهما الآخر، وتمت المصالحات بينهما بعد أن أذن له هرمزد الرابع بذلك بل وأمره بأن يكرمه ورجاله الذين التقوا بالشاهنشاه نفسه الذي استقبلهم في قصره وأخذ كل من الرجلين وعداً من الآخر بالمسالمة لينصرف الخان بعدها إلى مملكته⁴.

بينما ترجَّح كثير من الروايات وقوع قتال بين بهرام جوبين وبرمومة بن شَبَّابة الذي انهزم أمامه ولجأ إلى أحد الحصون ليحتمي نفسه من ملاحقة جيش بهرام إلى أن استسلم وطلب منه الصلح، فأرسله

¹ المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 205.

² الدينوري: الأخبار الطوال، ص 79؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 174؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 144؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 427.

³ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 80؛ المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 206؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 2 ص 211؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 369.

⁴ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 81؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 652، 655، 656.

بهرام جوبين إلى الشاهنشاه أسيراً مع الغنائم التي استطاع الاستيلاء عليها من معسكره،¹ والتي كان لها دور فيما بعد بقيام ثورة أطاحت بالحكم حسب بعض الروايات، إذ أشعل أحد الوزراء الفتنة بين الشاهنشاه وبهرام عند وصول هذه الغنائم العظيمة إلى قصر طيسفون (المدائن) بقوله أمام الشاهنشاه: "أيها الملك، ما كان أعظم المائدة التي منها هذه اللقمة"²، مما أقلق هرمزد الرابع وأثار غضبه ضد بهرام جوبين فأرسل إليه برسالة ملؤها الإهانة والتوبيخ³ أو بسبب إخفاق بهرام بالانتصار على البيزنطيين في أحد المعارك التي أرسل لخوضها ضدهم.⁴ مما دفع ببهرام إلى إعلان الثورة بمساعدة جيش استطاع جمعه إلى جانبه وتوجّه به نحو العاصمة طيسفون الحائقة على حاكمها والمتربّعة للفرصة المناسبة للإطاحة به، بينما هرب ولي العهد الشرعي كسرى أبرويز إلى أذربيجان خوفاً من غدر أبيه به.⁵

2. معركة النهروان 590م:

وجد كسرى أبرويز أنّ عرشه الشرعي قد أصبح رهينة للوقت الذي يصل به بهرام إلى العرش، فقرر العودة إلى طيسفون لمواجهة بهرام بحقه المشروع، فالتقى بأبيه وطلب منه الصفح عما بدر منه بهروبه إلى أذربيجان وأنه ما فعل ذلك إلا خوفاً منه وليس تمرداً عليه، حيث قال له: "إنّ هربي كان خوفاً من أن يشوّه الأعداء سمعتي لديك فترتكب ظلماً بحقّي، والآن وقد أصبح الوضع كذلك فقد جئتُ إلى دار الملك وأنا طوع يدك"⁶، فقبل هرمزد عذره وسلّمه الملك وطلب منه أن ينتقم من بندويه وبسطام - خالي

¹ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 175؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 144؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 2 ص 211؛ العلان: السياسة الساسانية تجاه بيزنطة، ص 93.

² الدينوري: الأخبار الطوال، ص 82.

³ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 145؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس ص 657؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 370؛ Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, translated by Cyril Mango and Roger Scott, Oxford, clarendon press, 1997, P386.

⁴ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 369؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 70؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 427.

⁵ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس، ص 666؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 1 ص 69؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 109؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 427.

⁶ ابن البلخي: فارس نامة، ص 92.

كسرى أبرويز - الذين سملا عينيه وأوديا به إلى هذه الحال من الذل والهوان¹ وسأله أن يرسل إليه كل يوم من يؤنسه من أهل العلم والحكماء.²

فأراد كسرى أبرويز أولاً الانتقام من المسبب الأساسي لما حدث ألا وهو بهرام جوبين، فأعد جيشاً وذهب قاصداً إياه، حيث اجتمعاً قرب مدينة النهروان يفصل بينهما نهر دجلة، فأرسل كسرى أبرويز له يدعوه للحضور بين يديه ويعده بأعلى المناصب في الدولة، لكن بهرام رفض عرضه وردّ عليه بأقبح الردود بل وطالب الشاهنشاه بالمجيء وطلب العفو منه، ورغم ذلك التناول كظم كسرى أبرويز غيظه وحاول استمالاته مرة أخرى ولكنه أخفق،³ ف شعر بأنه غير قادر على خوض حرب مع بهرام فتراجع دون قتال إلى أبيه المسجون في العاصمة يسأله السبيل إلى النجاة.⁴

ولربما كان تغاضي كسرى أبرويز عن جرأة بهرام بمطلبه وتكرار عرض الصلح عليه كان ناتجاً عن خوف كسرى أبرويز من بهرام وإدراكه العميق لمدى تفوق قواته على قوات كسرى أبرويز فأراد بذلك كسب مزيد من الوقت ريثما يزيد من تجهيزات جيشه للمواجهة المحتملة أو ربما أراد أن يجنب نفسه من هزيمة محققة.

وفي الوقت نفسه تورد روايات أخرى اشتباك الطرفين بمعركة حامية الوطيس إذ أمر جوبين بمراسلة جنود كسرى أبرويز يدعونهم للانضمام إليه، فما قبلوا إلا القتال في بادئ الأمر، فالتحم الجيشان في معركة ضروس تمكن فيها بهرام من تحقيق النصر، فدبّ الرعب في قلوب جند كسرى أبرويز وبدأ الفئور يتسلل إلى أدائهم في الميدان، مما أدى إلى انهزام كسرى أبرويز وجيشه إلى طيسفون بعدما أمر بقطع الجسر القائم فوق النهر ليضمن عدم لحاق الأعداء به.⁵

¹ المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص206؛ ابن الأثير (علي بن محمد ت630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، تح عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 2012م، ج1 ص428؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P387.

² الدينوري: الأخبار الطوال، ص85؛ اليعقوبي (أحمد بن اسحاق ت292هـ/905م): تاريخ اليعقوبي، تح عبد الأمير مهنا، بيروت، دار الأعلمي، ط1، 2010م، ج1 ص211؛ ابن البلخي: فارس نامه، ص93؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص145.

³ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص175؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص206؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص146؛ بيزنيا: تاريخ إيران القديم، ص370؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص140.

⁴ ابن البلخي: فارس نامه، ص93.

⁵ الدينوري: الأخبار الطوال، ص86؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1 ص428؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص202؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص428؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص140.

وعاد إلى أبيه بالخبر وشاوره في الأمر فنصحته بأن يجعل النساء والخزائن في حصن منيع ثم يتوجّه نحو الامبراطور البيزنطي موريق ويطلب منه المساعدة، وفعلاً انطلق يرافقه خاليه بندويه وبسطام إضافة إلى كردي أخو بهرام جوبين بجانب عدد قليل من الحاشية، فلما خرجوا من طيسفون وكانوا في بعض الطريق، خاف من معه بأن يدخل بهرام على هرمزد الرابع وينصبه على العرش من جديد فيطالب الامبراطور البيزنطي بردّ الثائرين وهم كسرى أبرويز وصحبه فيردّهم، وبالتالي لم يجدوا بُدّاً من قتله اتقاءً للخطر، فاستأذنوا كسرى أبرويز بذلك¹ ولأنه لم يظهر رفضاً ولا تأييداً عدّوا سكوته موافقة ضمنية وما كان من بسطام وبندويه إلا أن انطلقا إلى طيسفون ليقبلا هرمزد خنقاً بوتر قوس²، وعلى الرغم من وجود رأي آخر يقول بأن كسرى أبرويز لم يوافق على قتل أبيه بل وناشدهما الله ألا يفعل ذلك وأظهر البراءة من فعلهما، كانت النتيجة موت هرمزد الرابع بعد حكم دام قرابة العشر سنوات، ومن ثم عادا إلى كسرى أبرويز ليكملا معاً طريقهم نحو وجهتهم³.

وهكذا فرغ العرش الساساني لبهرام جوبين الذي دخل إلى العاصمة طيسفون بعد انتصاره على كسرى أبرويز ووضع التاج على رأسه وسك النقود باسمه معلناً نفسه حاكماً للبلاد مدعياً انتسابه لعائلة الإشكانيين⁴، كذلك جمع أعيان الفرس وأعطاهم الأمان، ليتكلموا بين مؤيد ورافض وناصح وكاذب، كما كتب إلى الشعب رسالة يدعوهم فيها إلى الانقياد لحكمه والسير حسب رأيه. ومن لم يرد ذلك فالابتعاد له أفضل، ولكن عهده الذي لم يستمر طويلاً (590-591م) كان مشحوناً بالاضطرابات إذ خاصمه رجال الدين وكثير من العظماء الذين لم يريدوا مبايعة مغتصب للعرش من طبقتهم نفسها لا يفضلهم بشيء⁵.

¹ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 87؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 212؛ ابن البلخي: فارس نامه، ص 93؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 2 ص 211.

² الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 665؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1 ص 428؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 1 ص 69.

³ المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 207.

⁴ الإشكانيين: أسرة يرجع أصلهم إلى اختلاط البارثيين مع قبائل السكا الآرية الفارسية وعشيرة "داه"، فبرزت طائفة آبارني من عشيرة "داه" التي جاء الإشكانيون منها، وبالتالي فإن الإشكانيين فرس أصليون ولا يمكن عدّهم كأسرة أجنبية. بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 275.

⁵ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1 ص 429؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 203؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 109؛ خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص 59؛ النفراوي (محمد): فارس بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع، تونس، دار الجنود، (د.ت)، ص 96.

ثانياً: عهد كسرى الثاني أبرويز (590 - 628م):

1. الاستنجاد بالامبراطور موريق:

عندما تجاوز كسرى أبرويز ورجاله الفرات دخلوا أحد الأديرة يستريحون من عناء الطريق وإذ برجال بهرام جوبين تلوح بالأفق لاحقة بهم، ولما لم يكن عند كسرى أبرويز حيلة للنجاة طلب بندوقيه منه أن يبادل الثياب، فارتدى بندوقيه زي الشاهنشاه وتواجه وصعد إلى قمة الدير في حين اختبأ كسرى أبرويز وبسطام في أحد الجبال، وعندما وصلت جنود بهرام وعلى رأسهم قائد يدعى بهرام بن سياوش نادى بندوقيه بالجمع قائلاً: "إنني أبرويز وإنكم لتعلمون إنه لا سبيل إلى الفرار فأمهلونني هذا اليوم وهذه الليلة لأنشغل بالعبادة وأخرج إليكم في الغد"¹ فاستجابوا له مقتنعين بمطلبه، وعندما طلع الصبح ناشد بندوقيه إياهم مهلة أخرى، فكان له ما أراد من المماطلة².

ولكن عند غروب ذلك اليوم خرج بندوقيه من الدير صائحاً: "أنا بندوقيه وإن أبرويز قد غادر المكان منذ صباح أمس، ولقد احتلت عليكم إذ لبست ملابس أبرويز وتزينت بزِينته لأجعلكم تمكثون هنا"³ فألقى الجنود القبض عليه وأخذوه إلى قصر بهرام جوبين الذي قرر سجنه ومعاقبته⁴. ولكن رجلاً كبندوقيه ليس مكانه السجن ولا يليق بذكائه موضع كهذا، فقد تواطأ من سجنه مع بهرام بن سياوش على الفتك ببهرام جوبين الذي علم بخبر هذه المؤامرة وقتل ابن سياوش، بينما طالب بندوقيه ولم يجده إذ كان قد أفلت من الأسر سراً ولحق بأذربيجان، بينما كسرى أبرويز كان قد سار نحو وجهته للاستنجاد بالامبراطور البيزنطي⁵.

أكمل كسرى أبرويز مسيره وقطع نهر الفرات ووصل إلى مدينة أنطاكية⁶ - التابعة لبيزنطة في ذلك الحين - وأقام فيها فاستقبله البيزنطيون باحترام ومنها كتب إلى الامبراطور رسالة طالباً مساعدته

¹ ابن البلخي: فارس نامه، ص 93.

² ابن البلخي: فارس نامه، ص 93؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 87-89؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 146.

³ ابن البلخي: فارس نامه، ص 93.

⁴ ابن البلخي: فارس نامه، ص 93؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 87-89؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 146.

⁵ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1 ص 429؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 2 ص 212؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 204؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 42.

⁶ تعددت الروايات حول المدينة التي وصل إليها كسرى أبرويز فمنهم من يذكر أنها أنطاكية أو الرها أو منبج أو قرقيسيا. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 212؛ ابن البلخي: فارس نامه، ص 94؛ ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون ت 685هـ/1286م): تاريخ مختصر الدول، صححه أنطون اليسوعي، بيروت، دار الرائد اللبناني، 1994م، ط 2، ص 152؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 370.

وعونه في استرداد عرشه وعرش آبائه ومفادها: "لأب المبارك والسيد المقدّم موريقي ملك الروم من كسرى بن هرمز ابنه السلام. أمّا بعد فإنني أعلم الملك أن بهرام ومن معه من عبيد أبي جهلوا قدرهم ونسوا أنهم عبيد وأنا مولاهم وكفروا نعم آبائي لديهم فاعتدوا عليّ وأرادوا قتلي. فهممت أن أفزع إلى مثلك فأعتصم بفضلك وأكون خاضعاً لك لأن الخضوع لملك مثلك وإن كان عدواً أيسر من الوقوع في أيدي العبيد المرّة ولأن يكون موتي على أيدي الملوك أفضل وأقلّ عاراً من أن يجري على أيدي العبيد. ففزعت إليك ثقةً بفضلك ورجاء أن تتأرف على مثلي وتمدّني بجيوشك لأقوى بهم على محاربة العدو وأصير لك ولداً سامعاً".¹

وبعث مع الرسالة عظيم الهدايا والتحف بما يعادل عشرة آلاف بدرّة² من ذلك ألف لبنة من ذهب، زنة كل لبنة منها ألف مثقال، ومن المال خمس مئة بدرّة وألف لؤلؤة صافية ثمن كل لؤلؤة أربعة آلاف درهم، وألف استبرقة منسوجة بالذهب قيمة كل استبرقة منها أربعة آلاف درهم، وألف برزون فتي³ من إنتاج الملوك قيمة كل برزون منها ألفا درهم، إلى جانب مائدة من العنبر⁴ ذات الأرجل الذهبية.⁵ ولكن يُلاحظ مما سلف المبالغة الواضحة في وصف الهدايا التي قدمها كسرى أبرويز للامبراطور موريقي كما ونوعاً، ولا سيما إذا وُضع في الحسبان أنه خرج هارباً مستجداً لاستعادة عرشه المسلوب. ومهما يكن من أمر فقد استشار الامبراطور وزرائه وأهل الرأي من حوله في أمر كسرى أبرويز، فرأى بعضهم أن يجاب وتقدم له المساعدة، وهناك من نصحه بعدم مد يد العون لكسرى أبرويز، إلا أن قراره استقر على مساعدته⁶، وكانت اتفاقية عام 591م المتضمنة عدم اقتراب كسرى أبرويز من حدود

¹ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص152، 153؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص70؛ النفراوي: فارس بيزنطة والجزيرة العربية، ص96.

² البدرّة: عشرة آلاف درهم سميت بذلك لتمام عددها من البدر، كل شي تم. عمارة (محمد): قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، بيروت، دار الشروق، 1993م، ط1، ص83.

³ البرزون: فرس من سلالة أعجمية أي من غير نتاج الخيل العربي ويتميز باسترخاء أذنيه وبأنه عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر. عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص87.

⁴ العنبر: هو الطيب المعروف، وهو مادة صلبة، لا طعم لها ولا ريح إلا إذا سُحقت أو حُرقت. عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص393.

⁵ المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص208؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص148؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1 ص429؛ الرشيد (أحمد بن الزبير ت القرن الخامس الهجري): الذخائر والتحف، تح محمد حميد الله، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، 1959م، ص5؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص371.

⁶ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1 ص212؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص206، Gregory. T: A history of Byzantium, USA, Blackweel publishing, 2005, P151.

الامبراطورية البيزنطية وأن يتنازل عن مدينتي دارا وميافارقين¹ لبيزنطة وعلى ألا يأخذ كسرى أبرويز الخراج الذي كان يأخذه آباؤه من البيزنطيين، ثم أرسل إليه مئة ألف فارس إضافة إلى ستين ألف مقاتل وعلى رأسهم أخيه ثيادوس ورجل يعادل في قوته ألف رجل يقال له الكمي، ومعهم ألف دينار وألف ثوب من الديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغيره من الألوان، ومئة وعشرين جارية من الصقالبة وغيرهم.² ويُستدل مما سلف أن الامبراطور موريق لم يساعد كسرى أبرويز في استعادة عرشه فقط من أجل هذه الشروط الواضحة، بل من أجل غاية ضمنية لم يأت على ذكرها ضمن الاتفاقية، فعودة عدو تقليدي إلى عرشه يعرف أساليبه وربما مدى ضعفه خير له ولمصلحة بلاده من عدو جديد لا يمكن التنبؤ بأفعاله أو أساليب قتاله وكيفية هزيمته.

2. استعادة كسرى أبرويز للعرش:

وما إن توجه كسرى أبرويز نحو أذربيجان مع هذا العدد والعتاد حتى وافاه بندوقيه مع أربعين ألف جندي من الفرس والأرمن،³ وانفضَّ العظماء من حول بهرام جوبين مما زعزع استقرار عرشه، مما يدل على أنهم كانوا قد اتبعوه سالفاً مجبرين خوفاً منه لا طواعية، فكتب الرسائل يدعو فيها أقرباء كسرى أبرويز الذين معه للوقوف إلى جانبه واعداً إياهم بمناصب عالية ناعماً آل ساسان بكل سوء، ولكن وقعت هذه الرسائل في يد كسرى أبرويز الذي أعمل الحيلة وأعاد الرسائل بالموافقة على مطالبه ولكن التنفيذ يتم يوم المعركة، وفعلاً انطلقت الحيلة على بهرام ونزل إلى أذربيجان،⁴ فالتقى الجمعان في منطقة صحراء الدنق وجرت بينهما حرب شديدة استمرت عدة أيام قُتل فيها الكمي سالف الذكر، حيث سأل كسرى أبرويز مستهزئاً أن يدلّه على الرجل الذي اغتصب ملكه وملك أجداده، فأراه إياه، وتبارز الرجلان وقُتل الكمي بضربة سيف من بهرام على رأسه، فضحك كسرى أبرويز مستهزئاً مما أغضب ثيادوس وعاتب بذلك

¹ ميافارقين: أشهر المدن بديار بكر. خسرو (ناصر خسرو ت481هـ/1088م): سفر نامه، تح يحيى الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1993م، ط2، ص51؛ الحموي: معجم البلدان، ج5 ص235، مادة ميافارقين.

² المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص208؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص148؛ مار ميخائيل (مار ميخائيل ت596هـ/1199م): تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، تر غريغوريوس شمعون، ماردين حلب، دار الرها، 1996م، ج2 ص261؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص371؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص101؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P389. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P80. Bury: A history of the later Roman empire, v2 P112.

³ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص147؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1 ص429؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج2 ص212؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص43؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص370.

⁴ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1 ص212؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص208.

كسرى أبرويز فأجابه: "إن ضحكي لم يكن سروراً مني بقتله، غير أنه عيّرنى بما سمعتُ، فأحببتُ أن يُعلم أن الذي غلبني على ملكي وهربْتُ منه إليكم، هذه ضربته"¹.

وخلال اليوم الثالث من المعركة دعا بهرام كسرى أبرويز للمبارزة فهُزم أمامه بل وولّى هارباً إلى أحد الجبال فلاحقه بهرام إلى أن ظنَّ أنَّه انتصر عليه، ولكن في بواكير اليوم الرابع تسلل كسرى أبرويز وهاجم معسكر بهرام بغتة وأوقع هزيمة ساحقة به، مما دفعه للجوء إلى بلاد الترك² يطلب الحماية منهم³، بينما دخل كسرى أبرويز ذلك المعسكر ونهبه واستمال فلول جيش بهرام وانطلق من هناك إلى عاصمة ملكه الشرعي طيسفون عام 591م ليجزل العطايا للجنود البيزنطيين أصحاب الفضل في انتصاره ذاك ويبعث معهم من الهدايا ما يليق بامبراطورهم موريق⁴.

وعلى ما يبدو أن ما أظهره كسرى أبرويز من كرم ومودة كان لأسباب سياسية آنية بحتة يتجلى ذلك من خلال استغلاله لضعف الامبراطورية البيزنطية والهجوم عليها عندما تحين له الفرصة. ولكن الامبراطور البيزنطي ردَّ ذلك بمنح أكبر كاثواب وصلبان من الذهب محلاة بالياقوت والأحجار الكريمة، فلبسها كسرى أبرويز اعترافاً منه بالجميل⁵.

3. أعمال كسرى أبرويز الداخلية:

عُرف عن كسرى أبرويز حب الجاه والسلطة وكانت ألقابه كفيلاً بإثبات ذلك إذ سُمّي بالرجل الخالد بين الآلهة، والإله العظيم جداً بين الرجال، وبصاحب الصيت الذائع الذي يصحو مع الشمس والذي يهب عينيه لليل⁶.

وبما أنه لا دور للألقاب إن لم يثبت دعائم عرشه، ابتداءً بالتقرب من رجال الدين الزرادشتيين ذوي النفوذ الأكبر بالدولة، كما لم يبخل النصارى حقوقهم وخاصة بعد مساندة الامبراطور البيزنطي له في

¹ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 212، 213؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 180؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 147، 148.

² بلاد الترك: ظهر الترك غربي آسيا وعلى سواحل بحر الخزر (قزوين) فاحتلوا الأراضي الواقعة بين الصين وفارس وعدّوا الفرس عدوهم الأساسي، فتراوحت العلاقات بينهما بين سلم وحرب. العريني: الدولة البيزنطية، ص 103.

³ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 93؛ المقدسي (المطهر بن طاهر ت بعد 355هـ/ بعد 966م): البدء والتاريخ، تح كليمان هوار، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1899م، ج 4 ص 158؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 209، 210؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 110؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 428.

⁴ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 93؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 211.

⁵ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 213؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 211.

⁶ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 432.

الوصول للعرش فتسامح مع رعاياه المسيحيين وأتاح لهم بناء الكنائس والمعابد وإقامة المراسيم والطقوس التي يريدونها وأمر الزرادشتيين أنفسهم باحترامهم والتعامل معهم بمودة مما أثار حنقهم عليه¹.

ثم عمد إلى الجيش أهم أركان الدولة ورواسيها فنظّمه وقسّمه وأرسله إلى الحدود ليرابط فيها، واهتمّ بأمور الرعية وفرّق كل قطعة نقد باسم أبيه الشاهنشاه هرمزد الرابع على المظلومين والمساكين وشملهم بعطفه، وقسم ساعاته وأيامه وشهوره على مصالح الناس وقضاياهم، فعمرت بلاده بالخير واستمتع الجميع برخاء المعيشة،² وخاصة المغنين وأهل الطرب إذ أكرمهم وأعطاهم وبالأخص من أبدى مهارة وتميزاً، فيذكر أن كسرى أبرويز قد غضب على أحد رجاله وسجنه، ولم يجرؤ أحد من الاقتراب منه إلا مغنٍ مقرب إليه معروف بباريد فساعده وقدم الطعام والشراب له، فزجره كسرى أبرويز على فعلته ولكنه أجاب الشاهنشاه بما أقعنه وأرضاه: "يا مولاي، إن ما وهبته أنت إياه أهم مما أفعله من أجله" فقال كسرى أبرويز: "وماذا وهبته؟" قال: "حياته، فهي أحسن مما كنت أرسله إليه"³ فنال بهذا الكلام إعجاب كسرى أبرويز وإحسانه وعفا عنه وعن الرجل المسجون إكراماً له.⁴

بينما تناقض كثير من الروايات ما سلف ذكره إذ يقال أنه لجأ في تمكين قواعد حكمه على الظلم فعتى وبغى وتجرّب، وانتهك حقوق الرعية ولم يرعَ العظماء ولا الضعفاء، وكان شديد الشك بمن هم حوله وسريع البطش بهم مهما كان فضلهم عليه فبعد بسطام وبندييه - وسيتم توضيح ذلك في الفقرة التالية - قتل مردانشاه أحد أهم مساعديه وأخلصهم إليه الذي تخوف منه بسبب نبوءة أحد منجميه ورغم أنه لم يجد وراءه ما يتهمة به أمر بقطع يده وحرمه من مزاولته عمله بأعلى المناصب وعوضه عنه بمال، ولكن مردانشاه أحس بالإهانة فالتمس موافقة كسرى أبرويز على قتله محوّاً لعاره، فضربت عنقه.⁵ وعلى اختلاف الآراء ربما قد جمع كسرى أبرويز بين الحسن والقبح من الصفات فجوده وكرمه لا يناقض حق معاقبته للظالم والمعتدي، لكنه في الوقت ذاته لا يبرر تنكيله بمن يساوره الشك به أو من وصلته عنه مكيدة من كاهن أو منجم.

¹ الدينوري: الأخبار الطوال، ص98؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص71، 142؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص429.

² الفردوسي: الشاهنامه، ص218، 219.

³ الطوسي (حسن بن علي ت485هـ/1092م): سياست نامه، تر يوسف بكار، بيروت، دار المناهل، ط1، 2007م ص168.

⁴ الطوسي: سياست نامه، ص168، 169.

⁵ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1 ص215؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص176؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1 ص328؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج1 ص113؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص433.

4. التخلص من معارضيه:

وصل بهرام جوبين إلى بلاد الترك وارتفع شأنه عند خانها، مما أقلق كسرى أبرويز وأقلق زوجته النصرانية المحبوبة شيرين التي تزوجها رغم اختلاف دينها، مما جعل لها أثر كبير عليه وعلى تصرفاته فيما بعد، حيث عملت على إغيار صدر كسرى أبرويز على خاليه بسطام وبندويه وبذرت بذور الشك لديه ضد بهرام جوبين،¹ إذ أُستقبل عند وصوله بكل حفاوة وإكرام وُرفِع من مكانته وجُعل من خواص الخان، فكثرت تردداته إلى القصر الملكي، ولكن بعد مدة وجيزة أثار استغرابه وجود رجل يقال له مغاتوره يدخل كل يوم إلى بيت المال ويأخذ منه ما يشاء ثم يخرج دون أن يتعرض له أحد، وبعد السؤال عنه قال له الخان: "إنه بطل شعبنا وجالب نعمتنا، فإن لم نعظه المال جرّ الفساد إلى هذه البلاد وبهذا نهيه راحته ونستكفي شره"²، فعرض عليه بهرام قتل هذا الرجل وتخليص البلاد منه فوافق الخان وأيده، وفعلاً تمكن من قتله في مبارزة دُعي إليها الطرفان.³

ولربما لم يكن قتله لهذا الرجل الشجاع ذي المكانة والشأن مجرد مساعدة للخان بل عن ذكاء وحيلة إذ أراد بذلك أن يمهد السبيل لنفسه ويفرغ الساحة السياسية دون وجود منافس له قريب من الخان. ويقال أن بهرام قد استطاع قتل شعبان خطير كان يختبئ في إحدى الجبال ويخافه الكبار والصغار⁴ مما ساهم في علو شأنه عند الخان وعند عموم الناس أيضاً كما مكّن وجوده في البلاد أكثر فقلق كسرى أبرويز من تكرار العصيان والثورة عليه، لذلك أرسل الهدايا والمكافآت إلى خان الترك مع رجل داهية يقال له جرابزين لقاء أن يعيد إليه بهرام جوبين، ولكنه رفض رفضاً شديداً ووبّخ الرسول وردّه إلى حيث كان، فلم يكن أمامه سوى التسلل إلى الخاتون زوجة الخان حيث قدّم لها عظيم الهدايا والجواهر وأقنعها بخطر بهرام على مستقبل البلاد فهو من انقلب على مليكه من قبل وخرج على أمره، فأمرت أجراء رجالها بالتخلص من بهرام جوبين.⁵

ورغم كل ما حصل من منازعات وخلافات بينهما إلا أن هناك رواية تذكر أن جوبين كان رفيع المقام لدى كسرى أبرويز وأنه كان مقرباً منه ولا يفارقه ساعة واحدة، ودليل ذلك أن بهرام قد ألقى مرةً بأحد

¹ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص71؛ كريستن: إيران في عهد الساسانيين، ص429.

² الفردوسي: الشاهنامه، ص213.

³ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1 ص213، 214؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص212، 213.

⁴ الدينوري: الأخبار الطوال، ص95؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1 ص213، 214؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص212، 213.

⁵ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص181؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1 ص429؛ كريستن: إيران في عهد الساسانيين، ص429.

غلمانه أرضاً وجلده عشرين جلدة فغضب عليه كسرى أبرويز ودعاه إلى قصره وقال معاتباً له: "كيف يحكم حاكمان بلداً واحداً، لو لم يكن لك علي حق خدمة، ولا أريد أن أحط من علي من رفعتة بنفسه لما عفوت عنك، فإله عز وجل ملكنا نحن الأرض لا أنت، إن كل ما يحتاج إلى حكم وقضاء يجب أن يحال إلينا لنقضي به بالحق، فإذا ما بدا بعد الآن من خدمك وعبيدك ذنب، يجب أن نخبرنا أولاً لنأمر لما يستحق المذنب من جزاء كي لا يُمسي أحد بأذى دون حق، لقد عفونا عنك هذه المرة"¹.

ولكن من الغريب وجود علاقة سلمية بينهما، إذ أن بهرام لم يكن يوماً عاملاً لدى كسرى أبرويز ليعاتبه أو يعاقبه فقد كان بهرام والياً على مدينة الري وقائداً عسكرياً خلال عهد أبيه هرمزد الرابع، فكيف عمل تحت سلطة كسرى أبرويز وهو قد بدأ بثورته منذ عهد أبيه؟!

وعندما علم الخان بموت بهرام غضب لذلك غضباً شديداً وطلق زوجته الخاتون وأراد الزواج من كردية أخت بهرام وامراته ولكنها رفضت وغادرت البلاد متوجهة إلى بلاد فارس.²

وهكذا انتهى الخطر الأكبر وبُترت اليد الأولى في مقتل والده والثورة عليه، هذه الثورة التي أخفقت بشكل أساسي بسبب عدم دعم كبار رجال الدين والدولة له فمن لم يملك الظهير الشعبي يسقط في النهاية. وريثما يتخلص كسرى أبرويز من بهرام جوبين عمد إلى تعيين خاله بسطام والياً على خراسان وجرجان وطبرستان وجعل من بندويه مستشاره في القصر الملكي³ ولكنه بعدما اطمأن لزوال خطره نهائياً من أمامه، أخذ يعمل على تصفية خاليه بندويه وبسطام رغم ما كان لهما من فضل عليه في وصوله إلى العرش ثم استعادته إياه، فبرأيه من يثور على الوالد يثور على الابن، وهكذا أخذ يتحين الفرص للانتقام منهما، لذلك عندما وصل إلى مسامع كسرى أبرويز أن بندويه قد أساء القول في حقه، لم يتقص عن الأمر ولم يمهله، بل أمر بسمل عينيه وقطع يديه ورجليه وصلبه حياً، مما دفع بسطام - خاله الثاني - نحو إعلان العصيان والخروج عن الطاعة، فجمع الجنود من حوله وخرج إلى مدينة الري حيث ورده فيها خبر قدوم كردية امرأة جوبين فتزوجها، وأعلمت هي بدورها أخيها كردويه ليطلب لها الأمان من الشاهنشاه الذي أمر بالتلطف بها مقابل أن تقتل زوجها بسطام، ففعلت ودخلت بلاد فارس آمنة وتزوجت من كسرى أبرويز نفسه.⁴

¹ الطوسي: سياست نامه، ص 110.

² المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 208، 209؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 148؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر،

ج 2 ص 212؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 110؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص 143.

³ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 98؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 429.

⁴ الدينوري: الأخبار الطوال، ص 105؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 215؛ ابن البلخي: فارس نامه، ص 94؛ ابن

الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1 ص 429؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 371.

وبذلك تكون نبوءة الراهب الذي صادفه كسرى أبرويز أثناء هروبه من طيسفون قد تحققت بأن عاد لعرشه وقتل عدوه الذي خرج عن حكمه وقد كان رجلاً مقرباً إليه واستطاع التغلب عليه.¹

5. معركة ذي قار:

انعكس تردّي الوضع الداخلي واضرابات العرش بوضوح على قوة الدولة الساسانية عامة حيث هُزمت في عهد كسرى أبرويز شرّ هزيمة أمام العرب في معركة عُرفت باسم موقعها ذي قار² التي لم تتفق الروايات على موعد ثابت لوقوعها فإما تزامنت مع مولد النبي صلى الله عليه وسلم أو بعد البعثة النبوية بسنوات قليلة أو بعد هجرته عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة المنورة، ولكن يمكن الترجيح أنها قد جرت بين عامي 602م و611م وذلك اعتماداً على انتهاء حكم النعمان بن المنذر (582-602م) وموعد انتهاء حكم إياس بن قبيصة (602-611م) حكام الحيرة من المناذرة الموالين للفرس،³ حيث ساءت العلاقات بين الفرس والنعمان بن المنذر في آخر سني حكمه، ولكن اختلفت الآراء حول مسوغات ذلك فمنهم من أعاده إلى فتنة زرعها زيد بن عدي بن زيد العبادي انتقاماً لأبيه إذ كان هناك منافسة في بلاط كسرى أبرويز بين عدي بن زيد وعدي بن أوس من بني مرينا، فقد نصح الأول كسرى أبرويز بتخليك النعمان، في حين تبني الثاني ترشيح أخيه الأسود، وعندما اختار كسرى أبرويز النعمان، غضب عدي بن أوس وتآمر على عدي بن زيد ووشى به أمام النعمان الذي سجنه ثم قتله، فورث زيد بن عدي وظيفة أبيه كترجمان عند الشاهنشاه كسرى أبرويز، وبدأ بإقناعه بأن لدى النعمان بنتاً آية في الجمال، فطلب كسرى أبرويز أن يزوجه لأحد أولاده فردّ عليه طلبه، وقال له ما لا يليق بأصحاب السيف فغضب كسرى أبرويز وأمر النعمان بالقدوم إليه.⁴

¹ الفردوسي: الشاهنامه، ص205.

² ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط. الحموي: معجم البلدان، ج4 ص293، مادة ذي قار.

³ مهران، (محمد): دراسات في تاريخ العرب القديم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، (د.ت)، ص595.

R.N. Frye: Cambridge history of Iran, London, Cambridge university press, 1975, volume4, p3,4.

⁴ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص193-200؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج2 ص213؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص382؛ طقوش (محمد): تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار النفائس، 2009م، ط1، ص403؛ محمد (يونس): علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية من القرن الرابع الميلادي حتى مطلع القرن السابع الميلادي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم غير منشورة، إشراف محمود فرعون، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2011م، ص124.

بينما يرجّح آخرون أن ما أغضب كسرى أبرويز هو رفض النعمان إعطائه فرسه اليعموم أثناء هروبه من معركة النهروان ليستنجد بالامبراطور موريق حيث كان آنذاك على فرسه شبديز المحبب إليه، فمن الممكن أن النعمان قد ظنّ أنه لن يقوم لكسرى أبرويز قائمة بعد ذلك، فنزل حبان بن حنظلة الطائي عن فرسه الضبيب وأعطاه إياه بدلاً عن ذلك، فكما يبدو أن كسرى أبرويز لم ينسّ تخاذل النعمان، وانتظر تمكّن وضعه حتى يؤدبه على فعلته¹، وربما اعتناق النعمان للمسيحية على المذهب النسطوري هو من أقلق كسرى أبرويز علّه اعتقد أنه بذلك سيغير ولائه تجاه الامبراطورية الفارسية ويميل نحو عدوته الامبراطورية البيزنطية المسيحية.²

في حين يورد كسرى أبرويز نفسه سبباً مختلفاً عن هذه الأسباب عندما أجاب ابنه شيرويه في نهاية حياته عن سبب قتله للنعمان بقوله: "وأما ما زعمت من قتلي للنعمان بن المنذر وإزالتي الملك عن آل عمرو بن عدي إلى إياس بن قبيصة فإن النعمان وأهل بيته واطؤوا العرب وأعلموهم توكتهم³ وخروج الملك عنّا إليهم وقد كنت وقعت إليهم في ذلك كتاباً، فقتلته ووليت الأمر أعرابياً لا يعقل من ذلك شيئاً"⁴ وتبعاً لكلامه فإن الأسباب إذاً ليست إلا أسباباً سياسية ولا تعود إلا لأحقاد شخصية، إذ نزع المناذرة في آخر سني حكمهم إلى الاستقلال عن الفرس وخاصة عندما وسّع النعمان نفوذه في شبه الجزيرة العربية والبحرين، ووصلت تجارته إلى الحجاز، كما تحوّل بلاطه مجمّعاً للأدباء والشعراء العرب كالنابغة الذبياني وحسان بن ثابت، فالتقّ من حوله الناس وارتفع أمره بينهم، ولعل هذا أكثر ما أقلق كسرى أبرويز آنذاك.⁵ ومهما كانت الدوافع فإن كسرى أبرويز تمهّل عليه شهراً ثم استدعاه إلى بلاطه، فما كان منه إلا أن استجار قبائل العرب واحدة تلو الأخرى دون فائدة، فلا جدوى ترجى من عداوتهم لكسرى أبرويز بحمايته، إلا أن بني شيبان وافقت على مساعدته ولكن نصحه شيخها هانئ بن مسعود الشيباني ألا يختبئ من الموت فإن الموت حق وأن يموت عزيز النفس خير له من الموت مذلولاً تتقاذفه قبائل العرب، فأقرّ ذلك وترك عنده أمانته من نساء وأولاد وأسلحة وتوجّه نحو طيسفون تسبقه الهدايا إلى الشاهنشاه الذي قبل الهدايا، ويليقي حتفه إما بالطاعون داخل السجن أو دهساً تحت أرجل الفيلة، لينتهي معه حكم اللخمين

¹ المقدسي: البدء والتاريخ، ج3 ص169، 170؛ بيجوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص145.

² الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج1 ص112؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص435؛ Frye: Cambridge history of Iran, volume4, p3.

³ التوكف: فعلها وكفّ ومعناها الانحراف والمعارضة والمواجهة. معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ص916.

⁴ الدينوري: الأخبار الطوال، ص109، 110.

⁵ الدينوري: الأخبار الطوال، ص110؛ برو (توفيق): تاريخ العرب القديم، دمشق، دار الفكر، 1996م، ط2، ص140؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص149.

للحيرة، إذ عيّن كسرى أبرويز إياس بن قبيصة (602-611م) حاكماً عليها بعد النعمان إلى جانب قائد فارسي.¹

وتماذياً في بطشه طالب كسرى أبرويز عامله إياس أن يأتي له بودائع النعمان التي تركها عند الشيبانيين، مما أغضب هاني بن مسعود مجيباً: "هي عندي أمانة ووديعة، والحر لا يضيع أمانته"² فأعلن كسرى أبرويز الحرب عليهم، ولكن بعد مشورة أحد أكثر العرب كرهاً لبني بكر بن وائل وهو النعمان بن زرعة التغلبي أثر الانتظار حتى تنزل قبائلهم ماء ذي قار القريبة من بلاده حتى تستسقي منها وعندها ينقض عليهم ويهزمهم على آخرهم³، وفعلاً نزلت قبائل بكر إلى ذي قار فخيرهم كسرى أبرويز إما الاستسلام والتسليم أو ترك الأرض والرحيل أو القتال، فكانت الحرب خيارهم.⁴

فأرسل كسرى أبرويز إلى عماله في الأقاليم يدعوهم للقتال، فاجتمع تحت قيادة إياس بن قبيصة الهامز التستري حاكم القطقانة⁵ الذي تولّى قيادة ميمنة الجيش الفارسي وجلابزين الذي كان في بارق⁶ وقاد الميسرة، ومعه قيس بن مسعود بن ذي الجديين، بينما دعت العرب حلفاءها من عبس وتميم، وكانت رؤساء بكر يومئذ ثلاثة وهم هاني بن قبيصة الشيباني يقود قلب الجيش، وعلى الميمنة يزيد بن مسهر الشيباني، وحنظلة بن ثعلبة العجلي في الميسرة⁷، ثم ورّع عليهم هاني بن قبيصة أسلحة النعمان التي استودعها عنده من دروع وغيرها، فإن هُزموا كانوا قد قاموا بما يجب عليهم وإن انتصروا ردّوا له الأسلحة وذلك تماشياً مع مشورة قيس بن مسعود الذي انسلّ ليلاً من المعسكر الفارسي ليساعد بني جلدته من

¹ ابن البلخي: فارس نامه، ص95؛ الأصفهاني (علي بن الحسين ت356هـ/966م): الأغاني، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1928م، ط1، ج2 ص125، 126؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص159؛ مغنية (أحمد): تاريخ العرب القديم، بيروت، دار الصفوة، 1994م، ط1، ص87؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص593.

² سبط ابن الجوزي (يوسف بن قز أؤجلي ت654هـ/1168م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح محمد بركات وآخرون، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط1، 2013م، ج3 ص90.

³ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص159، 160؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج3 ص90؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج2 ص214؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج1 ص113.

⁴ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص159؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج3 ص91؛ محمد: علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية، ص127.

⁵ القطقانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية. الحموي: معجم البلدان، ج4 ص374، مادة القطقانة.

⁶ بارق: موضع ماء بالعراق وهو حد فاصل بين القادسية والبصرة. الحموي: معجم البلدان، ج1 ص319، مادة بارق.

⁷ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج3 ص91؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج2 ص214؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص382؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص151؛ محمد: علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية، ص127، 128.

العرب، ولكي يضمن العرب عدم هروبهم إذا حمى الوطيس قاموا بقطع حبال هودج نسائهم، ليتعذر عليهم العودة إلى بلادهم من دون النصر.¹

وفعلاً نزلت قبائل بكر إلى ذي قار فخيرهم كسرى أبرويز إما الاستسلام والتسليم أو ترك الأرض والرحيل أو القتال، فكانت الحرب خيَارهم، والتحم الجيشان في معركة تراجع فيها الفرس لشدة عطشهم، إذ كان بنو بكر قد سبقوهم إلى ماء ذي قار واستقوا منها ما يكفيهم لنصف شهر، مما شجع العرب على الثبات أمام الفرس وإقامة كمين لهم في موقع يقال له الخَبء، حيث باغتهم من ورائهم وانقضوا على قلب الجيش الفارسي بعد أن ضعفت ميمنته وميسرته، فكانت النصر للفرس.²

وكان لهذه المعركة أهمية كبرى إذ أثبتت أن العرب قادرون على تحقيق الانتصارات في حال اتحادهم وتخليهم عن تعصبهم لقبيلتهم، كما برهنت على مدى الضعف الذي وصلت إليه الامبراطورية الساسانية في عهد الشاهنشاه كسرى أبرويز، فدحضت فكرة أن الفرس لا يُهزمون حيث هُزموا على أيدي العرب وعمالهم والذين لم يجارونهم يوماً قوة أو عتاداً، فمُنح العرب الثقة بقدراتهم التي ظهرت جلياً في نجاح الفتوحات العربية الإسلامية التي ستحصل بعد أقل من ثلاثين عاماً.

6. نفائس كسرى أبرويز وثروته:

تتفق الروايات على ما وصل إليه كسرى أبرويز من الجشع وحب جمع الأموال، فقد كان في قصره ما لم يسبقه عليه غيره من الملوك والحكام ولم يُعهد بمثله من قبل إذ جمعوا له النساء كما يجمعون له الجند بلا تفريق بين المتزوجات وغير المتزوجات حتى الأمهات، وكلما أراد أن يغيّر حريمه أرسل إلى موظفيه وعماله على الأقاليم بصفة النساء التي يريدونها فيبحثون له عن النساء اللاتي تتوفر فيهن هذه الصفة في كل مكان، فيقدّر عددهن رغم المبالغة بإثني عشر ألف جارية إضافة إلى ستة آلاف خادم وحارس، واصطبله يحوي ما يقارب العشرين ألف فرس وتسعمائة وستين فيلاً مجهزين للقتال بسروج مزدانة بالجواهر.³

¹ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 3 ص 91؛ مغنية: تاريخ العرب القديم، ص 87.

² مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 160-162؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 3 ص 91؛ مغنية: تاريخ العرب القديم، ص 87؛

Frye: Cambridge history of Iran, volume4, p3.

³ ابن البلخي: فارس نامه، ص 95؛ الأصفهاني (علي بن الحسين ت 356هـ/966م): تاريخ سني ملوك الأرض، بيروت، دار الحياة، (د.ت)، ص 47؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 376؛ مكاريوس (شاهين): تاريخ إيران، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2003م، ص 90.

وتجاوز المعهود في تصاميم أبنيته فكان الإيوان الذي أمر ببنائه من أعظم النفائس التي تعود إلى عهده رغم أن البعض نسبته إلى عهد جده الأكبر كسرى أنوشروان، فتميز بفخامة المظهر ومتانة الجدران واختير لإنشائه أفضل الصنائع والمهرة ليجعلوا منه بناء قادراً على الصمود أمام نواصب الدهر فيحكم من داخله أبنائه وأحفاده من بعده.¹

كما أسرف في امتلاك النفائس والجواهر الثمينة كتاجه الذهبي المرصع بأحجار الياقوت والزبرجد² واللؤلؤ والفضة بحيث لم تستطع عنقه حمل وزنه فكانوا يعلقون التاج بسلسلة من الذهب بسقف الإيوان ويستتر بالثياب ريثما يجلس الشاهنشاه على عرشه ويدخل رأسه في التاج.³

وكل ذلك لا يضاهي ما بلغه عرشه من الأبهة ومظاهر العظمة، هذا العرش الذي كان لأجداده وأصابه عبر الزمان ما أصابه، فكان البعض من هؤلاء الحكام يزيدون عليه أو ينقصون منه حتى جاء كسرى أبرويز واختار ألفاً ومئة وعشرين أستاذاً ومع كل أستاذ ثلاثون تلميذاً ليعيدوا العرش كما كان في الأصل، فصنع من العاج والساج⁴ وألواح من الذهب والفضة، وتجاوز طوله مئة وثمانون ذراعاً وعرضه مئة وثلاثون ذراعاً وارتفاعه خمس عشرة ذراعاً، وعلى جوانبه سرر من الشيز والأبنوس⁵ المطعمة بالذهب ويعلوه طاق من الذهب واللازورد فيه رسومات عن الفلك والكواكب والبروج والأقاليم السبعة وصور ملوك الأرض وهبيئاتهم في المجالس والحروب ورحلات الصيد، وكان عند جلوسه على العرش يُعرش له بساط من الديباج⁶ المرصع باللالئ والجواهر.⁷

وله لوح شطرنج نُحتت أحجاره من الياقوت الأحمر والزمرد ونرده من البسد والفيروز، ولديه نوع نادر من الذهب اللين كالشمع يخرج من بين الأصابع إذا قُبض عليه ويتخذ منه الأشكال والتماثيل ثم يعاد إلى حاله الأساسي، وهناك منشقة غير قابلة للاحتراق إنما تُرمى في النار فتزيل فقط ما أصابها من

¹ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 698؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 223، 224.

² الزبرجد: من المعادن النفيسة، أخضر اللون، مع تفاوت حسب أنواعه، فمنه: أخضر مفتوح اللون، ومنه أخضر داكن. عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص 266.

³ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 699، 700؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 448. رغم وجود بعض الروايات التي تنسب هذا التاج بزنيته للشاهنشاه كسرى الأول أنوشروان. ابن هشام (عبد الملك بن هشام ت 218هـ/833م): السيرة النبوية، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، بيروت، دار القلم، (د.ت)، ج 1 ص 64.

⁴ الساج: أو الشاذنج، معرب عن الفارسية (شاذية) وهو حجر أحمر معتم قابل للصقل ويسمى حجر الدم وله فوائد طبية. عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص 276.

⁵ الشيز: خشب أسود صلب جداً أو هو الأبنوس تُصنع منه القصاع. معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ص 411.

⁶ الديباج: كلمة فارسية معناها الثوب المصنوع من الحرير. معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ص 205.

⁷ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 698، 699؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص 222.

أوساخ، كما حُفظ ذوقه في الطعام والشراب واللباس والموسيقى والعطور فروائح العود والعنبر والمسك تقوح من قصره وموكبه.¹

وبلغ جشعه أن ما جمعه من مال أحصي بأمره في العام الثامن عشر من حكمه فقدّر بستمائة مليون درهم، فبنى بيت مال جديد في مدينة طيسفون سماه (بهار حفرد خسرو) لتخزينها وتخزين الأموال الموروثة من أسلافه.²

وفي النهاية يستدل الباحث مما سلف، وورغم ما ورد من مبالغة، أن غنى كسرى أبرويز الفاحش كان أداة ستر بها ضعفه وعجزه، وأوهم بها الناس ما هو عكسه، كما كان استخدامه للبطش والظلم المبالغ بهما في حكم بلاده دليل اقتدار لحكمة السلطة، فمن يُهزم ويهرب مراراً من أمام أعدائه وخاصة بهرام جوبين ويقتل أصحاب الفضل عليه في الوصول إلى ما كان يصبو إليه، أعجز من أن يخمد ثورة قد يقوم بها أحد منهم فيما بعد، لذلك لم يكن أمامه سوى قتلهم والتخلص منهم، وبالتالي لو لم تكن الامبراطورية البيزنطية إبان اغتيال الامبراطور موريق في غاية اضطرابها لوقفت بكل يسر وسهولة أمام هجمات دولة هو حاكمها، وهذا ما سيتضح جلياً في الفصل التالي.

ثالثاً: عهد الامبراطور موريق (582-602م) والانقلاب عليه:

1. موريق قبل تسلّمه العرش الامبراطوري:

يتّضح من خلال تمكّن الامبراطور البيزنطي موريق من مساعدة الشاهنشاه الساساني كسرى أبرويز في استعادة عرشه الشرعي أنه لم يكن ذلك الامبراطور الذي يستهان بقدرته وقوته، فقد سبق حياته الامبراطورية عملاً في الإدارة القضائية ثم التحق بخدمة الجيش إلى أن أصبح قائد الحرس الامبراطوري خلال عهود أسلافه من الحكام.³

إذ أرسله الامبراطور جوستين الثاني (565-578م) كقائد عسكري لحصار مدينة نصيبين 576م والاستيلاء عليها - التي كانت تخضع في تلك الحقبة للفرس - فأقام الأبراج والمتاريس والمجانيق الضخمة، وأثار الرعب في نفوس من بداخلها، ولكن سرعان ما جاء أمر الامبراطور جوستين الثاني بعزل موريق وتعيين القائد أفاقوس أرخلاون، مما أخلّ بنظام الجند فوهنت عزائمهم وضعفت همهم، بينما كان

¹ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص700، 706-709؛ كريستن: إيران في عهد الساسانيين، ص436، 437، 459، 464.

² مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص164، 165؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج2 ص214؛ كريستن: إيران في عهد الساسانيين، ص436؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص145.

³ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص63؛ نيكول (دونالد): معجم التراجم البيزنطية، تر حسن حبشي، (د.م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003م، ص149.

موريق عاقداً العزم على تحقيق الانتصار فطلب من القائد أفاقْيوس أن يمهلّه يومين ريثما يكمل ما بدأه، فغضب مبعوث الامبراطور ووبّخه أمام جنوده وجرده من رتبته العسكرية مما زاد الأمر سوءاً فتحطمت معنويات الجنود وتركوا الحصار وانسحبوا بعيداً عن المدينة، ولما رأى الفرس من الداخل ما حصل من ارتداد البيزنطيين تشجّعوا على ملاحقتهم وتعقبهم فانقضوا فعلاً على مؤخرة الجيش من المشاة وأنزلوا بهم خسائر كبيرة، ثم أعقب ذلك هجمات متبادلة من الطرفين الفارسي والبيزنطي على أراضي كل منهما أدّت إلى إنهاك كلا الامبراطوريتين على حد سواء، فلجؤوا إلى مفاوضات رجوا منها تحقيق السلام بينهما ولكن يبدو أن الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني قد استهان بقوة الشاهنشاه كسرى الأول أنوشروان وغالى في شروطه إلى أن أخفقت المفاوضات¹، فعاد الساسانيون إلى هجماتهم على الأراضي البيزنطية وخاصة المنطقة المحيطة بمدينة دارا عام 576م فخربوها وأحرقوا مدن تلا² وتل بشمايا³ ورأس العين بما فيها من كنائس وأديرة، كما حطّموا أحد أهم التماثيل للسيدة مريم العذراء خارج المدينة، ثم انسحبوا إلى دارا لمجيء الجيش البيزنطي بقيادة موريق الذي عاد لقيادة جند الشرق كما كان من قبل، وكانت استعدادات البيزنطيين تفوق مقدرة الفرس على المقاومة فلجؤوا كعادتهم إلى استخدام الخداع والحيلة إذ توجهوا إلى أرض أرمينية القريبة من بلاد فارس وأرسلوا للبيزنطيين بأن يقبلوا الحرب معهم بعد ثلاثين يوماً، وريثما تصل الرسائل إلى موريق ويأمر جنوده بالتهيؤ للقتال كان الفرس قد هربوا إلى بلادهم مدمرين في طريقهم ميافارقين وآمد⁴ مما أثار غضب موريق، فاتجه بجيشه نحو أرزون وخربها وسبى من الفرس أعداداً كبيرة⁵. والجدير بالذكر أنه خلال عهد الامبراطور جوستين الثاني ساءت العلاقات في عهده بين البيزنطيين وحليفهم المنذر بن الحارث (570-581م) حاكم العرب الغساسنة، فهناك من يرى أن سبب الخلاف هو تعصب المنذر الديني للمذهب المونوفيزتي المخالف لمذهب الامبراطورية، مما يجعل ولاؤه لها مداعة للشك عند الامبراطور⁶، بينما يعتقد آخرون أن ما كان وراء سوء العلاقات بينهما هو رفض البيزنطيين لمطلب المنذر بإعطائه مالاً لإكرام جنوده المنتصرين على المناذرة حلفاء الفرس في الحيرة، مما دفع بالمنذر إلى ترك أراضي البيزنطيين والتوغّل إلى جوف الصحراء بعدما علم بنيتهم في قتله، مما

¹ العلان: فارس وبيزنطة، ص 139، 140، 146.

² تلا: بلد عرف باسم تل موزن يقع بين رأس العين وسروج. الحموي: معجم البلدان، ج 2 ص 45، مادة تل موزن.

³ تل بشمايا: عرفت بالعربية باسم تل بسمة تقع شمال غرب ماردين. العلان: فارس وبيزنطة، ص 147، حاشية رقم 2.

⁴ آمد: بلد قديم حصين في ديار بكر. خسرو: سفر نامه، ص 52؛ الحموي: معجم البلدان، ج 1 ص 56. مادة آمد؛ لسترنج:

بلدان الخلافة الشرقية، ص 114.

⁵ العلان: السياسة الساسانية تجاه بيزنطة، ص 125، 126.

⁶ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 572.

أتاح الفرصة للمناذرة بقيادة حاكمهم قابوس (574-578م) للإغارة على الأراضي البيزنطية وطُرق أبواب أنطاكيا، وبالتالي لم يجد الامبراطور بُدّاً من استدعاء المنذر بن الحارث ومصالحته في الرصافة، ولأن العرب أدركوا بطرق قتال بعضهم شَنَّ المنذر ورجاله غارة على الحيرة فخرَّبوا وأحرقوا وجمعوا غنائم كثيرة، ورغم ذلك لم تتوقف غارات الساسانيين فقرر البيزنطيون في عهد الامبراطور تيبيريوس (578-582م) أن يرسلوا موريق مع المنذر الغساني ولكن عندما وصلوا إلى نهر الفرات وجدوا الجسر الكبير مهدوماً فاتَّهم موريق المنذر بأنه قد تواصل مع الفرس وأعلمهم بخبر مجيئهم، فقام الفرس بقطع الجسر تحرّزاً منهم، فنشب النزاع بين موريق والمنذر وكتبوا إلى الامبراطور تيبيريوس يشكو كل منهما الآخر، ولكنّه عندما عاد موريق إلى جانب الامبراطور استمر في إثارة سخطه على المنذر فما كان منه إلا أن أمر بالقبض عليه وإحضاره إلى العاصمة¹.

هذا وقد دعا ماجينوس Magnus - العامل البيزنطي على الشام - صديقه المنذر الغساني إلى بلدة بين تدمر ودمشق ليحضر حفلة تدشين إحدى الكنائس التي أقامها فيها، فلجأ المنذر الدعوة وألقي القبض عليه وسيق إلى القسطنطينية عام 581م مع زوجته وأبنائه، ليقبع في السجن حتى عهد موريق (582-602م) حيث نُفي إلى جزيرة صقلية Sicily².

2. الوضع الداخلي للامبراطورية في عهد موريق: أ - المسألة الدينية:

وصل موريق إلى رأس الهرم الامبراطوري بعد وفاة تيبيريوس دون أن يترك خليفة شرعياً له، كما أنَّ زواجه من ابنة الامبراطور السالف قسطنطينا Constantina جعل منه الأحق في تسلُّم العرش البيزنطي، إلى جانب ما يتميز به من مؤهلات كقائد عسكري³.

¹ بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص 244، 245، 248؛ محمد: علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية، ص 105.

² بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص 250، 252؛ محمد: علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية، ص 105، 106؛ نولدكه (ثيودور): أمراء غسان، تر بنديلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1933م، ص 30، 31.

³ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج 2 ص 250؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 152؛ شيخو (لويس): مجاني الأدب في حداث العرب، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1913م، ط 23، ج 2 ص 316؛ عمران: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 146؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص 149.

ولكن ما كان يجول في أرجاء الامبراطورية من اختلاف الآراء حول طبيعة المسيح وُلد خلافاً كبيراً بل وانقساماً بين الناس، أيّد بعضهم وجود طبيعتين للمسيح وهو المذهب الرسمي للامبراطورية والذي انتشر في كافة أقاليمها عدا مصر وبلاد الشام اللّذين تبني أهاليهما فكرة أن للمسيح طبيعة واحدة فقط.¹ فنشبت من جراء ذلك تنافس على سيادة العالم المسيحي وفرض النفوذ عليه، وتجلّى هذا واضحاً في إجراءات البابا جريجوري (590-604م) التي اتسمت بالاستقلالية عن حاكم الأملاك البيزنطية في إيطاليا حيث وقّع هدنة خاصة من أجل روما مع اللومبارديين عام 592م،² كما افتعل نزاعاً بينه وبين كونت الشرق استريوس في أنطاكية، فوقفت المدينة في نزاعهما إلى جانب الكونت وأخذوا يوجهون الاتهامات والإهانات إليه حيث تقدّم أحد الصرافين المحليين بشكوى يتهمه فيها بسفاح إحدى المحرمات عليه وهي شقيقته المرأة المتزوجة، وهكذا زاد اللغط والصخب في الشوارع إلى درجة استدعت عزل استريوس عن منصبه وأمر خلفه بإجراء تحقيق عن الحوادث، فأجريت في القسطنطينية محكمة دينية ومدنية تألّفت من بطاركة آخرين وعدد من أساقفة العاصمة ومجلس شيوخ القسطنطينية، حيث برأت البابا جريجوري من تهمة.³

ولم يكتفِ البابا جريجوري بهذا بل احتج على الأوامر الامبراطورية وعارضها وخاصة عندما اتخذ بطريرك القسطنطينية لقب مسكوني مما يعطيه السيادة العليا، فاتهمه جريجوري بالكبرياء والتملق برسالة وجهها إلى الامبراطور موريق ولكنّه رغم ذلك لم يحصل على مبتغاه.⁴

ب - إنشاء أرخونيتي رافنا وقرطاجة:

كثُرَت الاضرابات السياسية وضعفت القوة العسكرية منذ وفاة الامبراطور جستنيان، إذ توالى على حكم الامبراطورية البيزنطية مجموعة من الأباطرة الذين لم يتمكنوا من المحافظة على حدود دولتهم، ولكن مع مجيء الامبراطور موريق بدرائته العسكرية السالفة وخبرته الواسعة في ميدان الحروب، وصل ببعد نظره إلى ضرورة إنشاء نظام يحصّن به مدنه الهامة من هجمات الأعداء المحدقة بها، فكان نظام الأرخون أي الحاكم العسكري العام الذي جمع بيده السلطتين العسكرية والمدنية، ولكن دون الاستغناء عن الموظفين الإداريين والمدنيين بل ظلوا في وظائفهم خاضعين لسلطة الأرخون العسكري الذي أخذ يعمل

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص142؛ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص104؛ العبادي: الامبراطورية البيزنطية، ص259، 260؛ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6 ص630، 631.

² أومان (تشارلز): الامبراطورية البيزنطية، تر مصطفى بدر، القاهرة، دار الفكر العربي، 1953م، ص93.

³ داوني: أنطاكية القديمة، ص333، 334.

⁴ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص93؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص108.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P83.

كممثل عن الامبراطور، وبهذا النظام يُجند السكان المحليين كجنود نظاميين ليدافعوا عن أراضيهم وبالتالي لن يتم اللجوء إلى الاحتياطي العسكري لقوات الجيش الامبراطوري.¹

وتم تطبيق هذا النظام في مدينة رافنا الإيطالية التي لم تستطع السلطات البيزنطية فيها مقاومة اللومبارديين الذين تمكنوا من فرض سيطرتهم على ما يقارب نحو ثلثي شبه الجزيرة الإيطالية بيسر وسهولة، كما أُقيم في قرطاجة ما أُقيم في رافنا لتحميها من هجمات السكان الوطنيين المعروفين بالبرابرة الذين دأبوا على الثورة ضد البيزنطيين المحتلين لبلادهم.²

3. أعمال موريق الخارجية:

أ- على الجبهة الشرقية:

لطالما كان الفرس أعداء البيزنطيين على مر السنوات ولم تتوقف بينهما الحروب والمناوشات عدا سنوات قصيرة يمكن عدّها فترات استراحة، ففي الحقبة التي تسلم بها الامبراطور موريق عرش بيزنطة 582م استغل الفرس انشغال الدولة بالتغييرات وقاموا ببناء حصن آقابا³ الذي سبق وهدمه البيزنطيون عدة مرات لوجود اتفاقية بينهما تنص على عدم قيام تحصينات على مسافة عدة أميال من الحدود بينهما، ولكن الفرس في هذه المرة تمكنوا من إكمال بنائه وتزويده بحامية من الجنود، وبعد استقرار وضع البيزنطيين حاصروا الحصن إلى أن تملك الحامية الفارسية الجوع والعطش وطلبوا منهم عهد أمان بأن لا يؤخذوا كأسرى حرب إلى القسطنطينية فتمّت الموافقة على الشرط، وفتح الفرس أبواب الحصن ودخله البيزنطيون وهدموه.⁴

ولأن التاريخ غير ثابت وميزان القوى تتأرجح كفاته بين دولة وأخرى، دارت الدائرة على الساسانيين في نهاية عهد الشاهنشاه هرمزد الرابع، إذ أصاب الامبراطورية الساسانية ثورة كادت أن تطيح بها، حيث أعلن بهرام جوبين وهو أحد القادة العسكريين العصيان وترجع على العرش الساساني بغير حق، ولأن

¹ العريني: الدولة البيزنطية، ص 109، 111؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 108، 109؛ هسي: العالم البيزنطي، ص 101.

Gregory: A history of Byzantium, P151.

² عاقل (نبيه): الامبراطورية البيزنطية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1969م، ص 78؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص 150.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P80.

³ حصن آقابا: حصن تم بناؤه على جبل ماردين بين نصيبين وماردين، على الحدود الفارسية والمواجهة لمدينة ميفارقين. الإعلان: السياسة الساسانية تجاه بيزنطة، ص 150.

⁴ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج 2 ص 251؛ الإعلان: السياسة الساسانية تجاه بيزنطة، ص 127.

الوريث الشرعي كسرى أبرويز لم يستطع مقاومة قوات بهرام توجه إلى الامبراطور موريق يطلب النجدة منه، فأمدّه بما يحتاجه من أموال وجنود تمكّن بهم أن يستعيد تاجه، ولكن مقابل بعض التنازلات التي كان أهمها التخلي عن أرمينيا الفارسية¹ بما فيها مدينتي دارا وميفارقين، وتم توقيع معاهدة سلام عام 591م بين الطرفين تضمن الالتزام بالشروط، وتتيح للامبراطور موريق تركيز قواته لمواجهة خطر آخر أخذ يهدد الامبراطورية.²

ورغم ما لهذه المعاهدة من ميزات وفوائد عادت على كلا الطرفين، إلا أن هناك طرف ثالث لم تكن المعاهدة بمصلحتهم وهم الأرمن، لأنهم بموجبها أُجبروا على تحمّل الحكم البيزنطي المباشر الذي نقل بعض الأرمن إلى آسيا الصغرى والبلقان وجند أعداداً كبيرة منهم لأنهم كانوا جنوداً من الطراز الأول للحرب ضد الساسانيين الذين كان الأرمن يعيشون في ظل حكمهم حياة أفضل، حيث وصل السادة الإقطاعيون في إحدى المراحل لمكانة كادت أن توازي مكانة السادة الإقطاعيين الساسانيين، إضافة إلى أنهم تمتّعوا بحرية واسعة بعد تخلي الساسانيين عن اضطهادهم بينما حاولت بيزنطية فرض مذهب الطبيعتين عليهم، مما دفعهم للثورة أكثر من مرة.³

ب- على الجبهة الأوربية:

تعرضت الجبهة الشمالية للامبراطورية البيزنطية لهجمات متكررة من قبائل الآفار والسلاف، الذين أخذوا يعملون بالسلب والنهب والتخريب، ولذلك أرسل الامبراطور موريق قائده برسكوس Priscus على رأس جيش لتأديب هذه القبائل وردّها إلى ما وراء الدانوب وفعلاً تمكّن من تحقيق انتصارات مبهرة عليهم وجعل هذا النهر حداً طبيعياً بينهما، ولكن ما تم تحقيقه كان مؤقتاً بسبب توقّف الحملات البيزنطية ضدهم، لقيام انقلاب ضد الامبراطور البيزنطي، وهو الأمر الذي شجع البرابرة على استئناف هجماتهم وإكمال ما بدؤوه، فأقام الآفار مملكة مستقلة لهم في شمال نهر الدانوب⁴، أما القبائل السلافية فقد تسللت

¹ أرمينية الفارسية: تمتد أعلى الفرات غرباً حتى ملتقى نهر الكور Kur والرس Araxes قبيل مصبيهما في بحر قزوين شرقاً، ومن دجلة وجزيرة ابن عمر جنوباً وحتى تغليس على نهر الكور شمالاً. العبد الغني، (عبد الرحمن): أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، (د.م)، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1989، ط1، ص17.

² ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص152؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص67، 68؛ شيخو: مجاني الأدب، ج2 ص316؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص107، 108؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص149.

³ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص52؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص122، 123؛ العلان: السياسة الساسانية تجاه بيزنطة، ص94، 95.

⁴ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص52؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص169؛ عمران: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص147؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص109، 110.

إلى أجزاء الامبراطورية، إلا أن بيزنطة قد استطاعت صدهم وطردهم خارج حدودها، حيث تمكن السلاف وحدهم بحلول نهاية القرن السادس الميلادي من احتلال كامل شبه جزيرة البلوبونيز Peloponnese ما عدا كورنثا والساحل الشرقي والتي هي في الأساس أرضاً بيزنطية.¹

4. انقلاب الامبراطور فوقاس ونهاية موريق:

أُطيح بعرش الامبراطور موريق بعدما امتلأت نفوس الشعب والجيش من سوء تصرفاته التي رأى البعض فيها بنفس الوقت عدلاً وحزماً ومحبة للشعب والجيش بل وكثرة الصدقة أيضاً²، فأصبحوا على استعداد لقبول امبراطور جديد يخلصهم من حكمه، فما كانت تعاني منه الامبراطورية من تناحر بين أتباع الطوائف الدينية وعدم إيجاد حل نهائي يصلح حالهم، أنقص من هيبة الدولة ومقدرتها في أعين شعبها فتجراً مجلس الشيوخ أن يدلوا بأرائه السياسية وعبر حزب الزرق والخضر عن رفضهم للضرائب الباهظة اللازمة لتغطية نفقات الحرب³، ومما زاد الأمر سوءاً إعلان موريق عام 597م عن أمله الكبير بأن تكون روما كالقسطنطينية أي عاصمة تُمارس منها السلطة الامبراطورية، فعهد بحكم القسطنطينية والمقاطعات الشرقية من بعده إلى ابنه الكبير ثيودوسيوس Theodosius، وأن يحكم ابنه الثاني تيبيريوس في روما وإيطاليا والجزر الغربية، مما ولدّ الخوف لدى السكان من استمرار حالهم الرديء في عهد أولاده.⁴

وساند الغضب الشعبي غضب عسكري عارم، فعجز موريق عن الإنفاق على جيشه من الخزينة الخاوية التي ورثها عن أسلافه أدّى إلى عجزه عن وضع نهاية لاستمرار المد السلافي والآفاري نحو الأراضي البيزنطية بما يسببه من سلب ونهب وتدمير، ومما زاد الأمر سوءاً أن أمر قواته بقضاء فصل الشتاء شمال نهر الدانوب حيث البرد القارس حتى يحين وقت معاودة القتال مع السلاف والآفار، فرأى البعض في ذلك أن الامبراطور موريق قد أراد الاقتصاد في النفقات العسكرية في حربه معهم، فاتّهموه بالبخل⁵، إلا أنه ربما قد أراد من ذلك مهاجمة السلاف خلال فصل الشتاء، حيث ذكر الامبراطور موريق

¹ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص98؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص123؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص182؛ هسي: العالم البيزنطي، ص101.

² مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج2 ص250؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص152؛ عمران: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص146؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص149.

³ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص68؛ عاقل: الامبراطورية البيزنطية، ص80؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص111؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص150.

Gregory: A history of Byzantium, 154.

⁴ داوني: أنطاكية القديمة، ص337؛ عاقل: الامبراطورية البيزنطية، ص78؛ هسي: العالم البيزنطي، ص102.

⁵ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص98؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص40.

في كتابه (الاستراتيجية Strategikon) أن قتالهم في الشتاء سيكون أفضل وأسهل، حيث يصعب على السلاف الاختباء وراء الأشجار العارية كما أن آثار أقدامهم ستظهر على الثلج، فيسهل للحاق بهم وخاصة أن الأنهار المتجمدة ستسهل على البيزنطيين العبور،¹ كما أنه من المستبعد أن الثورة قد قامت بسبب ما ادعوه بضغط السلاف وإخفاقه في صدهم، لأن موريق ما لبث أن عاد بحملة ناجحة ضد السلاف عام 602م.²

ومع ذلك لَقَبوه بالبخل لكثرة ما يؤيّد هذه النظرة من مواقف، إذ رفض موريق عام 599م أن يدفع فدية خمسة عشر ألف أسير بيزنطي يقبعون في سجون زعيم الآفار فُقُتلوا دون تردد، حتى قيل أنه في إحدى المرات باع قمح مصر كله وحوّل ثمنه ذهباً، بل إنه فعل الشيء نفسه مع قمح القسطنطينية.³ ثم كانت الضربة القاضية وخاتمة عهده بسخط الجنود عليه حينما أصدر قراره بتخفيض رواتبهم فأصاب الجيش انهيار عظيم في نظامه وتدريبه ووحدته، فما كان منهم إلا أن تجمّعوا وقالوا له: "ولئن أحلّ الله السلام في عهدك، فالسلام وحده لا يقيت الفرسان ما لم يتسلّموا حقوقهم، فإن لم تعطينا حقوقنا فنحن منذ الآن أعداؤك"⁴ فسخر منهم ورد عليهم مطالبهم مما زاد من غضبهم، فانتخبوا أحد قادتهم ويدعو فوقاس ليتولى أمرهم وأعلنوا برئاسته الثورة والتمرد على الامبراطور وتوجهوا نحو العاصمة الغاضبة، وبدأ موريق يشعر بالقلق حيال الأحداث الأخيرة وخاصة بعدما ساوره الشك في ولاء ابنه ثيودوسيوس وصهره جيرمانوس الذي أحس بذلك فحاول الالتجاء إلى كنيسة آية صوفيا فمنعه موريق من ذلك فتار الشعب عليه ووقفوا إلى جانب جيرمانوس، وأيدوا حركة التمرد التي يقوم بها الجيش، فلم يكن لدى موريق من حل سوى الهروب مع عائلته خارج المدينة، بينما دخل الثوار إلى القسطنطينية وأعلنوا فوقاس امبراطوراً جديداً لبيزنطة وسط ترحيب شعبي كبير.⁵

¹ Maurice: Maurice's Strategikon, Handbook of Byzantine Military Strategy, Translated by George T. Dennis, Philadelphia, The University of Pennsylvania Press, 1984, P121, 122.

² Curta: The Making of Slavs, P106.

³ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص98؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص169؛ Bury: A history of the later Roman empire, v2 P86. Mango: The oxford history of Byzantium, P53.

⁴ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج2 ص264.

⁵ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج2 ص264؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص40، 41؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص171؛ داوني: أنطاكية القديمة، ص334؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص112.

Whittow. M: The making of Orthodox Byzantium, London, Macmillan press, 1996, P72.

5. عهد الامبراطور فوقاس: (602-610م):

اعتلى الامبراطور الجديد فوقاس العرش البيزنطي ولبس تاج الحكم والنفوذ، مبتدئاً عهده بالتخلص من فلول النظام السالف فأمر جنوده بملاحقة موريق وعائلته الذي وصل على متن سفينة إلى خلقدونية Chalcedon على الجانب الآسيوي من الامبراطورية واختبأ بلباس الفقراء لكنه لم يحمه من عيون المتعقبين الذين استطاعوا القبض عليه وقتله بأمر من فوقاس مع زوجته وأولاده الخمسة وزوجة ابنه ثيودوسيوس بعد أن جردوهم من ملابسهم الملكية وألبسوهن ملابس الخدم والعبيد بما في ذلك من حجم الذل والهوان، وتبع ذلك سلسلة من المذابح لأفراد الأسرة المالكة والطبقة الاستقرائية ليضمن فوقاس بذلك عدم إحاكة المؤامرات ضده فيما بعد¹.

وبواكير الأمور تدل عليها، فمن يبدأ حكمه بالقتل وسفك الدماء وتصفية من سبقوه لن يكون حاكماً رحيماً وعهده طيباً بل كان امبراطوراً قاسياً جاهلاً طائشاً يشك بمن حوله كالقائد نارسيس Narses الكفو الذي نال الكثير من أكاليل الغار لانتصاراته في الحروب، وهو من أحرقه حياً بعد أن أعطاه عهد الأمان ليعود إلى العاصمة لكي يدفع عن نفسه تهم الخيانة.²

وبمثل هذه الأعمال أخفق فوقاس في كسب ود الشعب ومحبته وخسر دعمهم ورضاهم إذ لم يسانده سوى البابا جريجوري الذي بعث إليه رسالة يملؤها عبارات الدعم علّه يجد عنده ما لم يجده عند موريق فكتب له: "الحمد لله في الأعالي ... فلتفرح السماوات ولتزدد الأرض حبوراً ولتنشرح صدور الناس لما قمت به من أعمال مجيدة ... ولتعد آخر الأمر حرية كل إنسان إلى صاحبها في كنف الامبراطوية النقية الصالحة: إذ لم يكن ثمة فرق بين ملوك سائر الأمم وبين أباطرة الرومان فالملوك ليسوا إلا سادة العبيد أما أباطرة الدولة الرومانية فإنهم سادة الأحرار"³، وعلى ما يبدو أن فوقاس قد أعجبه ما سمع من كلمات فمغ بطريرك القسطنطينية من اتخاذ لقب مسكوني معلناً أفضلية كنيسة روما

¹ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج2 ص265؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص154؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص40، 41؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص99؛ يوسف (جوزيف): تاريخ الدولة البيزنطية 284-1453م، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1984م، ص93.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P418. Bury: A history of the later Roman empire, v2 P89, 92. Kaegi. W: Heraclius emperor of Byzantium, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, P37. Mango: The oxford history of Byzantium, P53. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P83.

² أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص100؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص68؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص97.

³ العريني: الدولة البيزنطية، ص109.

على سائر الكنائس، وبالتالي اضطهد المونوفيزتيون مما أضعف مكانته في الشرق، ولاحق اليهود إلى أن قاموا بثورة في أنطاكية وذبحوا خلالها بطيريك أنطاكية بالإضافة إلى عدد من ملاك الأراضي، ورغم إرسال فوقاس كونت الشرق بونوسوس Bonosos إليهم وإنزاله أقسى العقوبات بهم إلا أنه لم يستطع إخماد ثورتهم.¹

وانتقلت عدوى الفوضى إلى الأحزاب السياسية في العاصمة فبعد أن دعم حزب الخضر سلطة فوقاس انقلبوا عليه وعادوه، فحرمهم من مزاولة وظائفهم، على عكس حزب الزرق الذي أيّد حكمه الظالم بعد معارضته، مما زاد من حدة التوتر بين الحزبين.²

وهكذا عندما ظهر على الامبراطورية الارتباك والاضطراب الداخلي تشجع أعداؤها على معاودة عبور نهر الدانوب والهجوم على أراضيها فاكتمح الآفار والسلاف شبه جزيرة البلقان مما دفع فوقاس إلى شراء مسالمة الآفار برفع قيمة الجزية التي يدفعها لهم، أما تيار المد السلافي فلم يستطع إيقافه.³ وهكذا بدت الامبراطورية على شفا هاوية سحيقة، وخاصة بعدما بدأ الفرس اجتياحهم لحدود الامبراطورية ووصولهم إلى خلدونية، فكان لابد لهذه الحال من منقذ ولهذه الأوضاع من مُخلص الذي تجلّى بشخص هرقل ابن أرخون قرطاجة.

¹ داووني: أنطاكية القديمة، ص337، 338؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص69؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص108، 109، 112، 113؛ عمران: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص148؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص112؛

Gregory: A history of Byzantium, 154,155. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P84.

² عاقل: الامبراطورية البيزنطية، ص82؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص113.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P84.

³ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص101؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص123، 124.

الفصل الثاني: الامبراطورية البيزنطية خلال حكم الامبراطور هرقل

أولاً: وصول هرقل للعرش (610م).

ثانياً: إصلاحات هرقل:

1. الإصلاحات الإدارية والعسكرية.

2. الإصلاحات السياسية.

3. الإصلاحات الاقتصادية.

4. الإصلاحات الدينية.

ثالثاً: علاقته مع الآفار.

أولاً: وصول هرقل للعرش (610م):

عمّ الفساد وسادت الفوضى جميع أنحاء الامبراطورية البيزنطية خلال حكم الامبراطور فوقاس (602-610م) عدا ولاية إفريقية ومدينتها قرطاجة، التي حظيت بحكم قوي لم تتسرب إليه اضطرابات العاصمة بقيادة أرخونها هرقل - والد الامبراطور هرقل - الذي ينتمي لعائلة أرمنية أرستقراطية، ولكنه وُلد في قرطاجة وعمل في الجهاز العسكري البيزنطي خلال عهد الامبراطور موريق (582-602م) حتى أصبح أحد أبرز القادة والضباط في آسيا الصغرى، ولتميّزه الواضح في ذلك تم تعيينه أرخوناً أي حاكماً عسكرياً عاماً لولاية إفريقية عام 599م وإلى جانبه أخيه جريجوريوس Gregorius مساعداً له، فكسب بحسن إدارته محبة الشعب ووُدّه وضمن استقرار بلاده رغم ما كان يعصف بالامبراطورية في تلك الأثناء من أحداث¹.

ولكن عندما بلغ الاضطراب ذروته في الامبراطورية وبلغ السيل الزبي بالشعب على مختلف طبقاته، شكّل مجلس الشيوخ والأحزاب السياسية وفداً رسمياً للاستجداء بالأرخون هرقل الأب علّه ينفذ البلاد من حكم فوقاس الظالم، وذلك بمرافقة صهر الامبراطور برسكوس Priscus الداعم لهم. ولحسن حظهم أن الأرخون هرقل لم يردّهم خائبين بل كان لهم خير معين ومساعد، حيث عمل من فوره على خطة تضيق الخناق على الحكم المستبد وتطيح به في النهاية، فبدأ أولاً بالامتناع عن إرسال القمح إلى العاصمة البيزنطية ليزيد من جدّة ثورتها، كما منع إيفاد الضرائب إلى خزانتها ليستخدم هذه الأموال في تمويل انقلاب يتخلص به من الامبراطور، ثم أمر ابنه هرقل -امبراطور المستقبل- بالذهاب إلى القسطنطينية بحراً، بينما يتوجّه ابن أخيه نيقetas Nicetas إلى مصر من أجل فرض السيطرة عليها لكونها مصدراً آخر للقمح ذو أهمية كبيرة بالنسبة للامبراطورية ولكي لا يخرج منها من يعرقل خطى الانقلاب القادم، إلى جانب فائدة أسطولها في دعم أسطول قرطاجة الصغير في الإبحار إلى القسطنطينية².

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 59، 73؛ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 65؛ ربيع (حسنين): دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1995م، ط5، ص 60؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص 165؛ Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P21,25.

² ابراهيم (ابراهيم)، حسن (حسن): معالم التاريخ البيزنطي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2003م، ص 134؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 60، 61؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 69؛ النفراوي: فارس بيزنطة والجزيرة العربية، ص 107؛

Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P42.

وفعلاً انطلق نيقetas عام 609م من قرطاجة نحو الشرق بعد أن كسب الأرخون هرقل ولاء أهالي تريبوليس Tripolis (طرابلس) وبنطابوليس Pentapolis (برقة) من البرابرة بتوزيع الأموال الكثيرة عليهم فانضموا إلى جيشه، ممّا مهّد السبيل لدخول نيقetas إلى مريوط¹ بعد إعلان حاكمها لونتئوس Leontios العصيان على الامبراطور، ومن مريوط انتقل إلى الاسكندرية برفقة القائد بوناكيس Bonakis على رأس قوة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل وعدد كبير من البرابرة، فدانت له البلاد بعد رفض حاكمها نصيحة الشعب بتسليم المدينة مؤثراً الموت على الخيانة، فعَمَّ الاستقرار في مصر التي سُرّت بوجود نيقetas وأعلنت الثورة علناً على الامبراطور فوقاس².

أما هرقل فقد توجّه بأسطوله خلال ربيع عام 610م نحو العاصمة القسطنطينية ولكن أثناء مسيره توقّف بعدد من المدن السّاحلية ليجمع منها الموالين والمقاتلين، كمدينة سالونيك Thessalonica التي اتخذ منها محطة لعملياته العسكرية حيث هيأ هناك أسطوله وجنّد منها عدداً من الأتباع والأنصار الذين أمّدوه أيضاً بالمؤن والقوت، كذلك مدينة أبيدوس Abydos على الدردنيل، التي أعلن معظم أهاليها ثورتهم على فوقاس بمجرد اقتراب أسطول هرقل منها³، ولكن كانت الفرحة الأكبر عند سكان العاصمة حينما ألقى بمرساته على شواطئها في الثالث من شهر تشرين الأول من عام 610م إذ أعلن أغلب الضباط تأييدهم لهرقل، ولمواجهة هذا الحدث الجلل حاول فوقاس دعم أسطوله الصغير بالسفن التجارية القادمة من مصر واشتبك بمعركة بحرية مع أسطول هرقل المهيأ لما سيواجهه هناك فكان له النصر على قوّات الامبراطور

¹ مريوط: قرية ساحلية من قرى مصر قرب الاسكندرية. الحموي: معجم البلدان، ج5 ص19، مادة مَرْيُوط.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص62، 63؛ بل (سيهارولد): الهلينية في مصر البيزنطية، ترزكي علي، القاهرة، دار المعارف، 1948م، ط2، ص163؛ رستم (أسد): الروم، بيروت، دار المكشوف، 1955م، ج1 ص221؛ عبد الجليل (عمر): تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، 2003م، ص180-183؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص99؛

Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P44,45. Mango: The oxford history of Byzantium, P53. Morgan. G: Byzantium, Spain, pocket essentials, P70. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P75.

³ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص134؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص66-72؛ عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص184؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص69؛

Bury: A history of the later Roman empire, v2 P205. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P85.

الذي انتقم منه بأمر إلقاء القبض على زوجة أرخون إفريقية هرقل ابيفانيا Epiphania وخطيبة هرقل الابن فافيا Favia ووضعهما في أحد الأديرة¹.

ومن تقبل الشعب لمجيء هرقل سواء في مصر أو العاصمة نفسها وترحيبهم به وانضوائهم السريع تحت لوائه دون خوف أو حتى قلق مما سيجمله معه من خير وشر، يتضح للباحث جلياً ما كان يعيشه هذا الشعب ويعانيه في ظل حكم فوقاس، فمهما كان ما يحمله لهم يبقى أفضل من حالهم هذه، فوجدوا في هرقل المُنقذ والمُخلص لهم.

ومع هزيمة الأسطول الامبراطوري لم يعد أمام فوقاس سوى حزب الزرق لأن الخضر قد وقفوا إلى جانب هرقل، بل وكان لهم دور كبير في نجاح هذا الانقلاب إذ قاموا بحراسة أسوار موانئ القسطنطينية تبعاً لأوامر هرقل وسهّلوا له مهمته في الهجوم والسيطرة عليها، وحرّروا والدته وخطيبته من الأسر خوفاً من أن يتراجع هرقل عما هو عازم عليه من أجلهما، ورغم إحراق فوقاس لأحيائهم إلا أنهم انتصروا على قوّاته وقتلوا قائدها، ولمّا نفذت من فوقاس السبل وعرف أن أمره قد آل إلى النهاية جمع أموال الخزينة ورماها في البحر².

وفي ذلك شاهد بيّن على مدى الحقد والبغضاء التي تملكّت الامبراطور فوقاس فإما حُكمه أو لا حُكم أبداً.

وفي الخامس من أكتوبر عام 610م هاجم الثوار من الجنود القصر الامبراطوري، الذي يتواجد فيه فوقاس وألقوا القبض عليه ونزعوا التاج من فوق رأسه، وجردوه من ثيابه الامبراطورية، وألبسوه قميصاً عادياً وبعد ذلك قيّدوه بالسلاسل وجروه من رقبته مع ما يرافق ذلك من ذل وهوان إلى ميناء صوفيا وأخذوه إلى سفينة هرقل حيث ثلّيت عليه قائمة بالجرائم التي ارتكبها ثم قال له هرقل: "هل هكذا حكمت الامبراطورية؟" فأجابه باستهتار: "وهل ستحكمها أحسن من ذلك؟"³ مما أغضب هرقل بشدة فأمر بقتله

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 66، 67؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص 102؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 69، 70؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص 164؛ رستم: الروم، ج 1 ص 221؛ عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص 186؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 99.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 68، 69؛ عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص 186، 187؛ Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P49.

³ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص 102؛ رستم: الروم، ج 1 ص 221؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 70. Bury: A history of the later Roman empire, v2 P205. Haldon. J: Byzantium in the seventh century, Cambridge, Cambridge university press, 1990 P41. Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P50.

وتقطيعه إرباً مع عائلته التي لم تسلم من حكمه إذ أُبديت عن آخرها وأُحرقت ورمي رمادهم في الهواء¹، ولكن يبدو أن أحداً من عائلة فوقاس قد نجا من الإبادة وهو برسكوس صهره وقائد قواته والذي أسهم بدور فعال في الفوضى والاضطرابات التي شهدتها الامبراطورية في مطلع حكم الامبراطور الجديد هرقل إذ قام بثورة من أجل الوصول إلى العرش، وعمل بالاستقلال عنه بتجهيز جيش لنواياه المستقبلية كما أهان الامبراطور هرقل عندما قدم إليه بنفسه يستشير في غزو الفرس للامبراطورية، فادّعى برسكوس المرض وبقي في فراشه ولم يخرج إلى هرقل مما دفعه للمجيء إلى خيمته حيث لم يحسن استقباله أيضاً، ورغم ذلك طلب مساعدته فأجابه باستهزاء لا يليق بامبراطور، فكظم هرقل غيظه حتى يحين الوقت المناسب لمعاقبته، لذلك وصل نيقثاس ابن عم الامبراطور إلى القسطنطينية جاء هرقل وبرزكوس لاستقباله، فاستغل هرقل اجتماعهما ودعا مجلس الشيوخ وبطريك القسطنطينية سرجيوس (Sergius 16هـ/610-638م) وغيرهم من كبار رجال الدولة للاجتماع، وحاكم برسكوس أمامهم بما بدر منه فشهدوا عليه بالإساءة للامبراطور، فكان الحكم عليه بالتزام الدّير مدى حياته².

ويبدو مما تقدّم أن مشاركة برسكوس بالثورة على فوقاس لم تجعل منه موالياً لهرقل، مما يثبت أن خروجه هذا لم يكن من أجل الشعب ومصلحته برفع الظلم عنه بل ربما كان من أجل إكمال هذا الاضطهاد ولكن في ظل حكمه هو لا فوقاس.

وهكذا تُوج هرقل امبراطوراً على البلاد (20هـ/610-641م) في كنيسة الحكمة الإلهية (آية صوفيا) حيث ألبسه سرجيوس التاج على رأسه بمباركة مجلس الشيوخ ورضى الأهالي الذين أقسموا له يمين والولاء والطاعة³.

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص71؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص164؛ عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص187؛

Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P50. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P75.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص81-83؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص164، 165؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص100؛

Bury: A history of the later Roman empire, v2 P210. Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P69,70.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص72؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص102؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص60؛ رستم: الروم، ج1 ص221؛ عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص187؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص70؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص185؛ النفراوي: فارس بيزنطة والجزيرة العربية، ص107؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P428. Bury: A history of the later Roman empire, v2 P206. Gregory: A history of Byzantium, P156. Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P51. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P85.

وباعتلاء هرقل لعرش الامبراطورية البيزنطية يكون قد انتهى عصر الظلم والفساد وبدأ عصر الإصلاح، بعد ما عانت هذه الامبراطورية من ويلات كادت أن تطوي صفحة وجودها إلى الأبد، فقد استلم هرقل بلاداً مرهقة من تتالي الحُكَّام الضعاف وكثرة الطَّامعين والجيران الذين انتهزوا فرصة ضعفها وهاجموها من كل حذب وصوب، فالفرس من الشرق يهاجمون أراضيها ويسيطرون على كامل بلاد الشام فسقطت دمشق عام 613م ثم دان لهم بيت المقدس Jerusalem بسهولة عام 614م فنهبوه وسرقوا كنوزه وخاصة الصَّليب المقدَّس - الذي يعتقد المسيحيون أن المسيح قد صُلب عليه - ونقلوه إلى عاصمتهم طيسفون، كما فرضوا سيطرتهم على مصر بعد انهيار مقاومتها سريعاً أمام قوَّة ضرباتهم عام 619م ففقدت الامبراطورية بفقدانها أهم أراضيها ومصادر غلالها في الشرق، لذلك لم يكن التوغل داخل آسيا الصغرى والوصول إلى خلدونية وتهديد العاصمة صعباً عليهم، أما من الجهة الشمالية فقد كانت حشود السلاف والآفار يجتاحون مناطقها بسهولة فوصلوا أيضاً إلى القسطنطينية وهددوا وجودها، وكلُّ ذلك نتيجةً للضعف الذي دبَّ بنظامها العسكري واضطراب اقتصادها وفراغ خزينتها المالية، حتى أن الشعب نفسه إضافة إلى انقسامه لأحزاب سياسية متناحرة، قد تفرَّق بين مؤيِّد المذاهب الدينية وآخر معارض له، فهذه الأسباب كانت كفيلة بيأس هرقل واستسلامه واتخاذ قراراً بترك القسطنطينية والعودة إلى مدينته قرطاجة، فاستيقظ حينها الجميع من سباته ورفض بطريك العاصمة ورجال الدين والناس عامة ذلك وناشدوا الامبراطور بعدم الرِّحيل وترك البلاد في ظل هذه الظروف الحالكة عارضين عليه ما يستطيعون أن يفعلوه في سبيل ذلك، وهكذا غيَّر هرقل نيته ليبدأ مشروعه في إصلاح أوضاع الامبراطورية واستعادة ما فقدته من أراضي وهيبة، فتكون هذه الإصلاحات نقطة تحول أساسية في تاريخ بيزنطة، ولكن ليس لوقت طويل إذ ستأتي الفتوحات العربية الإسلامية فيما بعد وتطيح بكل ما قام به من انتصارات¹.

¹ العريني: الدولة البيزنطية، ص116؛ غنيم (اسمت): تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1990م، ص39؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص148؛ هالدون (جون): بيزنطة في حرب، تر فتحي محمد، الكويت، دار ناشري، 2011م، ص13؛ هسي: العالم البيزنطي، ص102؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص104؛

Haldon: Byzantium in the seventh century, P42. Herbert. C: The first half of the seventeenth century, Palala Press, 2016, volume p369. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, Paris, Peeters, 2002, P2,3. Vasiliev. A: History of the byzantine empire, Canada, the university of Wiscnsin press, 1952, Volume1, P195,196.

ثانياً: إصلاحات هرقل:

1. الإصلاحات الإدارية والعسكرية:

أخذت الامبراطورية البيزنطية تصطبغ شيئاً فشيئاً بالصبغة اليونانية تاركة ما ورثته عن الامبراطورية الرومانية من أثر لاتيني، وذلك نتيجةً لسيادة العنصر اليوناني في أراضيها الباقية ضمن حدودها، فمُنحت اللغة اللاتينية مكانتها بالتدرج للغة اليونانية بعدما كانت جنباً إلى جنب معها وذلك دون إجراء أي تغيير حازم مقصود، حيث أصبحت مع مرور الوقت لغة الإدارة والشعب داخل الامبراطورية بينما كان اللسان اللاتيني سائداً في المؤسسة العسكرية، ومن أجل إنهاء هذا الاختلاف أصدر الامبراطور هرقل قراراً باعتماد اليونانية لغة رسمية في البلاد، لتكون أول خطوة في سبيل الوحدة التي يسعى إليها، وفعلاً بدأ بنفسه في تنفيذ هذا القرار عندما اتخذ لنفسه لقب باسيلوس ومعناه ملك باللغة اليونانية عوضاً عن لقب امبراطور أو أغسطس اللاتينيين، فنُقشت به العملات واستُخدم في المراسلات والمراسيم الامبراطورية، ثم أخذت الألقاب الحكومية تحذو حذوه وتتحول إلى اليونانية¹.

وربما كانت دوافع هرقل لاتخاذ لقب باسيلوس ترجع إلى انتصاره المقدس في حربه على الفرس سنة 627هـ/6م لإعادته الصليب المقدس إلى القدس وإعلاء شأن المسيحية من جديد مما جعله يستحق هذا اللقب بجدارة².

ويُستنتج مما سلف أنه مهما كانت الدوافع فإن ذلك لن يغير من حقيقة اتخاذ هرقل للقب باسيلوس الذي يعدّ بداية دخول الامبراطورية البيزنطية مرحلة جديدة أكملت فيها انفصالها عن سالفاتها الامبراطورية الرومانية، وخاصة بعد نقل العاصمة واتخاذ المسيحية ديناً رسمياً لها، وبما أن أراضي الامبراطورية في عهد هرقل قد اقتصرت فقط على آسيا الصغرى والبلقان وإيطاليا وإفريقية ذات الغالبية اليونانية أصبحت لغة التشريع والقوانين فيها من لغة الغالبية، فمن يخاطب الشعب لا بد أن يكون من نفس لغته، وينطبق على الكنيسة الأمر ذاته في منشوراتها.

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص131، 132؛ السيد (محمود): تاريخ الدولة البيزنطية، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ص69؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص73؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص130، 131؛ المنصوري (محمد): الحياة الدينية في بيزنطة، صفاقس، دار أمل، 2003م، ط1، ص43؛

Morgan: Byzantium, P73. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P106. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P19. Vasiliev: History of the byzantine empire, Volume1, P199.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص132.

ومن الطبيعي أن يلحق ذلك تغيير لغة الدواوين والسجلات الرسمية كتلك الخاصة بالجيش، ولا سيما بعد تجنيد القوى البشرية اليونانية والاستغناء عن المرتزقة في الجيش ذوي الأصول المختلفة¹. وإن دلّ تخليّ الامبراطور هرقل عن المرتزقة على شيء، فإنه يدل على عجز الخزينة عن تأمين ما يشتري به ولاءهم إلى جانب انعدام الكفاءة والروح المعنوية لديهم بسبب كثرة ما واجهوه من هزائم، مما أدى في النهاية إلى تفكك الجيش وتشرذم جنوده.

وهكذا كان من الضروري على الامبراطور أن يجد حلاً لمشكلتهم وبدلاً عنهم، فكان نظام الثغور، وهو إصلاح إداري عسكري، ميّز عهد هرقل بنتائج الواضحة، حيث قسّم الأقاليم التي لم يمسهأ سوء من الامبراطورية إلى ثغور أو ثيمات² Theme يرأسها حاكم عسكري (ستراتيجوس) ومهمته تملك سكان منطقته أراضي زراعية يقومون باستثمارها والعناية بها ويورثونها لأولادهم مقابل الاشتراك في حروب الدولة بعد تجهيز أنفسهم من مردودها سواء بالأسلحة أو الخيول، ولقد طُبّق هذا النظام بادئ الأمر في أرمينيا وآسيا الصغرى والأناضول لتعرضها لخطر الأعداء الدائم، ولكن تمّ توسيع تطبيقه على باقي مناطق الامبراطورية خلال عهود خلفاء هرقل، فكان الرجل من سكانها مزارعاً في السلم وجندياً في الحرب، عنده الولاء للامبراطور والحمية للدفاع عن أرضه في حال الهجوم عليها³.

و تغير معنى كلمة ثيم بمرور الزمن فكان في البداية يدل على نزول فرقة من الجيش في إقليم محدد من الأقاليم الثغرية للدفاع عنه، ثم أصبحت ترمز إلى المنطقة نفسها التي نزلت فيها هذه الحامية العسكرية أي أصبحت ذات معنى جغرافي⁴، كثرغر الأرميناك أو الثغر الأرمني Armeniakon الذي يعدّ

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص136، 137، 139؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص127؛ غنيم: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 45، 46.

² الثيم: أقاليم عسكرية كبيرة، يرأسها بأمر الامبراطور حاكم عسكري ذو سلطات مدنية وعسكرية ولقبه ستراتيجوس Strategos ويقابل ما كان معروفاً في النظام القديم بالأرخون Exarch. العريني: الدولة البيزنطية، ص120.

³ أحمد (محمد): تاريخ الحضارة البيزنطية، دمشق، دار التكوين، 2010م، ط1، ص45؛ ساليغان (ريتشارد): ورثة الامبراطورية الرومانية، تر جوزيف يوسف، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1985م، ط1، ص58؛ فرح (نعيم): الحضارة البيزنطية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1992م، ص102؛ محمد: علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية، ص65؛ اليوسف (عبد القادر): الامبراطورية البيزنطية، بيروت، المكتبة العصرية، 1966م، ص99؛

Morgan: Byzantium, P72. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P95,96,98. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P6.

⁴ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص45؛ حمودي (شيرين): أعمال المراقبة والمثاقرة بين بلاد الشام وبيزنطة، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة، إشراف الدكتورة اكتمال اسماعيل، جامعة دمشق، كلية=

من أوائل الثغور التي أنشئت بعهد الامبراطور هرقل عام 627-628م ويقع في شمال شرق آسيا الصغرى على حدود أرمينيا، ويضم ستة أقاليم وهي الهيلينوبونتوس Heleno Pontus والبيلومونيكوس بونتوس Pelomoniacos Pontus وقبادوقيا الأول Cappadocia I وقبادوقيا الثاني Cappadocia II أرمينيا الأول وأرمينيا الثاني، ومهمته الدفاع عن الحدود الشمالية الشرقية ضد أي هجوم يأتيها من هذه الجهة.

أما ثغر الأوبسقيك Opsikion فلا ينقص سالفه أهمية إذ تشكل في آسيا الصغرى أيضاً نحو الجهات المحيطة ببحر مرمرة لحماية العاصمة من الاعتداءات الموجهة عليها مباشرة لذلك أمد بأهم المقاتلين والجنود، وتألّف من خمسة أقاليم وهي الهلسبونت وبيتينيا Bithynia وإقليم جالاتا Galatia وإقليم فرجيا Phrygia وإقليم تراقيا، وقد تجمعت هذه الأقاليم لتشكّل حكومة الأوبسقيك أي (إقليم فرق الحرس الامبراطوري) واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطوري لمواجهة لشاطئ القسطنطينية، وقد انفرد حاكمه الأعلى بتسمية قومس Comes لأن القائد العسكري للحرس الامبراطوري كان يحمل هذا اللقب أي لقب قومس.¹

وفي شرق آسيا الصغرى نشأ ثغر الأناتوليك Anatolikon أي الأناضول ويتكون من الفرق العسكرية التي كانت متمركزة في الشام، بينما في غرب آسيا الصغرى أقيم ثغر تراقيسون ويتكون من الفرق المتمركزة في إقليم تراقيا.²

وشغل كل ثغر من هذه الثغور جيش يخضع لسلطة حاكم عسكري يسمى ستراتيغوس إلا ثغر الأوبسقيك - كما سلف ذكره - ويتألّف هذا الجيش من كتيبتين أو ثلاثة كتائب يقود كل واحدة منها طومارخ

=الآداب، قسم التاريخ، 2012م، ص65؛ ساليقان: ورثة الامبراطورية الرومانية، ص57، 58؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص122؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص199؛ فرج: الحضارة البيزنطية، ص103، 104؛

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P97.

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص117-121 ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص75، 76؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص122؛

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P97. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P165.

² أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص46، 47؛ شينية (جان كلود): تاريخ بيزنطة، تر جورج زيتاني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008م، ط1، ص61؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص200، 201.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P97. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P165.

أي أمر الكتيبة، وتألّفت الكتيبة الواحدة من خمسة سرايا يرأسها قائد يدعى طرنجار، كما تشمل السرية خمسة فصائل تحت إمرة القومس¹.

ولا يعدُّ هذا النظام جديداً من نوعه بل إنَّه تطور أو امتداد لما سلفه من أنظمة، فقد دمج هرقل ما بين نظام جيش الأطراف القديم وما بين نظام الأرخونية الذي أنشأه الامبراطور موريقي في رافنا وقرطاجة، وبذلك كان نظام الثغور أي استقرار الجنود في مناطق الثغور، فحققت الدولة الحماية لحدودها وأراضيها بأيدٍ وطنية مخصصة ليس بأيدي المرتزقة، إضافة إلى النمو الاقتصادي الزراعي للبلاد مع تخفيف عبء النفقات على الخزينة المنهكة، ورغم كل هذه الإيجابيات إلا أن نظام الثغور من ناحية أخرى سبَّب استفحال نفوذ أمراء الجيش وتعميق الهوة بين صغار المُلَّاك وكبار الإقطاعيين، إذ كانت السلطات المدنية في بداية الأمر تزاوُل أعمالها تحت إشراف الحاكم العسكري ولكن مع مرور الوقت زادت سطوته وقلَّت حقوق المدنيين فأصبحت الإدارة الجديدة ذات طابع عسكري خالص².

مما يدل وبكل تأكيد على ذكاء الامبراطور هرقل وصدق نواياه في سعيه الحثيث وراء النهوض بهذه البلاد، فكما هو معروف أن النهوض بأي بلد يبدأ أولاً بحماية وجوده من الزوال على يد أعدائه، وهذا ما تمَّ بتنسيق هرقل لنظام الثغور ففي ظاهره غاية اقتصادية وفي باطنه جدار بشري متين يمتد على طول حدود الامبراطورية ويدفع عنها الأخطار.

2. الإصلاحات السياسية:

ورثت الامبراطورية البيزنطية انقسام أحزابها عن الامبراطورية الرومانية منذ نشوئها، وقد سلفت الإشارة إلى أهم هذه الأحزاب السياسية والتي كان لها دور كبير في تشكيل الهيكلية السياسية البيزنطية، إذ مثَّل حزبي الزرق والخضر فيما مضى مصالح الطبقات الدنيا والعليا في المجتمع كما كانا أهم مسوغات الفوضى فيه آنذاك، لتنافس ساداتهم على النفوذ وتعارض مصالح أتباعهم ولكن اختلف الأمر خلال عهد هرقل بفضل سياسته الحكيمة التي تجلَّت باستغلال العواطف لصالح البلاد، فتراجع دور الزرق الواضح في عهده بسبب وقوفهم ضده في ثورته على سلفه الامبراطور فوقاس، وازدياد نفوذ الخضر لمساعدتهم إياه في نجاح هذه الثورة، لم ينتج عنه سوى تولَّد شعور قومي فقدوا الإحساس به منذ زمن بعيد، حيث أدركوا ضرورة الاتحاد ونسيان العداوة التي بينهم، وخاصة بعد ما فقدته الامبراطورية من أراضي لصالح الفرس أثناء اجتياحهم لها واجتزاء مناطق في غاية الأهمية منها كالشام ومصر وبيت المقدس ووصولهم إلى

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص119، 128؛ حمودي: أعمال المرباطة والمثاغرة بين بلاد الشام وبيزنطة، ص67.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص127؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص199؛ فرج: الحضارة البيزنطية، ص103، 104؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص99؛

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P98.

أنطاكية وتهديدهم للعاصمة القسطنطينية مباشرة، فشكّل كل ذلك إهانة صارخةً للبيزنطيين والتي كانت حنكة هرقل خير معالج لها حيث تعامل مع الأحزاب السياسية بما منتهاه الوحدة التي يصبو إليها، فلم يحابِ الخضر على حساب الزرق ولم يسئ للزرق فيشير حفيظتهم وكرههم له، وهكذا أخذت مظاهراتهم بالاختفاء بينما ظهر دورهم في المجال الحضاري كالاشتراك بالاحتفالات وتنظيم سباقات الخيول والعربات وجميع الألعاب¹.

هذا من ناحية الشعب أما من الناحية الحكومية فقد رسّخ الامبراطور هرقل سلطته في امبراطورية شهدت مؤخراً عدة انقلابات على أباطرتها باستحداث نظام سياسي جديد يسمح به الامبراطور لمن يريده خليفة له أن يشترك في أمور الحكم أثناء حياته، وبالتالي له أن يتخذ تاجاً ولقباً امبراطورياً وأن يُنقش اسمه على العملات ويُذكر أيضاً في المراسيم، وهكذا يبقى الحكم ضمن الأسرة الواحدة ويُعطى الحق للامبراطور باختيار من يتولى بعده العرش، وفعلاً اتخذ الامبراطور هرقل اثنين من أبنائه منذ ميلادهما شركاء له في الحكم²، ففي عام 613م توجّ هرقل ابنه الرضيع قسطنطين في القصر الامبراطوري ثم توجهوا به نحو أحد الساحات العامة فحيّاه أعضاء مجلس الشيوخ إكباراً له، كما أمطره الشعب بوابل من الهتافات المؤيدة ومن هناك انطلقوا جميعاً مع هرقل إلى الكنيسة ليكملوا ما بدؤوه بدعم رجال الدين³.

ومن ناحية أخرى عمل الامبراطور هرقل على ضمان الاستقرار في الوظائف الحكومية أيضاً فأعطاهم لأقاربه وأخوته، حيث عين ابن عمه نيقثاس في منصب أمير إحدى فرق الحرس الامبراطوري مع احتفاظه بمنصبه كأرخون على مصر، كما جعله فيما بعد أرخوناً على إفريقية، بينما شغل أخوه ثيودور Theodor منصب عميد القصر وقائد الجيوش البيزنطية في حروب هرقل ضد الفرس والعرب المسلمين فيما بعد⁴.

ورغم ما لتعيين أقارب الحاكم في الوظائف الرسمية من فوائد بارزة إلا أنه سيف ذو حدين فكما يمنعون تدخل عناصر أجنبية دخيلة على البلاد ربما أرادوا الشر بها مستقبلاً، إلا أنهم من الممكن أن يصبحوا أول مسببي الفوضى والاضطراب أو حتى طامعين بالعرش نفسه وهذا ما حصل فعلاً مع الامبراطور السالف فوقاس وصهره برسكوس، فيكون تعيينهم وبالأول لا راداً له.

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 92-95؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 61.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 88.

³ Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P73. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P107.

⁴ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 91، 92.

3. الإصلاحات الاقتصادية:

سلف اعتلاء الامبراطور هرقل للعرش قروناً من التفوق الاقتصادي البيزنطي نظراً لما كانت تتمتع به القسطنطينية من موقع استراتيجي هام يتوسط الشرق والغرب والشمال والجنوب، فأصبحت من جرّاء ذلك خزاناً للثروات بفضل تجارتها المزدهرة ولكن كان هناك ما يؤثر على الخزينة بشكل كبير وهو المبالغ الباهظة التي كانت تُدفع لشراء الحرير من الصين -التي أخفت سرّه لسنوات طويلة- ومن ثم نقله إلى بيزنطة مع دفع ما تفرضه فارس من مكوس عالية عليه بسبب مرور القوافل التجارية عبر أراضيها ليُصنّع في النهاية في مصانع بيروت وصور، ولكن مع بدايات القرن السادس وبسبب حروب جستنيان مع الفرس وسوء الأوضاع السياسية بينهما اضطربت تجارة الحرير، مما أدى إلى شراء الامبراطور لكل مصانعه داخل الامبراطورية مبتدئاً عهد احتكار صناعته التي ستزدهر قريباً بعد انتقال سر دودة القز إليها¹.

مما يوضح للباحث دور السياسة في تحديد مسار الاقتصاد العام لأي بلد، فالسلم خير مناخ لنمو الاقتصاد وازدهاره أما الحرب فتقطع أرحام البلاد المتجاورة وتدمر مصالحهم على السواء، ورغم ذلك كان الامبراطور جستنيان على دراية بما قد يحصل مما دفعه لاتباع منهاج لم يود بالامبراطورية إلى الإفلاس التام وذلك بشراء مصانع الحرير واحتكار تصنيعه وهي الخطوة التي ستعود عليه ومن هو بعده بكل خير لاحقاً.

ونظراً لأهمية التجارة في مردودها على خزائن الامبراطورية نظّمت الحكومة التجّار في نقابات حرفية مثل نقابة تجّار المواشي والجزّارين والخبّازين، ولتميّز تجارة الحرير بشكل خاص أصبح لكل عملية تخصّه نقابة منفردة، كنقابة المنتجين للحرير والغزلين والنّساجين والصّبّاعين والتجّار سواء كخام أو مُصنّع، وهكذا تمكنت الدولة من الإشراف على الحياة الاقتصادية لصالح الحكومة والمستهلك لأن الحكومة هي من تولت تعيين رؤساء النقابات واختارت الموظفين من الذين اشتهروا بالتقاني في الخدمة فقط لكي تضمن جودة المنتج².

ولذلك عندما استلم هرقل عرش الامبراطورية وهي منهكة القوى وقد تكالب عليها الأعداء من كل حذب وصوب، اجتاحتته رغبة بالعودة بها إلى مجدها التّليد، فبدأ باتّباع خطة اقتصادية تقوم أساساً على جعل العضوية في هذه النقابات الحرفية غير وراثية بعد أن تمتّعت بزمان طويل من الاحتكار الفردي والعائلي لها، فأصبح الانضمام إليها يتم باجتياز امتحان يعقده رؤساء الحرف وموظفون من قبل

¹ رنسيان (ستيفن): الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، ط2، ص194-197؛ الشامي (فاطمة): الحضارة البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية، 2002م، ص76-78.

² الشامي: الحضارة البيزنطية، ص85-86.

الامبراطور كما يفرض عليهم رقابة شديدة في حين طُرد من ثبُت عدم جدارته أو كفاءته في هذا المكان، وبذلك يكون الهيكل المهني قد تخلص من نظام الاحتكار ومن المستهلكين غير المنتجين¹. على أن التجارة الخارجية في نفس الوقت قد نالت نصيبها من التغيير أيضاً، إذ أُقيم عدد من المكاتب التجارية المحلية المستديمة في كل مرفأ أو ميناء هام لمراقبة المبادلات الدولية وتأمينها، بعدما كان يقوم بهذه المهمة موظف امبراطوري مهمته مراقبة التجارة الخارجية وعدم السماح للغرباء بالتجارة إلا بحضور ممثل عن الحكومة المركزية²، كما ساعد ترويجه للبضاعة البيزنطية المحلية وبشكل خاص الحرير بتنشيط التجارة الخارجية من خلال إرسال أنسجة حريرية منقوش عليها اسم الامبراطور هرقل إلى حكام الدول الأخرى كبلجيكيا، بعدما انتشرت صناعته على مساحة الامبراطورية وتصدّرت منتجاته قائمة التصدير³.

وما كان باقتصاد وصل إلى الحضيض بسبب الاحتلال الفارسي والغزو البرابري على أراضيها أن ينهض من جديد لولا الكنوز والجواهر الذهبية والفضية التي قدّمتها كنائس الأقاليم والعاصمة برئاسة بطيريكها سرجيوس إلى الامبراطور هرقل يناشدونه قبولها من أجل تمويل حرب على الفرس ليعيد بها الصليب المقدس رمز المسيحية التي تدين بها الامبراطورية والذي سلبوه من بيت المقدس بلا حق أو مقاومة مما كان لهم مدعاة لخزي أرادوا أن يمحوه⁴.

وفعلاً أمر هرقل بصهرها وجعلها نقوداً لاستدراك الموقف، إلى جانب عمله في سك عملة فضية تزن ستة جرامات، وكانت قيمتها المعلنة ضعف قيمتها الحقيقية واستُخدمت في دفع مرتبات الموظفين⁵، ونظراً لتأثر العملة لما تعرضت له البلاد من اضطراب توقّف نشاط دور النقد وخاصة في المدن الشرقية

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص103-105؛

Baynes. N, Moss. H: Byzantium, London, Oxford university press, 1948, P62, 63.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص103-105؛ الشامي: الحضارة البيزنطية، ص83.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص103-105.

⁴ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص70؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص61؛ العربي: الدولة البيزنطية، ص123، 124؛ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص136؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص172؛ خطاب: أرمنية بلاد الروم، ص42؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص78؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص151؛ فرج: الحضارة البيزنطية، ص104؛ غنيم: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص40؛

Bury: A history of the later Roman empire, v2 P221. Frye: Cambridge history of Iran, volume 3(1), P169. Gregory: A history of Byzantium, P160. Vasiliev: History of the byzantine empire, Volume1, P197. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P81.

⁵ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص98؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص174؛

Bury: A history of the later Roman empire, v2 P221. Herbert: The first half of the seventeenth century, P374.

التي خضعت للاحتلال الفارسي بين عامي 611/هـ-628م كأناطكية ونيقوميديا وغيرها، بينما استمرت الاسكندرية وكثير من مدن الغرب في سك النقود خلال هذه السنوات كقرطاجة وروما ورافنا.¹ أما من ناحية قيمة هذه العملة فقد كان الفولس Follis يزن 11 جراماً، منذ حكم فوقاس حتى العام الأول من عهد هرقل ثم بدأ بالانهيار، فمع بداية الغزو الفارسي لآسيا الصغرى عام 615م نزلت قيمته إلى 8 جرامات ولكن خلال حملات هرقل الاستردادية نزلت قيمة الفولس أكثر إلى ما يقارب 5 جرامات، ولكن تبعاً للاستقرار السياسي الذي حققه هرقل خلال الأعوام 629-631م عادت قيمة الفولس إلى 11 جراماً، وهو مقياس كان من الصعب الحفاظ عليه.²

ورغم ما كانت تتميز به العملة الذهبية في عهده والتي تُعرف بالصولد Solidi إلا أنه قام بضرب نوع من النقود الذهبية خفيفة الوزن لتُدفع كجزية للآفار لقاء سلامهم، ولكي يتفرغ للحرب الفارسية قام بخلط هذه النقود الذهبية خفيفة الوزن مع النقود ذات الوزن النموذجي.³

وبصورة عامة كانت سياسته الاقتصادية قائمة على أساس رفع أجور الموظفين الحكوميين والجيش الذين سينفقون بدورهم جزءاً كبيراً منها للحصول على خدماتهم الحياتية، على أن البعض يقول أن الرواتب العسكرية والرسمية التي تم دفعها قد نزلت إلى النصف⁴، وفي كل الأحوال يمكن للدولة أن تسترجع أموالها عن طريق فرض ضرائب باهظة والتشدد في جبايتها وخاصة في أقاليم الشرق الغنية.⁵

ولكن مع غارات الفرس على هذه المناطق واستيلائهم على مصر المصدر الرئيسي لقمح الامبراطورية، كاد أن يصاب سير الاقتصاد البيزنطي بالضربة القاضية إذ أُوقف توزيع القمح واللحم والخمر والزيت المجاني على سكان العاصمة الذين اعتادوا على أخذها منذ أيام الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine The Great (306-337م)، فرفضوا الانصياع وقاموا بالاحتجاجات لأن عدداً كبيراً من الناس كانت تعيش على ما توزعه الدولة عليهم، ولتهدئتهم شجعت الدولة منتجي القمح في تراقيا

¹ Herbert: The first half of the seventeenth century, P374,375.

² Herbert: The first half of the seventeenth century, P374,375. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P5.

³ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص174.

⁴ Mango: The oxford history of Byzantium, P55.

⁵ هالدون: بيزنطة في حرب، ص28.

وآسيا الصغرى وساحل بحر بنطس (الأسود)¹ على التوسع في زراعة هذا المحصول مستغلة ما تتمتع به من الهدوء والاستقرار السياسي وهكذا عوضت ما نقصها من قوت للمدينة².

4. الإصلاحات الدينية:

منذ أن اعترفت الامبراطورية البيزنطية بالمسيحية ديانة رسمية لها في القرن الرابع الميلادي وهي تقوم على أساس الاعتقاد بوجود ثلاثة أقانيم³ وهي الأب والابن والروح القدس وهؤلاء الثلاثة ليسوا إلا واحداً في الجوهر. واستمرت سيادة هذا الاعتقاد إلى أن ظهرت بعض الاعتقادات الأخرى والتي عدها البعض هرطقات خارجة عن الحق⁴، وكان أبرزها وأكثرها إثارة للجدل هي الأريوسية والتي سميت بذلك نسبة إلى أريوس Arius كاهن أحد الكنائس في الاسكندرية، عُرف بالزهد والعلم والتقى وقال منطلقاً من حكم العلم والمنطق أن الابن لا يمكن أن يساوي الأب، لأن الأب قبل الابن، وبما أن المسيح هو ابن الله فهو إذاً لا يساويه في المكانة والمنزلة والقدرة وبما أن الخلود صفة الله الذي لا أول له ولا آخر فإن المسيح ليس خالداً، لأن له بداية لأنه مخلوق لئلا الأب ولهذا فإن المسيح ليس إلهاً وإلا فالمسيحيين يعبدون إلهين، وبالتالي فإن أريوس قد أنكر ألوهية المسيح وأنزله إلى رتبة البشر⁵.

في حين تمسك أثاناسيوس Athanasios بطريك الاسكندرية برأيه المتوافق مع مبدأ المسيحية الأساسي، وفسر ذلك بأنه رغم كون الاله الابن مختلفاً عن الاله الأب إلا أنهما متساويان في المستوى والمكانة والقدرة بحكم أنهما من عنصر واحد ويستمدان صفتيهما من الصفة الأزلية⁶.

¹ بحر بنطس (الأسود): يمثل حدوداً لكل من رومانيا وأوكرانيا وروسيا وجورجيا وبلغاريا وتركيا، وهو من البحار الداخلية ويربطه بالبحر المتوسط مضيق البوسفور وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل، وتبلغ مساحته حوالي 450.000 كم². أحمد (مصطفى): الموسوعة الجغرافية، القاهرة، دار العلوم، 2004م، ط1، ج2 ص36.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص101؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص104؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص104، 105.

³ أقنوم: كلمة أصلها سرياني ومعناها الشخص. معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ص658.

⁴ العريني: الدولة البيزنطية، ص43.

⁵ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص146؛ رستم (أسد): كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، بيروت، منشورات النور، (د.ت)، ج1 ص192، 193؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص56، 57؛ العريني (السيد الباز): مصر البيزنطية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1961م، ص48؛ يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوربية، ص17؛

Mango: The oxford history of Byzantium, P105.

⁶ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص47؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص57؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص17، 18.

ولأن المذهب الأريوسي المنكر لألوهية المسيح يتفق مع المنطق والتفكير العقلاني انتشر في الشطر الشرقي من الامبراطورية مركز الحضارة اليونانية وموطن الفلاسفة والمتقنين، بينما ساد المذهب الأثناسيوسي في القسم الغربي منها مكان الحضارة اللاتينية التي لم تصل بمستواها الفكري إلى مستوى جارتها، وبالتالي اشتعل فتيل الفتنة بينهما وانقسمت الامبراطورية إلى قسمين حسب مذهب الغالبية¹ ودرءاً لما يمكن أن ينتج عن هذا الأمر دعا الامبراطور قسطنطين عام 325م إلى عقد مجمع ديني في نيقية² وهو الأول من نوعه في تاريخ المسيحية وحضره ما يقارب ثلاثمائة من كبار رجال الدين في الشرق والغرب وتمّ فيه مناقشة آراء أريوس وأثناسيوس، وفي نهايته تقرّر نفي أريوس وإدانته آرائه وإقرار مبادئ أثناسيوس، كما وُضع ترتيب لأكبر البطريركات في المسيحية حيث حلّت روما في المرتبة الأولى ثم الاسكندرية فأنطاكية، ومع كل هذا لم ينجح مؤتمر نيقية إذ استمر المذهب الأريوسي في الانتشار لدرجة أن الامبراطور نفسه أعاده من منفاه وتبنّى مذهبه³.

وتحقيقاً لمزيد من الأمن والسلام بين أتباع طوائف الدين الواحد عقد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (379-395م) مجمعاً دينياً ثانياً في القسطنطينية أقرّ فيه ما جاء في مجمع نيقية من قرارات بأن الابن من جوهر الأب إضافة إلى تغيير ترتيب البطريركات فجعل القسطنطينية في المرتبة الثانية بعد روما باعتبارها عاصمة الامبراطورية ويليها كنيسة الاسكندرية، فنتج عن هذا الأمر خلافاً جديداً⁴، حيث اعتمد في ترتيب الكنائس على قدر القديس الذي أسّس تلك الكنيسة، فادّعت روما لنفسها الرئاسة لأن القديس بطرس هو من أسّسها بينما كانت كنيسة الاسكندرية في المرتبة الثانية لأن مؤسسها

¹ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص47؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص57.

² نيقية: أحد مدن القسطنطينية على الجانب الشرقي الآسيوي منها. الحموي: معجم البلدان، ج5 ص333، مادة نيقية.

³ الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت548هـ/1153م): الملل والنحل، تح عبد العزيز الوكيل، القاهرة، دار الحلبي، 1968م، ج2 ص27؛ فرح: الحضارة البيزنطية، ص121؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص17، 18؛ رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية، ج1 ص203-210؛ العريني: مصر البيزنطية، ص44-46؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص32؛ العدوي (ابراهيم): الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1951م، ص29؛ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2 ص624، 625؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص132؛ الشامي: الحضارة البيزنطية، ص35؛ رستم: الروم، ج1 ص56-58؛

Mango: The oxford history of Byzantium, P105.

⁴ رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية، ج1 ص255، 256؛ رستم: الروم، ج1 ص91، 94، 95؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص132؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص41؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص37، 38.

هو القديس مُرقس، لذلك عندما جعلت القسطنطينية من كنيستها سابقة لكنيسة الاسكندرية تولدت المنافسة ونشأ الصراع بينهما¹.

ولم تنعم الامبراطورية بالهدوء لمدة طويلة حتى خرج نسطور Nestorius (428-431م) أحد بطاركة القسطنطينية بآراء جديدة متأثرة بكنيسة أنطاكية وتخالف ما كان سائداً حينها، حيث قال أن طبيعتي المسيح البشرية والالهية منفصلتين وليستا متحدتين غير أن الطبيعة البشرية هي الغالبة على شخصيته وأن العذراء لم تكن أمّاً للاله بل أمّاً للمسيح البشر فقط.²

ولكن تصدى له كيرلس Cyril (412-444م) بطريرك الاسكندرية إذ أصدر منشوراً من اثني عشر بنداً يصرّ به على فكرة أن طبيعتي المسيح متحدتين وليستا منفصلتين بحيث ذابت الطبيعة البشرية في الطبيعة الالهية عند تجسد المسيح وبالتالي فإن العذراء أم الاله، وهكذا فإن للمسيح طبيعة واحدة وهي الالهية ومن هنا جاءت تسمية المذهب الذي نشأ بسببه وهو المذهب المونوفيزتي وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية مونوس أي الواحد فأصبح أهل الاسكندرية من أتباع المذهب المونوفيزتي أو الطبيعة الواحدة³.

ولقد اضطهد كيرلس أتباع نسطور مستغلاً نفوذه وبُعد مركزه عن العاصمة القسطنطينية، فأمر حينها الامبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (408-450م) بانعقاد مجمع ديني في مدينة أفسوس⁴ لإنهاء الخلاف فكان ذلك في عام 430م، وحضر كيرلس المؤتمر مع خمسين من رجاله، بينما تأخر مندوب نسطور ورجاله في الحضور، فاستغل كيرلس الموقف وبدأ أعمال المجلس من دونهم واتّهمهم

¹ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج1 ص369؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص124؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص28.

² رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية، ج1 ص312؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص50-53؛ العريني: مصر البيزنطية، ص64.

³ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص147؛ عطا (زبيدة): الدولة البيزنطية، المنيا، دار الفكر العربي، (د.ت)، ص190، 191؛ فرح: الحضارة البيزنطية، ص121؛ المنصوري: الحياة الدينية في بيزنطة، ص32؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص38، 26؛

Frend. W: The rise of the Monophysite movement, Cambridge, Cambridge university press, 1972, P2.

⁴ أفسوس: بلد بثغور طرسوس ويقال أنه بلد أهل الكهف. الحموي: معجم البلدان، ج1 ص231 مادة أفسوس.

بتعمُّد التأخير، فكان من الطبيعي أن تكون نتيجة الأمر أن حُرِّمت آراء نسطور وعُدَّت كهرطقة كما عُزل من منصبه ونُفي خارج البلاد¹.

وكان لكل مذهب داعميه كالراهب أوتياخا (Eutyches 387-455م) وهو رئيس أحد الأديرة بالقرب من القسطنطينية والذي دعم بشدة مبادئ كيرلس، ولكنه تمادى بذلك إذ قال أن الطبيعة البشرية في المسيح امتزجت مع الطبيعة الالهية حتى تلاشت فيها أي أن للمسيح طبيعتين قبل أن يجري تجسيده ثم صار للمسيح طبيعة واحدة بعد تجسيد الاله، ولما رفض أوتياخا التراجع عن رأيه صدر بحقه قرار الإدانة والنفي².

ولكن أكمل مسيرته وتبنى آراءه بطريرك الاسكندرية ديوسقوروس Dioscorus وتبعه الأهالي في ذلك، فأثار نفوذ كنيسة الاسكندرية المتزايد قلق روما وخوفها من أن تتسلَّم الاسكندرية إدارة دقَّة النُّوْجِ الديني في العالم المسيحي، فعُقد مجمع ديني رابع في خلقدونيا بأمر من الامبراطور مرقيان Marcian (450-457م) متخذين قرارهم سلفاً بإدانة الاسكندرية مهما كانت آراؤها ودفاعاتها، وفي عام 451م أُقيم المجمع وحضره ما يزيد عن 500 بطريركاً ومندوبين عن البابا والامبراطور، وتقرَّر بعد ست عشرة جلسة أن للمسيح طبيعتين بشريّة مستقلة ومنفصلة تماماً وإلهية مستقلة ومنفصلة تماماً أي أن المسيح إله وبشر معاً، وتقرر عزل ديوسقوروس ونفيه إلى آسيا الصغرى وأصبحت قرارات خلقدونية أساس التعاليم الدينية عند الكنيسة الأرثوذكسية Orthodox أو ما عُرف بمذهب الطبيعتين أو الملكاني³.

¹ الشهرستاني: الملل والنحل، ج2 ص29، 30؛ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج1 ص393، 394؛ رستم: الروم، ج1 ص122-125؛ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكيا، ج1 ص314-317؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص133؛ عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص125، 126؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص30؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص51؛ العريني: مصر البيزنطية، ص66، 67؛ عطا: الدولة البيزنطية، ص192؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص50؛ فرح: الحضارة البيزنطية، ص121؛ المنصوري: الحياة الدينية في بيزنطة، ص32؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص26، 38.

² رستم: كنيسة مدينة الله انطاكيا، ج1 ص328، 329؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص133؛ العريني: مصر البيزنطية، ص70؛ فرح: الحضارة البيزنطية، ص122، 123؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص38.

³ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج1 ص313-323؛ عطية (عزيز سوريال): تاريخ المسيحية الشرقية، تح إسحاق عبيد، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ص73-75؛ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكيا، ج1 ص337-344؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص30، 31؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص30؛ العريني: مصر البيزنطية، ص73؛ عطا: الدولة البيزنطية، ص198، 199؛ هسي: العالم البيزنطي، ص218.

Haldon: Byzantium in the seventh century, P328. Hussy. J, Louth. A: The Orthodox church in the byzantine empire, Oxford university press, 1990, P5. Morgan: Byzantium, P73.

ورغم إصدار العاصمة نفسها لقرار اعتماد مذهب الطبيعيتين مذهباً رسمياً للدولة إلا أن الخلاف الأكبر وقع في العالم المسيحي، حيث أصرت الاسكندرية على رأيها بالطبيعة الواحدة وأعلنت انشقاقها عن كنيسة القسطنطينية واعتمدت اللغة المصرية القبطية كلغة رسمية لها ملغية اللغة اليونانية من طقوسها وشعائرها¹، وتبعها في اعتناق هذا المذهب أقاليم المشرق بما فيها بلاد الشام وفلسطين ووادي الفرات وأرمينيا رغم ما لقيه سكان هذه المناطق من اضطهاد وتكيل من قبل الحكومة المركزية عليهم يعودون أدرجهم²، ولكن من الجدير بالذكر أن المونوفيزيتيين في سورية اتخذوا لقب اليعاقبة نسبة إلى أسقف مدينة الرها يعقوب البرادعي المتوفى عام 578م المؤسس الحقيقي لمذهب الطبيعة الواحدة فيها³.

لذلك اعتلى الامبراطور هرقل عرش بلاد مفككة سياسياً ضعيفة اقتصادياً متحجرة دينياً مهددة بالسقوط، فكان الصراع المذهبي وحده كفيل بسقوطها وخاصة أن ما زاد من الأمر سوءاً هو اعتناق قبائل العرب المسيحية بفعل جهود السريان⁴ الذين اعتنقوا المسيحية منذ ظهورها وبحكم مجاورة العرب لكل من بيزنطة وفارس لسنوات طويلة وتأثرهم بسياسة كل منهما، ولكن الانقسام كان أساسياً بينهم أيضاً إذ لم تستطع الحيرة مقاومة التأثير السرياني النسطوري فيها، بينما وجد الغساسنة ضاللتهم في المذهب المونوفيزتي المناوئ للحكومة الامبراطورية والذي اتفق مع نزعتهم الانفصالية وروحهم الاستقلالية وميولهم الثقافية⁵.

وهكذا تطوّر اختلاف الرأي الديني بين أتباع المسيحية وتدرج انقسامهم لطوائف متعددة إلى خلاف حقيقي بينهم خدّهم عن القضايا المهمة التي كان من الأولى لهم الانشغال بها والعمل على تحقيقها عوضاً عن ذلك، كحماية دولتهم من السقوط وإدراك أهمية الوحدة التي يستغل الأعداء غيابها لإنهائهم جميعاً على السواء.

¹ العريني: الدولة البيزنطية، ص54؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص40.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص142؛ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية، ج1 ص349، 350؛ العريني: مصر البيزنطية، ص75؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص119؛ عطا: الدولة البيزنطية، ص199؛

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P78.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص144 حاشية رقم 4؛ بيغوليفسكا (نينيا): ثقافة السريان في العصور الوسطى، تر خلف الجراد، (د.م)، دار العلم، 1979م، ص324؛ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6 ص631.

⁴ السريان: سكان سورية الأصليين وهم امتداد للآراميين الذين سكنوا المنطقة منذ آلاف السنوات. عبده (سمير): السريانية العربية، دمشق، دار علاء الدين، 2002م، ط2، ص26.

⁵ برو: تاريخ العرب القديم، ص308؛ بيغوليفسكا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص313، 319، 323، 324.

وفي حال استمر الصراع والتفكك كان لابد للامبراطورية من الزوال كمستقبل لها، فاتقاء لهذه النهاية عمل رجال الدين بجَدَّ علَّهم يجدون ما ينجيهم من الكارثة، فكان ذلك عند بطريرك القسطنطينية سرجيوس الذي أوجد صيغة وسطاً بين أكبر مذهبين متصارعين والتي تقر بوجود طبيعتين للمسيح ولكن له إرادة واحدة أو فعلاً واحداً فقط، وقد وصل إلى هذه النتيجة من منطلق أن الفعل الواحد يجب أن يرتبط بالشخص وليس بالطبيعة وإنَّ أي شخص بأي حال من الأحوال هو واحد، وبالتالي له فعل واحد وعند هذه النقطة كان يبدو له أن الكنيستان الأرثوذكسية والمونوفيزية ستنتفكان، حتى أنه أقنع الامبراطور بذلك، فأصدر مرسوماً بإقراره عام 16هـ/638م دُعي بمرسوم تفسير الإيمان Ekthesis¹، ثم شرع يدعو بطاركة أكبر الكنائس في العالم المسيحي إلى اعتناق هذا المذهب الجديد الذي عُرف بمذهب المونوثلستية Monothelism أي الإرادة الواحدة، فكان منهم الراض ومنهم المؤيد، إما بالتهديد كبطريك أرمينيا أزر Azr أو بالإقناع كبطريك أنطاكية أثناسيوس أو فقط من أجل إنهاء الصراع كبابا روما هونوريوس Honorius وأخيراً كيروس Cyrus الجدير ذكره لأن الامبراطور هرقل قد أوكله سلطات مطلقة عسكرية ومدنية وروحية ليفرض المذهب الجديد في مصر المونوفيزية بالأساليب التي يرتئها لعلمه أنها أشد الولايات معارضة له، فعوضاً عن كسب ود الشعب واسترضائه حكَّم بطشه وقوته بهم فاتَّع أساليب العنف والشدة وما نال إلا سخطهم².

وسيتضح للباحث فيما بعد أثر ذلك على مجريات الأحداث اللاحقة كترحيب المصريين السريع بإخوانهم العرب المسلمين القادمين من الجزيرة العربية بدينهم الجديد الذي ترك لهم حرية المعتقد والعبادة فينقذهم مما عانوه في ظل الحكم البيزنطي الذي فرض عليهم مذهبه ونكل برافضيه.

¹ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص166؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص429، 430؛ خطاب: أرمينية بلاد الروم، ص44؛ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية، ج1 ص432، 433، 440؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص33، 133، 134؛ الشامى: الحضارة البيزنطية، ص36، 37؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص31، 32؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص132، 133؛ عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص94-98؛ النفراوي: فارس بيزنطة والجزيرة العربية، ص107؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص108-109.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P460. Frend: The rise of the Monophysite movement, P344. Haldon: Byzantium in the seventh century, P49. Gregory: A history of Byzantium, P161. Morgan: Byzantium, P74. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P108. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P18.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص158، 160، 164، 165، 166، 167؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص166؛ فرح: الحضارة البيزنطية، ص116؛ يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوربية، ص108، 109؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P461. Frend: The rise of the Monophysite movement, P349. Haldon: Byzantium in the seventh century, P49. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P108.

ولكن وإن كُتِّمَت أفواه المصريين باضطهاد كيروس لهم إلا أنَّ المعارضة قد استمرت على يد صفرونيوس Sophronius بطريك القدس (13-17هـ/634-638م) حيث عقد مستغلاً مكانته ونفوذه مجمعاً دينياً للأساقفة ورجال الدين التابعين له وأصدر خطاباً أرسله إلى بابا روما وبطريك العاصمة وغيرهم، يوضح فيه أن الفعل الالهي والإنساني في المسيح هما نتيجة طبيعية وضرورية لطبيعته المزدوجة وبالتالي لكل طبيعة فعلها الخاص بها¹.

ولكنه قبل بالرفض والاستهجان وأقرَّ بابا روما مذهب الإرادة الواحدة، ورغم ذلك لم يتمكن هرقل من فرض تطبيق هذا المذهب في بيت المقدس الذي سلفه المدُّ العربي الإسلامي إلى المنطقة وسيطر عليها 16هـ/637م مما أضعف موقف هرقل، إضافة إلى وفاة سرجيوس وهونوريوس الذي استلم البابوية بعده البابا سيفرينوس Severinus عام 19هـ/640م ورفض مذهب هرقل ولكنه توفى ليتولَّى بعده يوحنا الرابع Jean IV (19-21هـ/640-642م) كرسي البابوية ويعقد مجمعاً دينياً أدان مذهب الإرادة الواحدة، ولكي ينقذ هرقل نفسه من الخزي أرسل خطاباً إلى البابا الجديد يتبرأ به من مذهب الإرادة الواحدة ويضع اللوم على البطريك سرجيوس² بل وأرسل رسالة يخاطب فيها الأرثوذكسيين ويبين دعمهم له فجاء فيها: "من هرقل ملك الروم المؤمن بالمسيح الله الى الأرثوذكسيين.... نقول عن يسوع كلمة الله وابنه الطاهر انه طبيعتان متحدتان دون تبلبل او انقسام.... ونحن نحرم كل من يؤمن بغير هذا حتى ولئن كان عضوا في مجمع نيقية او مجمع القسطنطينية او مجمع افسوس او مجمع خلقدوني"³.

ولم تكن معاملة الامبراطور هرقل مع اليهود تختلف كثيراً عن معاملته للمسيحيين، ولكنَّ اليهود هم من كانوا يضمرون العداوة والبغضاء للبيزنطيين وخاصة بعد تنصُّرهم لأسباب تعود لعهود الأباطرة الرومان الذين أنزلوا أشد أنواع العذاب والتنكيل باليهود، ورغم ذلك اتَّسمت سياسته معهم في بداية عهده بالمسالمة، ويشهد له بذلك إعطاؤه الأمان لليهود الرُّها رغم مساعدتهم للفرس في إلحاق الأذى بالمسيحيين فيها، إضافة إلى منحه الأمان لليهود الجليل والناصرية والمدن المجاورة وكتابته لهم عهداً بذلك ولكنه ما لبث

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 175-176؛ رستم: الروم، ج 1 ص 468؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 133؛ لورنس (يوحنا): تاريخ الكنيسة المسيحية، تر هنري هرس، بيروت، المطبعة الاميركاني، 1875م، ص 248؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P461. Gregory: A history of Byzantium, P161. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P108.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 182، 185، 190، 191؛ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص 105؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 73؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص 31، 32؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 134؛ فرح: الحضارة البيزنطية، ص 116؛ النفراوي: فارس بيزنطة والجزيرة العربية، ص 107؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص 98.

³ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج 2 ص 294.

أن أنزل بهم أشد العقوبات وأمر بغلق معابدهم وملاحقتهم ومصادرة أرزاقهم بعدما ألحَّ عليه رهبان بيت المقدس وقساوسته من أجل معاقبتهم والانتقام منهم لما فعلوه من مساعدة الفرس لاحتلال المدينة وهدم كنائسها وقتل من فيها من المسيحيين أما حنَّه باليمين فسيكفروه عنه بالصوم أسبوعياً كل عام، ومع ذلك يبدو أنه لم يتمكن من السيطرة عليهم إذ ساعدوا العرب المسلمين فيما بعد بدخول المدينة المقدسة عام 637هـ/16م وأرشدوهم إلى مكانها وطرقها وعملوا لصالحهم كجواسيس، مما أغضب هرقل شديد الغضب فأمر بتعميد جميع اليهود وتنصيرهم حتى أنه أرسل بذلك إلى ملوك الفرنجة في أوروبا ليحذروا شرَّهم¹.

وهكذا يُلاحظ أن حسن معاملة الامبراطور هرقل مع اليهود وإكرامه إياهم لم تنفعه بل انقلبت عليه خيانة ونكراناً للمعروف بسبب حقِّ دفينٍ لم يتمكن اليهود من التعافي منه.

ثالثاً: علاقته مع الآفار:

تتغير خريطة العالم كل مدة من الزمن، فتتهار دول وتُقام أخرى على أنقاضها، وها هي دولة الآفار التركية تسقط عام 557م في أواسط آسيا أمام ضربات قبائل الهون الأتراك أيضاً، ليجبروهم على الرحيل والهجرة إلى مناطق تؤمّن لهم المعيشة، فعبروا نهر الفولغا Volga² ووصلوا إلى السهوب الشمالية لجبال القفقاس³، مما أدى إلى تصادمهم مع السلاف الذين سكنوا منطقة بيلاروسيا Belarus (روسيا البيضاء) لأكثر من ألفي عام قبل أن يقسمهم الكلت Celts⁴ ثم القوط إلى قبائل منفصلة ويجبرونهم على الهجرة⁵ بعد أن تعرض عدد كبير منهم للاستعباد وربما كان ذلك وراء تسميتهم الأجنبية بالسلاف Slavs

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 197-201؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص 429؛ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكيا، ج 1 ص 430-432.

² نهر الفولغا: نهر في روسيا الغربية وهو أطول نهر في أوروبا ينبع من آسيا الوسطى ويصب ببحر الخزر (قزوين).
Tockner, K: Rivers of Europe, USA, The university of Alabama, 2008, P23,25.
³ Dvornik, Francis: The Slavs, Boston, American academy of art and science, 1956, P36,37.
Haldon: Byzantium in the seventh century, P45. Kardaras. G: Byzantium and the Avars, Brill Academic Publishers, 2018, P15.

⁴ الكلت: هم عنصر آسيوي، نفذوا إلى أوروبا غرباً منذ أزمنة سحيقة ونزلوا في غابات ووديان أعالي الدانوب والمين وأواسط الراين حتى نهر الألب شرقاً، غير أنهم اضطروا تحت وطأة ضغط الجرمان من الشمال إلى ترك هذه المناطق والاستقرار في غالة (فرنسا) والجزر البريطانية. رفعت (محمد): معالم تاريخ العصور الوسطى، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1925م، ط1، ص 61، 62؛ الشيخ (محمد): تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1990م، ط1، ص 74.

⁵ رفعت: معالم تاريخ العصور الوسطى، ص 64؛ عمران، محمود: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 73.
Dvornik: The Slavs, P3,34.

أي العبيد¹، ولكنهم خلال القرن الخامس الميلادي بدؤوا بالنزوح جنوباً نحو الامبراطورية البيزنطية² حتى استقروا شمال نهر الدانوب في منتصف القرن السادس، ولأنهم أول من احتكَّ بحدود الامبراطورية حاول الامبراطور جستنيان جاهداً التخلص من خطرهم الذي سببوه للامبراطورية ولكن دون جدوى حيث غزت أقوامهم الغزيرة المقاطعات البلقانية أكثر من مرة ، لذلك بمجيء الآفار إلى هذه المنطقة رأى جستنيان أن يضرب قواهم ببعضها³، فاستغلَّ طلب الآفار منه عام 558م بأن يمنحهم أراضي يستقرون بها مقابل الدفاع عن الامبراطورية ضد أعدائهم، فوافق على فكرة التحالف لكن دون أن يعطيهم أي مساحة من أرضه وعوضاً عن ذلك قدَّم لهم هدية مالية - والتي ستتحول لجزية فيما بعد - مقابل محاربة السلاف والاستقرار في أراضيهم⁴، فوافقوا على ذلك وفعلاً نفَّذوا أمره وأخضعوا السلاف واستقروا في مناطقهم⁵.

وجدد الآفار خلال عهد جوستين الثاني طلبهم بمنحهم بعض الأراضي ضمن حدود الامبراطورية ليستقروا بها ولكنه رفض رفضاً قاطعاً، تاركين لما جرى من أحداث في شمال أوربا بين عامي 566-568م أن يمنحهم أراضي أكثر مما كانوا يأملونه من الامبراطور، إذ ظهر ما بين جبال الكارباتيان⁶ Carpathians وشرقي البحر الأدرياتيكي Adriatic Sea قومان هما الجيبوت⁷ Gepids في الشرق واللومبارد في الغرب وأخذاً يتصارعان على السلطة بتحريض من بيزنطة، فتحالف اللومبارديون مع الآفار بينما رفض جوستين الثاني مساعدة الجيبوت مما أدى لخسارتهم في الحرب وانتصار الآفار⁸. وهكذا استمرت غارات قبائل الآفار والسلاف على الامبراطورية البيزنطية، وما حاول الامبراطور موريس الحفاظ عليه من المناطق تم خسارتها على يد خليفته فوقاس لتدهور الأوضاع في عهده، كما انتقلت هذه الفوضى إلى عهد هرقل الذي انشغل برّد الفرس عن مشرق بلاده وإصلاح الفوضى الدينية والاقتصاد المتهالك والانهيال العسكري فيها، فانتهز الآفار الفرصة وتجاوزوا نهر الدانوب ليسلبوا الأقاليم

¹ يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، ص70.

² Dvornik: The Slavs, P3,34. Gregory: A history of Byzantium, P157.

³ Baynes, Moss: Byzantium, P338.

⁴ Kardaras: Byzantium and the Avars, P20,23.

⁵ Baynes, Moss: Byzantium, P338. Vlasto. A. P: The entry of the Slavs into Christendom, Cambridge, Cambridge university press, P4.

⁶ جبال الكارباتيان: سلسلة جبال تمتد شرق مدينة فينا وعبر نهر الدانوب في تشكوسلوفاكيا وتعد امتداداً لجبال الألب، وتتخذ شكلاً مقوساً، وتنتهي عند شاطئ نهر الدانوب عند البوابة الحديدية. أحمد (حسن): جغرافية أوربا، الرياض، دار المريخ، 1982م، ص38.

⁷ الجيبوت: أحد الأقوام الجرمانية، سكنوا المقاطعات البولندية واستقروا شرق نهر الفستولا الأدنى، يعدون أقرباء للقوط الذين سبقوهم إلى المنطقة.

Kmietowicz: Ancient Slavs, P121.

⁸ Gregory: A history of Byzantium, P157. Kardaras: Byzantium and the Avars, P26,27.

وراءه وينهبوها ويرجعوا ثانية إلى شماله بينما قام السلاف بالهجوم على ساحل دالماتيا Dalmatia وبحر إيجيه Aegean Sea وسالونيكيا وبتهديد العاصمة القسطنطينية نفسها ولكن أخفقوا في تحقيق مبتغاهم بدخولها، ثم أكمل هؤلاء السلاف ما بدؤوه وعملوا على تخريب إقليم تراقيا وأغاروا على مقدونيا Macedonia وتسالى Thessalia والجزر اليونانية، كذلك أقاموا لهم مستقرات في البلقان والبلوبونيز وكريت¹ Crete واحتلوا بعض المدن على ساحل البحر الأدرياتيكي الشرقي وأخرجوها من نطاق الحكم البيزنطي الذي لم يبق له سوى تراقيا وسالونيكيا وأتيكا Attica وجزر البحر الإيجي وبعض المراكز على ساحل البحر الأدرياتيكي والأأيوني Ionian Sea².

وفي ظل هذه الأحداث وازن هرقل بين الخطرين، الفارسي من الشرق والبرابري من الغرب فاختر القتال مع الفرس، لذلك أجبر على عقد هدنة مهينة مع الآفار يدفع بها مبلغاً طائلاً من المال ويرسل عدداً من أقاربه كرهائن مقابل السلام، علّه يتمكن في هذه المدة من أن يتفرغ للتهديد الأكبر الذي سيسلب الامبراطورية أهم وأغنى أقاليمها³.

¹ كريت: جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط وتبلغ مساحتها 8.332 كم² وهي أكبر جزر اليونان وعاصمتها خانيا. أحمد: الموسوعة الجغرافية، ج2 ص30.

² الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص75؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص117-118؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص74، 75؛ غنيم: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص37-38؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص148-149؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص166.

Haldon: Byzantium in the seventh century, P43,44. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P3.

³ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص136؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص62؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص78؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص125؛ غنيم: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص40.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P 43. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P101. Vasiliev: History of the byzantine empire, Volume1, P197.

الفصل الثالث: الحروب البيزنطية الفارسية (611-628م) في عهد هرقل

أولاً: الجغرافية السياسية:

1. إقليم أرمينية.
2. آسيا الصغرى.
3. بلاد الشام.
4. إقليم الجزيرة.
5. إقليم أذربيجان.

ثانياً: الجيش البيزنطي واستراتيجيته العسكرية:

1. فرق الجيش.
2. أسلحة الجيش.
3. لباس الجنود.
4. رواتب الجند.
5. الاستراتيجية العسكرية.
6. الأسطول.

ثالثاً: الجيش الساساني واستراتيجيته العسكرية.

رابعاً: أسباب الصراع البيزنطي الساساني:

1. الأسباب السياسية والاستراتيجية.
2. الأسباب الاقتصادية.
3. الأسباب الدينية.

خامساً: اجتياح كسرى الثاني أبرويز أراضي الامبراطورية البيزنطية 603م.

سادساً: حروب هرقل المضادة ضد فارس:

1. استعادة آسيا الصغرى 1هـ/622م.
2. غزو غزناك 2هـ/623م.
3. الحصار الفارسي الآفاري للقسطنطينية 5هـ/626م.
4. معركة نينوى 6هـ/627م.

سابعاً: معاهدة الصلح 7هـ/628م وانتهاء الحرب.

ثامناً: موقف ودور العرب (المناذرة والغسانة) في الحروب البيزنطية الفارسية (611-628م).

أولاً: الجغرافيا السياسية:

تؤثر جغرافية المناطق التي تقام فيها الحروب على وقائعها ونتيجتها، لضرورتها في تأمين طرق المواصلات اللازمة لإرسال الإمدادات لجيش الميدان كالقوى البشرية والغذاء والدواب والأسلحة، إضافة إلى تأثير موقع المعركة على مصير الجيوش فكل منطقة لها استراتيجية في القتال وكل موقع يرتب أسلوباً في المناورة، مما فرض على الدول أن تضع الجغرافيا في حساباتها عند وضع استراتيجيتها أو رسم خططها للحرب، ولذلك كان من الضروري التعرف على أهم المناطق والأقاليم التي دارت فيها الحرب البيزنطية الساسانية في عهد الامبراطور هرقل:

1. إقليم أرمينية:

إقليم رئيسي في منطقة القفقاس، ويحده من الشمال سلاسل جبال القفقاس ومن الشرق أذربيجان ومن الغرب بحر بنطس (الأسود)، فهو بهذا يطل في شكل شبه دائري من جهة الجنوب على آسيا الصغرى والشام والجزيرة وبلاد فارس، وليس لإقليم أرمينية حدود ثابتة فطالما كانت مسرحاً للحرب بين قوى الشرق والغرب المتمثل بالدول الحاكمة فيه كالامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية إلى جانب غزوات الخزر والأتراك من جهة أخرى، فيضمها المنتصر إلى أراضيه ويعين من يحكمها من قبله.¹

ويعود الصراع على هذه المنطقة إلى غناها بالموارد كالثروة المعدنية، فقد انتشرت فيها مناجم الحديد والذهب والفضة والنحاس وغيرها، كما يستخرج الملح من أراضيتها فضلاً عن الأحجار الكريمة، إلى جانب أن تنوع هذه الموارد من زراعية ورعوية وسمكية ومعدينية وحيوانية أدى إلى قيام صناعات متنوعة من هذه المواد الخام، فمن المعادن صنعوا الأسلحة واشتهروا بها وتاجروا بمنتجاتهم وأوصلوها إلى أصقاع الأرض، وقد ساعدتهم في ذلك موقعها الجغرافي الاستراتيجي الهام الذي يصل بين الشرق والغرب، والمتسبب لها أيضاً بأصعب المحن إذ طمعت بها دول الجوار فكانت ضحية للصراع بينهم.²

2. آسيا الصغرى:

شبه جزيرة تقع بأقصى غرب قارة آسيا، وتسمى الأناضول يحدها من الشمال بحر بنطس (الأسود)، وبحر الروم (المتوسط) يجاورها من الناحية الجنوبية، وبحر إيجه غرباً ويصل بحر مرمرة بحراً بنطس وإيجه وبينهما مضيقا البوسفور Bosphorus والدردينيل، كما تمتد بالقرب من الساحل الجنوبي

¹ بخيت: تاريخ الإسلام في أذربيجان، ص33، 34؛ العبد الغني: أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، ص24، 25.

² خطاب: أرمينية بلاد الروم، ص48؛ الكيالي (عبد الوهاب): موسوعة السياسة، بيروت، دار الهدى، 1985م، ج1 ص151-152.

لآسيا الصغرى جبال طوروس بينما تتألف باقي شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال وتكثر فيها البحيرات، وكانت آسيا الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية في العصور القديمة إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق وتربطها سواحلها باليونان.¹

والجدير بالذكر أن العرب المسلمين قد أطلقوا على مجمل أقاليم الامبراطورية البيزنطية تسمية بلاد الروم، وهي مرادفة لكلمة نصراني أي يدين بالمسيحية، ثم أصبحت لفظة الروم تطلق على أقرب الأقاليم النصرانية من بلاد الإسلام ثم صار اسم الروم تسمية لآسية الصغرى عند العرب.²

3. بلاد الشام:

منطقة تمتد من الفرات شمالاً إلى العريش جنوباً ومن العراق شرقاً إلى بحر الروم (المتوسط) غرباً³، وتتميز بخصوبة سهولها وطيبة هوائها وجودة مراعيها فتغري القادمين إليها بالاستقرار فيها، وقد كثر الاختلاف حول أصل تسميتها فمنهم من يقول أن العرب قد أطلقوا على هذه المنطقة اسم بلاد الشام لوقوعها إلى اليسار من الحجاز⁴ وهناك من يعتقد أن ذلك لوقوعها شمال بلاد الجزيرة العربية كما أن اليمن أيمن الأرض⁵، والبعض يردُّ السبب إلى كونه نسبة إلى سام بن نوح ولفظة سام تلفظ بالسريانية شام⁶، ومهما كان سبب هذه التسمية إلا أنها اتخذت اسم سورية فيما بعد وهي تسمية عربية استعملها البابليون وأطلقوها على إقليم الفرات الأعلى.⁷

ودخلت بلاد الشام أو سورية مجموعات قبلية منذ عهد بعيد وكان تغلغلهم من طرفي البادية الجنوبي باتجاه حوران، ومن طرفها الشمالي باتجاه حلب وقنسرين، وكان من أهم هذه القبائل قبيلة سليح التي أوكل إليها الرومان وظيفة حماية جنوب سورية من غزوات باقي القبائل، كما تواجدت قبائل أخرى

¹ الكيالي: موسوعة السياسة، ج 1 ص 196، 197.

² لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص 159.

³ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 205.

⁴ الحموي: معجم البلدان، ج 3 ص 312، مادة الشام؛ علي (أحمد): تاريخ بلاد الشام، دمشق، دار دمشق، 1994م، ط 3، ص 27.

⁵ ابن شداد (محمد بن علي ت 684هـ/1285م): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح يحيى عبّارة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م، ج 1 ص 18.

⁶ ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج 1 ص 17.

⁷ الحموي: معجم البلدان، ج 3 ص 312، مادة الشام؛ علي: تاريخ بلاد الشام، ص 27.

كلخم وجذام وكلب وقضاة والغساسنة الذين كانوا ساعد البيزنطيين الأيمن في الدفاع عنها ضد المناذرة حلفاء الفرس.¹

4. إقليم الجزيرة:

قسّم العرب بلاد الرافدين إلى منطقة جنوبية وأخرى شمالية وهي التي أطلقوا عليها اسم الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وقد ضمت أراضيها كثيراً من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات من بر الشام لقربها الكبير منها، وهكذا يحدها من الغرب جزء من أرمينية وبلاد الشام، وتطل على قسم من بلاد الشام وبإديتها من ناحية الجنوب، ويجاورها العراق شرقاً وفي شمالها تقع أرمينية.² وكان هذا الاقليم ينقسم الى ثلاثة مناطق عرفت بأسماء القبائل العربية التي سكنتها قبل الاسلام، وهي ربيعة ومضر وبكر (بن وائل)، وتنسب ديار بكر إلى بكر بن وائل وتمتد أقصى إقليم الجزيرة شمالاً وتعد مدينة آمد حاضرتها، أما ديار ربيعة فهي أراضٍ تمتد ما بين ديار بكر وديار مضر وتتألف من الأراضي التي تقع شرقي الخابور وأهم مدنها الموصل وسميت بريجة لأن أهلها كلهم من أبناء ربيعة، وديار مضر تمتد شرق الفرات من سميساط إلى عانة مع السهول التي يسقيها نهر البليخ أحد روافد الفرات.³

5. إقليم أذربيجان:

هو إقليم واسع يحده من الشرق بحر الخزر (قزوين)، ومن الغرب تجاوره أرمينية⁴، ويتميز بطبيعته الجبلية الوعرة حيث يوجد فيه عدة سلاسل جبلية شاهقة الارتفاع وتمتد على مسافات طويلة، ومناخه ذو طابع بارد وغزير الأمطار وأرضه غنية بينابيع المياه، كما يمر خلاله نهران وهما نهر الرس Araxes والكُر Kur ويتواجد فيه بحيرة أورمية Urumia المالحة والتي تصلح للملاحة التجارية.⁵

¹ درادكة (صالح): دراسات في الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، عمان، مطبعة السفير، 2011م، ط1، ص16.

² أبو الفداء (اسماعيل بن علي ت732هـ / 1331م): تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه ماك ديسلان، باريس، الدار السلطانية، 1830م، ص275.

³ الحموي: معجم البلدان، ج2 ص494، مادة ديار بكر وديار ربيعة وديار مضر؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص115.

⁴ الكيالي: موسوعة السياسة، ج1 ص119.

⁵ الحموي: معجم البلدان، ج1 ص128، مادة أذربيجان؛ مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، (ألف سنة 372هـ / 982م)، تح يوسف الهادي، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، 1999م، ط1، ص119؛ بخيت: تاريخ الإسلام في أذربيجان، ص35، 36؛ العبد الغني: أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، ص20.

ونظراً لأهميته خضع إقليم أذربيجان عبر التاريخ لسيطرة العديد من الدول الحاكمة حيث سيطر عليه خلال القرن السادس الساسانيون وجعلوا منه أحد الأقاليم الأربعة الرئيسية التي قُسمت إليها بلاد فارس في عهد كسرى أنوشروان وتخضع تحت إدارة أصبهذ -قائد الجيش- الشمال وهو قائد المنطقة الحدودية¹ ليخضع فيما بعد للمسلمين.²

ثانياً: الجيش البيزنطي واستراتيجيته العسكرية:

احتدمت النزاعات بين الامبراطورية البيزنطية والفارسية الساسانية في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلاديين وهناك الكثير من التساؤلات التي من الهام الإجابة عنها في هذا النطاق قبل الخوض في تفاصيل هذه الحرب لمعرفة كيف تمكّن هرقل من أن ينهض بدولة كانت على وشك الانهيار بل ودفعها لخوض حرب مع عدوها اللدود المتمثل بالامبراطورية الساسانية، فمن الغريب أن ترجح الكفة البيزنطية على الفارسية بعد سنوات من التفوق الفارسي، وللإجابة على هذا التساؤل لا بد من الاطلاع أولاً على فرق الجيش البيزنطي وتكويناته.

1. فرق الجيش:

تم إنشاء الجيش البيزنطي منذ تأسيس العاصمة القسطنطينية، وكل امبراطور يتولى العرش يُدخل على الجيش وعلى نظام التجنيد بعض التعديلات والإصلاحات التي يراها ملائمة لظروف الحياة المستجدة باستمرار، ولكن كان أبرزها ما قام به الامبراطور دقلديانوس (284-313م) الذي فصل السلطة المدنية عن العسكرية في الامبراطورية وأقام قوة منظمة للحدود من جنود يتوارثون الجندية وتُدفع أجوره من إنتاج الأرض، كذلك أوجد جيشاً مركزياً سريع الحركة يكون تحت قيادة الامبراطور بحيث يُستدعى وقت الحاجة إلى أي منطقة من الامبراطورية، وبالتالي يمكن تقسيم الجيش البيزنطي حسب نوع الخدمة وحجم التوزيع ومهامه ومكانه إلى قسمين رئيسيين هما: جيش العاصمة (التاجماتا Tagmata) وجيش الثغور.³

ويتكون جيش العاصمة أو الحرس الامبراطوري من أربع فرق أو أفواج من الفرسان الخيالة مهمتها الدفاع عن العاصمة وسكانها، وقيادتها تكون بيد الامبراطور لتنفيذ أي عملية دفاعية عن الامبراطورية، وأولها هي فرقة الاسكلارية Sculari التي تعدّ من أهم فرق العاصمة وأعلاها مقاماً وأكبرها

¹ فيزهوفر: فارس القديمة، ص234؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص355.

² بخيت: تاريخ الإسلام في أذربيجان، ص46؛ الكيالي: موسوعة السياسة، ج1 ص119.

³ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص42.

عدداً حيث تراوح عدد جنودها ما بين 3500-4000 مقاتل، ويتولى قيادتها الدمستق¹ Domestic كما تتكون معظم قواتها من الفرسان المكلفين بالحراسة ليلاً نهاراً في القصر الامبراطوري الكبير، ويرتدون زياً موحداً فخماً ويعيشون عيشة المواطنين البسطاء.²

وثاني هذه الفرق فرقة الاكسكوبيتر Excubiyor وقد نشأت هذه الفرقة في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي وهي في المرتبة الثانية من حيث الحجم والأهمية، ويقودها القومس Comes للخدمة كجند في المواكب الرسمية للامبراطور كما يصحبونهم في الحرب كفرقة احتياطية.³ وإلى جانب هاتين الفرقتين فرقة الاريثموس Arithmos أي فرقة المراقبة والتفتيش وقد نشأت عام 559م لتقوم بتأمين الامبراطور والقصور الامبراطورية من الخارج كما تخرج بدوريات مسائية في حالات السلم وتحرس سجون الأسرى الأجانب.⁴

أما الفرقة الرابعة فقد نشأت فيما بعد خلال القرن السادس ولكن لم يقتصر الأمر في العاصمة على الفرق الأربعة من الفرسان بل ساندتهم فرقة خاصة لحراسة أسوارها⁵، وفرقة من المشاة ترابط في العاصمة أيضاً وتدعى النوميرا Numerus وتنقسم إلى قسمين ويبلغ تعداد مجموعهما أربعة آلاف مقاتل، ويقودهم دمستق النوميرا.⁶

هذا عن جيش العاصمة أما جيش الثغور فقد أطلقت عليه عدة تسميات منها جيش الأقاليم أو الأطراف أو الثغور، ومهما كانت التسمية إلا أنها تعني مجموعة من الفرق العسكرية رابطة في أقاليم الامبراطورية للدفاع عنها، فيعملون خلال أوقات السلم في أراضي هذه الأقاليم فقد خصصتها الدولة لهم ليعيشوا من مردودها كما يحق لهم توريثها لأبنائهم شرط ألا يتوانوا عن أداء الخدمة العسكرية عندما يعلو النداء مجهزين أنفسهم من عِدَّة وعتاد من مردودها أيضاً، وهذا ما يسمى بنظام الثغور الذي ضمنت الدولة

¹ الدمستق: لقب وظيفي عسكري تاماً، وكان يحمله أرفع الناس مكانة في بيزنطة ممن يعملون في منصب الدمستقية وحسب المفهوم العربي لهذا اللقب فهو يشير إلى قائد مجموعة من الجنود يصل عددهم إلى أربعة آلاف جندي ولا يوجد لهذه الوظيفة مقابل في العربية. منصور (طارق): بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، القاهرة، دار الفكر العربي، 2015م، ط1، ص162، 163.

² أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص49؛ عبيد (طه): تنظيمات الجيش البيزنطي، الموصل، 2005م، ط1، ص23؛ منصور: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، ص184-187، 191.

³ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص26؛ منصور: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، ص197-199.

⁴ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص27؛ منصور: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، ص204، 206.

⁵ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص49؛ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص174.

⁶ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص174؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص29؛ منصور: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، ص215، 216.

من خلاله وجود قوة دائمة في مناطق الحدود جاهزة للدفاع عنها إضافة إلى أنها وفرت على نفسها عبء الإنفاق عليهم في السلم وتكاليف تجهيزهم أثناء الحرب.¹

وقد تواجد في كل إقليم أو ثغر فيلق عسكري يتألف من 10.000 مقاتل يرأسه القائد العسكري الملقب باستراتيجوس، وانقسم هذا الفيلق إلى فرقتين سُميت كل منها بالتورما Turma يقودها قائد يدعى طرمارخ² Tourmarches ووصل عدد جنودها إلى 5000، في حين تألفت كل فرقة من خمسة ألوية يضم كل منها 1000 جندي تحت قيادة طرنجار³ Droungos، وتضمن كل لواء خمس كتائب كل منها تجمع 200 مقاتل ويدعى قائدها بالقومس Comes، وكل كتيبة لها خمس فصائل أيضاً.⁴

وهناك وحدات أخرى إلى جانب الفرسان والمشاة ترافق الجيش إلى الحرب كالأطباء لمعالجة الجرحى ومداواة المرضى، وفرقة المهندسين للمساعدة في إقامة الجسور وبناء الأسوار والأبراج وتحذير الجيش من عقبات أي تصرف، إضافة إلى الاستخبارات والعيون الذين يترتب عليهم خداع العدو وجمع المعلومات عنه كعدد جنوده ونوعية سلاحهم والخطة المتفقين عليها مما يساهم كثيراً في تحقيق النصر.⁵

2. أسلحة الجيش:

تميز تسليح الجيش البيزنطي بتنوعه فكل جندي من الجنود لديه خنجر وسيف وصل طوله إلى 91 سم ويعلق بحزام أو بحمالة على الكتف الأيسر، ويحمل قوساً وسهماً يتراوح طوله ما بين (1.14 متراً - 1.21 متراً)، إضافة إلى الرمح الذي بلغ طوله ما يزيد على ثلاثة أمتار، ومع المشاة بلطة أو فأس ذو فاعلية كبيرة، وهناك الصولجان يعني المطرقة أو المزربة واستخدم هذا النوع من السلاح صنف من الفرسان أول الأمر ثم انتشر استخدامه عند الجند المشاة أيضاً وقد خصص له مكان عند الفارس وذلك بوضعه في جعبة جلدية معلقة بسرج الفرس، وإلى جانب هذه الأسلحة الفردية هناك الأسلحة الجماعية

¹ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص175؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص37، 40؛ العريني (السيد الباز): أجناد الروم، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1956م، ص5، 6؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص137، 140، 141.

Mango: The oxford history of Byzantium, P113.

² الطرمارخ: لقب لقائد عسكري يقود قسماً من قوات الأقاليم وهو أهم شخص يلي قائد الإقليم في الجيش التابع له، كما كان له مرتبة أكبر من مرتبات الضباط الآخرين في الأقاليم. منصور: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، ص176، 177.

³ الطرنجار: لقب لقائد عسكري ظهر في عهد الامبراطور هرقل، ويكون على رأس فرقة تتألف من ألف جندي. منصور: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، ص177، 178.

⁴ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص49؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص163، 164؛ الشامي: الحضارة البيزنطية، ص48؛ العريني: أجناد الروم، ص13.

⁵ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص50؛ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص181، 182، 184؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص16-20.

المستخدمة في فرض الحصار ودك الحصون والأسوار كالنار الإغريقية¹ في المعارك البحرية وكذلك المنجنيقات.²

3. لباس الجنود:

تباين ما ارتداه الجنود البيزنطيون تبعاً للفرقة التي ينتمون إليها فقد قُسم الجيش البيزنطي إلى الفرسان الثقال الذين كانوا يلبسون خوذة من الفولاذ ودرعاً من الزرد³ إضافة لمعاطف من الصوف لتحميمهم من برد الشتاء وكان يوضع علامات على جبهة الضباط وصف الضباط لتمييزهم، والفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة ما يكون من الرماة فيلبس سترة من الزرد أيضاً مع كنانة السهام ومعه أتراس صغيرة الحجم دائرية الشكل.⁴

بينما المشاة ذوو الأسلحة الثقيلة فيلبسون درعاً من الزرد تغطي أنصاف أجسادهم العليا وخوذة فولاذية على رؤوسهم، وكانت أسلحتهم السيف والرمح والبلطة والترس، وكان جندي المشاة ذو السلاح الخفيف يلبس قميصاً من الزرد ويحمل جعبة للسهام وقوساً وترساً صغيراً يعلق على ظهره وفأساً في حزامه.⁵

4. رواتب الجنود:

لقد اختلفت الروايات حول تحديد قيمة لمرتبات الجنود في الجيش البيزنطي ولكن اتفقت أغلبها على أنها تدرجت حسب رتبة الجندي فتقاضى قواد الثغور (ستراتيجوس) في الثغور الشرقية والقواعد البحرية 20 رطلاً⁶ إلى 40 رطلاً من الذهب في العام من الخزنة العامة، بينما تقاضى حكام الثغور الأوروبية رواتبهم من ضرائب أقاليمهم، في حين كان راتب الطرماخ السنوي 12 رطلاً ذهبياً وراتب

¹ النار الإغريقية: تركيبها تصنع من خليط كبريت نقي وحامض الطرطريك والفحم الناري والغاز الخام والنترات ثم يمزج الخليط ويغمس في هذا الخليط نسيج كتان فإذا اشتعلت فيه النار انتشر اللهب في الحال ولا تخدم النيران الا باستخدام الرمل والخل فلا تطفئها المياه. عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص70.

Morgan: Byzantium, P77,78.

² أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص50، 51؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص170؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص63-65، 67، 68؛ العريني: أجناد الروم، ص17؛ الشامي: الحضارة البيزنطية، ص51.

³ الزرد: هو تداخل جلق الدرع بعضها في بعض، وهو من أدوات حماية المقاتلين في الحرب. الرازي (محمد): مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، 1986م، ص114؛ عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص267.

⁴ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص180، 181؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص170؛ العريني: أجناد الروم، ص17.

⁵ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص50؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص72-74.

⁶ الرطل: وحدة لقياس الوزن وهو يساوي 12 أوقية بحيث تزن كل أوقية 12 درهماً. عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص250.

الطرنجار 6 أرطال من الذهب أما القومس Comes فقد بلغ راتبه السنوي ثلاثة أرطال، بينما تقاضى من هم دونه من الضباط رطلين عن عام تجنيده الأول، وتقاضى في العام الثاني اثنين من الصوليدي الذهبي وهكذا حتى يصبح سقف راتبه اثني عشر صوليدياً من الذهب سنوياً، وكانت كتائب المرافقة التي تحرس الامبراطور تأخذ منه مباشرة كثيراً من المال لذلك سعى الأجانب إلى تقديم الرشاوي للمسؤولين كي يفوزوا بالانضمام إلى صفوفها.¹

أما بالنسبة للجندي الفلاح كما ذكر آنفاً فقد قسّمت الدولة الأراضي التي نزل بها الجيش ووزعتها على الجند، بحيث يعيش كل جندي وأسرته من مردودها ويورثها إلى أبنائه بشرط ألا يتقاعدوا عن أداء الخدمة العسكرية في حالة الحرب مجهزين أنفسهم بعتاد كامل وفرس جيد.²

5. الاستراتيجية العسكرية:

الغرض الأساسي من أي حرب هو تحقيق النصر، وطالما هذه هي الغاية فإنها تسوغ اتباع أي استراتيجية في خوض الحروب لتحقيق النصر، ولكن البيزنطيين كانوا يميلون إلى تجنب الحرب من أساسها حيث يروح ضحيتها آلاف الأرواح وكثير من المقدّرات، وخاصة أنها دولة يقوم اقتصادها بشكل أساسي على الزراعة، لذلك اعتمدوا على التكتيك الجيد والاستراتيجية المحكمة قبل خوض الحرب، فدرسوا العدو وخططه وطرق قتاله ونقاط ضعفه وأحاطوا بالعوامل الطبيعية لأرض المعركة واستتبّطوا أفضل الطرق لمقاومتها، كما فضّلوا الدفاع وعدم الاصطدام مع العدو على الهجوم إلا في بعض الحالات التي وصل بها قادة عسكريون إلى سدة الحكم، فهيّؤوا الجيوش وانطلقوا بها إلى ميادين القتال كالامبراطور موريق والامبراطور هرقل، مستخدمين مع العدو ذكاءهم ودهاءهم وإقامة العراقييل وإخفاء الأسلحة وكذلك الاستعانة بالهرب المصطنع والمباغيات والهجمات الليلية والكمائن والمفاوضات وتسريب المعلومات المضللة عنهم للطرف الآخر المعادي وذلك لاستنزاف قوة العدو ودفعه إلى ترك الميدان بأسرع وقت ممكن.³

¹ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص 51، 52؛ رنسيما: الحضارة البيزنطية، ص 170؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص 58.

² العريني: أجناد الروم، ص 18، 19.

³ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص 179؛ رنسيما: الحضارة البيزنطية، ص 168؛ عبيد: تنظيمات الجيش البيزنطي، ص 13-15، 88؛ العريني: أجناد الروم، ص 14-15؛ الشامي: الحضارة البيزنطية، ص 49؛ هالدون: بيزنطة في حرب، ص 9، 35.

Maurice: Maurice's Strategikon, P113.

وجدير بالذكر أن عامل الدين كان أساسياً في الجيش البيزنطي ونظام التجنيد فيه كما هو الحال في المجتمع المدني، فباعثهم أن الامبراطور المختار من قبل الرب يشن حرباً من أجل بقاء الشعب المختار ونصر الامبراطورية المسيحية، فينادي القائد قبل بداية كل حرب على أنها حرب دينية نصرها من الله والهزيمة هي غضب منه على خطايا الناس.¹

وهذه الاستراتيجية العسكرية البيزنطية ستتجلى واضحة في حروب الامبراطور هرقل مع الامبراطورية الساسانية حيث قادته كل تفصيلة من تفاصيل هذه الاستراتيجية إلى النصر المرجو منها.

6. الأسطول:

لم يحظَ الأسطول البيزنطي بعناية كبيرة من قبل الحكومة الامبراطورية وذلك لأن البحر المتوسط كان بحيرة رومانية (بحر الروم) أي أن المستعمرات الرومانية أحاطت به من جميع الجهات فليس هناك من داعٍ للأسطول فاكتفت بما لديها من سفن قليلة ترابط في الموانئ البيزنطية الهامة، وبالتالي أهمل الأباطرة الأسطول إلى أن جاء الامبراطور هرقل وطوره وعمل على تحسينه بسبب تعرض البلاد في عهده لغزوات البرابرة وخاصة السلاف الذين عرفوا بمهارتهم في ركوب البحار، وهذا ما سيتبين أثناء حصار البرابرة الآفار أسياد السلاف للقسطنطينية عام 626م.²

ثالثاً الجيش الساساني واستراتيجيته العسكرية:

أما الساسانيون العدو للدود للامبراطورية البيزنطية فقد قلّت المعلومات عن جيشهم إلا أنه يمكن القول بأن الجيش الساساني كان يخضع في بادئ الأمر لقائد عام واحد يدعى السباهبيذ تشمل وظيفته ثلاث مهمّات وهي وزارة الحرب وقيادة الجيش العليا والقيام بمفاوضات الصلح، كما يعد صاحب هذه الوظيفة أحد المقربين من الشاهنشاه مما منحه السلطة على تنظيم الجيش الملكي وتدبير أموره، وكان بإمكان الشاهنشاه صاحب الخبرة العسكرية التدخل في أمور الحرب متى شاء.³

إلا أن كسرى أنوشروان قام بإصلاحات شاملة للنظام الحربي حيث قسّم بلاده إلى أربعة أقاليم يخضع كل منها لسلطة الأصبهذ، أحدهم للمشرق وخراسان وما والاها، والثاني من العراق حتى حدود

¹ أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص44؛ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص180؛ هالدون: بيزنطة في حرب، ص65، 66.

Maurice: Maurice's Strategikon, P64.

² أحمد: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص52، 53؛ بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص184؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص176.

³ خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص27.

الدولة البيزنطية والثالث لنيمروز وهي بلاد اليمن والرابع لأذربيجان وما والاها من بلاد الخزر، ولكل أصبهذ تابع يدعى المرزبان.¹

ولا يختلف تركيب جيش الساسانيين كثيراً عن تركيب الجيش البيزنطي حيث تتألف بنيته الأساسية من سلاح الفرسان الثقال الذين تتضمن أسلحتهم السيف والرمح والترس والبلطة والفأس أو المخطب وقوسين وكنانة لوضع السهام، ويلبس كل جندي درعاً لحماية الصدر والأذرع ويغطي خيله بدرع آخر حديدي، أما المشاة فهم رماة القوس الذين يحمون أجسادهم بدروع وتروس مطاولة ومقببة مصنوعة من جلود غير مدبوغة²، وهناك المشاة البسطاء الذين يتم تجنيدهم من الفلاحين دون أجر ويعملون كتابعين للفرسان الثقال ويسهرون على حماية عربات التموين ويشاركون في حفر الخنادق وعمليات الحصار وكان سلاحهم الحربة والترس.³

أما تكتيك الساسانيين واستراتيجيتهم في خوض الحروب حسب ما ذكره الامبراطور البيزنطي موريق في كتابه (الاستراتيجية Strategikon) على التخطيط المسبق والقيادة المحكمة فالشجاعة وحدها لا تكفي، فهم يقسمون جيشهم إلى ثلاث مجموعات وسط ويمين ويسار دون تشكيل موحد، ولكن يبقون على وضع الفرسان في الصف الأول من كل فرقة للإيحاء بكثافة العدد وحسن التنظيم، كما يلجؤون إلى إقامة معسكراتهم في مناطق وعرة لأنهم معتادون على التحرك فيها وفي نفس الوقت تعيق هجوم الرماح والسهام الموجه ضدهم، ويعمدون كذلك إلى إنهاء عدوهم بتأجيل وقت الاشتباك إلى أحرّ ساعات اليوم وخاصة خلال فصل الصيف علّ حرارة الشمس تثبط من قوتهم ولا سيما أن الفرس قد عُرف عنهم القدرة على تحمل حرارة الشمس والجوع والعطش في حين يمقتون الجو البارد والأمطار والرياح لأنها تعيق حركتهم وأهداف سهامهم⁴، وخلال المعركة يبدؤون الهجوم بسلاح الفرسان الكثيف بحماية وابل من السهام، وفي قلب الجيش يقف حامل الراية الذي تحميه قوات من النخبة، أما نقطة ضعفهم فتكمن بهرب كل من في الجيش إذا ما سقط القائد أو هرب فمن الممكن أن يستخدم العدو ذلك ضدهم بنشر خبر كاذب فتتملكهم المخاوف ويسلمون أنفسهم للهزيمة مباشرة.⁵

¹ فيزهوفر: فارس القديمة، ص 234؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 355.

² فيزهوفر: فارس القديمة، ص 234.

³ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 352.

⁴ Maurice: Maurice's Strategikon, P113 -115.

⁵ فيزهوفر: فارس القديمة، ص 234، 235.

رابعاً: أسباب الصراع البيزنطي الساساني:

1. الأسباب السياسية والاستراتيجية:

استمرت الحرب الأخيرة بين بيزنطة وفارس اثنا عشر عاماً منذ اجتياح كسرى أبرويز شاهنشاه الفرس لأراضي بيزنطة إلى أن استعادها هرقل منه، ولكن دوافع هذه الحرب لا تعود فقط إلى عهدي هرقل وكسرى أبرويز فقط بل إلى حقب أقدم فلطالما ساد التوتر بين الامبراطوريتين رغم تغير حكامهما فنتج عنه في معظم الأحيان اندلاع حرب لا منتصر حقيقي فيها، وعندما تصاب الامبراطوريتين بالإرهاق يتم توقيع معاهدات سلام أو هدن تعاد خلالها تهيئة القوات وترميم الفجوات وعند اكتمال الاستعدادات تُحرق الاتفاقات بحرب جديدة، وهذا ما تكرر بين الامبراطور البيزنطي جستنيان الأول والشاهنشاه كسرى أنوشروان فعلى سبيل المثال لا الحصر عُقد صلح بين الطرفين عام 532م فتفرغ كل منهما لإصلاح بلاده وجيشه¹ ثم خُرقَت الاتفاقية من قبل كسرى أنوشروان عام 540م بهجومه على أنطاكية² وإنزال الهزائم بالقوات البيزنطية وإرغامها على دفع جزية لفارس.³

ومن هنا يُستنتج أمرين أحدهما يشير إلى ما ساهم به العرب في إثارة الفتن بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، فمن المعروف أن كل منهما قد دعم قوة عربية تعمل لصالحها فكان الغساسنة إلى جانب بيزنطة والمناذرة من طرف فارس، وبطبيعة الحال ونتيجة للفتن التي أثارها الفرس والبيزنطيون بين القبائل العربية لضمان استمرار ولائهما أن تنشأ الصراعات وتحتدم وتستدعي في بعض الأحيان تدخل الدول الكبرى لفضها.

أما الأمر الآخر فإنه يشير إلى أن الحرب بين الامبراطوريتين لم تكن تدار دائماً وفق استراتيجية طويلة الأمد فقط، بل من أجل تحقيق أهداف استراتيجية ومعنوية لها أهميتها الدعائية ولإثبات الأفضلية والتفوق على الخصم، فحينما اضطر كسرى أبرويز إلى الاستنجاد بالامبراطور موريق من أجل استعادة عرشه كانت مساعدته مقابل تنازله عن مدينتي دارا وميفارقين وتعهد به بعدم الاقتراب من الحدود البيزنطية والتوقف عن أخذ الخراج الذي كان يأخذه أسلافه من بيزنطة، ورغم موافقة كسرى أبرويز على الشروط وتنفيذها إلا أنها تعد إهانة له وتقليلاً من شأنه مما دفع كسرى أبرويز إلى تحيين الفرص من أجل استعادة

¹ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص158

² تباينت الآراء حول سبب هجوم كسرى أنوشروان على أراضي بيزنطة فهناك من يعتقد أنه بسبب خلاف العرب على الطريق التجاري الهام المعروف بالاستراتا، بينما يعتقد آخرون أنه بسبب غزو الغساسنة لأراضي المناذرة. بيغوليفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص116، 117؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص64.

³ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص102؛ الفردوسي: الشاهنامه، ص171؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص361، 362.

كرامته باجتياح أراضي بيزنطة¹، ومن نفس المنظور تم تفضيل ساحات قتال على أخرى، وهذا أحد ما دفع هرقل إلى توقيع اتفاقية مع الآفار ريثما ينتقم من الفرس ويستعيد أراضيهم المسلوبة وكرامته المهذورة ولكن بعدما أصلح ما جذب كسرى أبرويز في المقام الأول إلى الهجوم.²

فالوضع الداخلي البيزنطي هو ما ساعد كسرى أبرويز على ذلك إذ شهدت الامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور فوقاس اضطراباً شديداً، حيث سبب بانقلابه على سلفه الامبراطور موريق واغتياله ووصوله بذلك إلى العرش فوضى عارمة واضطراباً شاملاً في البلاد فإلى جانب سياسته الفاسدة وعجزه عن الدفاع عن الامبراطورية أو حتى إدارة أمورها، فقد صعد الصراعات بين الأحزاب السياسية فيها التي نتجت عن التعامل المتذبذب معهم فتارة يحابي الزرق على حساب الخضر وتارة يتقرب من الخضر ويسيء للزرق وأحياناً يعامل الحزبين معاملة سيئة وذلك تبعاً لما تقتضيه مصالحه المختلفة مما أسفر عن صدام جاد بينهما حيث عمت المعارك والمنازعات كل مكان وسفكت الدماء في البيوت وميدان السباق أيضاً.³

إضافة إلى ما سببته غزوات السلاف وآفار لأراضي الامبراطورية البيزنطية من جبهتها الشمالية جنوبي نهر الدانوب من اضطراب عجز فوقاس عن تهدئته، فسلبوا ونهبوا وأقاموا بعض المستعمرات داخلها، مما أدى إلى خروج عدة مناطق عن نطاق نفوذها.⁴

وعندما تعددت الأسباب البعيدة لم يكن على كسرى أبرويز سوى انتظار الفرصة المناسبة لإعلان الحرب على الامبراطورية البيزنطية، تلك الفرصة التي تمثلت باغتيال الامبراطور موريق، فأرسل كسرى أبرويز رسولاً إلى البيزنطيين لإقناعهم بتعيين ثيودوسيوس بن موريق على العرش عوضاً عن فوقاس، ولكنهم وكما هو متوقع قاموا بالقبض عليه وإرساله مقيداً بالأغلال إلى بلاده، وحينما سمع كسرى أبرويز بذلك قرر مهاجمة الأراضي البيزنطية على الفور.⁵

2. الأسباب الاقتصادية:

ورثت الامبراطورية البيزنطية عن الامبراطورية الرومانية موقعها الاستراتيجي المتميز الذي يصل بين طرفي العالم الشرقي والغربي، وكذلك إدراكها لأهمية التجارة في بناء الدول ودوام وجودها، فعنيت

¹ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 148؛ مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل، ج 2 ص 261؛ بيرييا: تاريخ إيران القديم، ص 371.

² هالدون: بيزنطة في حرب، ص 36، 37.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 53، 56؛ عاقل: الامبراطورية البيزنطية، ص 82.

⁴ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 111؛ هسي: العالم البيزنطي، ص 102.

⁵ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 45.

بالطرق التجارية البرية عبر آسيا وأحكمت السيطرة على بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) لأنه يضم المنافذ التجارية المطلّة على بحر إيجة وشواطئ آسيا الصغرى الشمالية والجنوبية وموانئ بلاد الشام ومصر كما نقلت البضائع والمنتجات من أقاصي الشرق إلى الغرب ، ولكنها أهملت مقابل ذلك الطريق البحري التقليدي للامبراطورية الرومانية في تجارتها والذي يمر ببحر القلزم (الأحمر) ويوازي مصر¹، وعلى الرغم من فوائد هذه السياسة الجمة إلا أنها انقلبت عليها عكسياً إذ وُجد لبيزنطة حجر عثرة فيه تمثل بالامبراطورية الساسانية في الشرق حيث أدرك الساسانيون أهمية هذا الطريق وما يدر على بيزنطة من أموال طائلة، فاحتكروا المنتجات الشرقية وخاصة الحرير وفرضوا الضرائب الباهظة عليها قبل وصولها إلى بيزنطة، مما أدى إلى نشوب الصراع بين فارس وبيزنطة واستمراره بسبب إخفاق محاولة الامبراطورية البيزنطية في إيجاد طريق جديد للتجارة يكون بعيداً عن أرض فارس فأُسفر ذلك عن تأثر اقتصادها.²

وقد اشتدت الأزمة المالية أكثر مع اقتراب وصول هرقل للعرش بسبب الهجمات المستمرة لقبائل السلاف والآفار على أراضي الامبراطورية البيزنطية وسلبها ونهبها وفرض سيطرتهم على أجزاء واسعة منها مما حرم الامبراطورية من مواردها، وكذلك اجتياح الفرس للجانب الشرقي من الامبراطورية لم يكن أقل تأثيراً بل أعظمه إذ فقدت بيزنطة بلاد الشام التي تمر بها أهم الطرق التجارية ومصر التي تعد المورد الأول للقمح بالنسبة للقسطنطينية، إضافة إلى اضطراب الامبراطور هرقل أن يدفع جزية مالية لكسرى أبرويز لشراء الصلح معه ووقف تقدمه، فنتج عن ذلك تدهور الوضع الاقتصادي البيزنطي وفراغ خزينة الدولة مما يوفر أقل احتياجات الشعب والدولة على حد سواء، وهذه الضائقة المالية الضخمة التي مرت بها الامبراطورية البيزنطية دفعت الامبراطور هرقل إلى التحرك واستعادة ما فقده من أراضي ومصادر للثروة لصالح ألد أعدائه وهم الفرس الذين قصدوا بهجومهم توجيه ضربة شديدة للتدمير لاقتصاد بيزنطة وللبنى التحتية فيها بقتل الناس واستعبادهم وكذلك بتدمير الحصون والمناطق الحضرية والريفية.³

3. الأسباب الدينية:

مال الفرس إلى عبادة مظاهر الطبيعة فالسما الصافية والضوء والنار والهواء والماء ينزل من السماء جذبت أنظارهم وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهية، ثم تطور أمرهم وجاءت الديانة الزرادشتية التي صقلت ذلك بدين له تعاليمه وأسسها وأصبحت الديانة الرسمية للفرس، وقد نصت على أن للعالم

¹ الشامي: الحضارة البيزنطية، ص76؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص196.

² العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص4-6؛ رنسيان: الحضارة البيزنطية، ص196، 197.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص96، 97؛ هالدون: بيزنطة في حرب، ص37.

أصلين أحدهما للخير وهو (أهورمزدا) وآخر للشر (أهرمان) ولكل من هذين الأصلين قدرة على الخلق وهما في نزاع دائم، ولكن الفوز النهائي لروح الخير، وأن الهواء والماء والنار والتراب عناصر طاهرة يجب ألا تنجس، وكان لكل منها قدسيتهما إلا أن للنار المكانة الأعظم في الدين الزرادشتي، حيث كان من مظاهر تقديسها أن اتخذتها كرمز وأقامت لها بيوت نار رمزاً للوحدة الملكية والدينية رمز الملكية الساسانية التي قويت بتحالفها مع رجال الدين.¹

أما الامبراطورية البيزنطية فقد قامت الديانة المسيحية - كما سلف ذكره - على الاعتقاد بوجود ثلاثة أقانيم تتحد في الجوهر وهي الأب والابن والروح القدس، واتخذتها ديانة رسمية لها 313م بعد عهود من الاضطهاد لمعتنقيها ومع مرور السنوات ظهرت مذاهب أخرى تختلف مع المذهب الأول فعادت هرطقات خارجة عن الحق، ولكن ارتفع شأن هذه المذاهب وأصبح لكل منها فئة من الشعب تؤيدها إلى أن تطور الموقف ونشب الصراع بينها، ولحل الخلاف جرت عدة مجالس عالمية لمناقشة الأمر واعتماد ما يرضي الجميع إلا أنها فشلت جميعاً في تحقيق ذلك، فساد في النهاية المذهب الأرثوذكسي في كل أرجاء الامبراطورية عدا مصر وبلاد الشام اللتان دانتا بالمذهب المونوفيزتي.²

وقد استغل أعداء الامبراطورية هذا التفكك الاجتماعي لإدراكهم المسبق لما يمكن أن يسببه من ضعف في الدولة عموماً، فطالما رعى الفرس المسيحيين ومنحهم حق ممارسة شعائرهم الدينية منذ ظهور المسيحية إلى أن تم إعلانها الديانة الرسمية للامبراطورية البيزنطية، حيث تغيرت المصالح وأصبح المسيحيون في فارس أعداءً للدولتين على حد سواء، إذ نظرت لهم بيزنطة على أنهم أتباع لها يعيشون في كنف العدو، بينما هم في الوقت نفسه عند الفرس رعايا يعتنقون دين العدو فتعرضوا بسبب هذا لكل سوء³، وما حصل في عهد الشاهنشاه شابور الثاني (310-379م) أبرز مثال على ذلك حيث أمر في عام 340م بجباية الضرائب من المسيحيين ضعف ما يجبيه من المواطنين الآخرين كما لحق ذلك ابتداءً من عام 344م أربعين عاماً من الاضطهاد الشديد لدرجة إطلاق تسمية الاضطهاد الأربعيني على هذه السنوات المريرة، إذ تم خلالها القضاء على حياة آلاف المسيحيين ونهب أموالهم ومصادرة أملاكهم وتدمير كنائسهم وإزالتها من الوجود، ولربما كانت هذه الإجراءات عائدةً لغيرة وحقد رجال الدين الزرادشتيين بسبب انتشار هذا الدين الجديد في فارس بسرعة واحتلال أتباعها لمكانة رفيعة في البلاط الرسمي ببسر وسهولة،

¹ خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص32، 34؛ الموحى (عبد الرزاق): العبادات في الديانات القديمة، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، ط2، 2007م، ص52، 53.

² العريني: الدولة البيزنطية، ص43؛ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6 ص631.

³ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص340؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص121، 122؛ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2 ص628؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص469، 470.

لذلك استمر الظلم عليهم على مر القرون إلى أن انقسمت المسيحية نفسها إلى مذهبين متعارضين، فاتبع مسيحيو فارس المذهب النسطوري المخالف للمذهب الأرثوذكسي الرسمي للامبراطورية البيزنطية، كما أصبحت السياسة الساسانية تجاههم رهناً للانتصارات العسكرية فتارة يستغل بعض الحكام الفرصة بدعم هؤلاء النساطرة ومنحهم الحماية التامة وحق التبشير بمذهبهم، وتارة أخرى يقسون عليهم كما فعل الشاهنشاه كسرى أبرويز الذي أعدم عدداً من المسيحيين النساطرة ومنعهم من انتخاب ممثل عنهم في كنائسهم لمدة عشرين عاماً، في حين سمح بأن تقام في قصره مناظرة كلامية بين المونوفيزيتيين والنساطرة ودعمها حتى النهاية¹، كما أظهر تسامحاً دينياً كبيراً مع المونوفيزيتيين في المدة التي سيطر بها على بلاد الشام ومصر (611-628م)، وطرد رجال الدين الأرثوذكس من مناصبهم وعاشوا حياة يُرثى لها في ظل حكمه، ولهذا كان اعتقاد هرقل بأن إعادته للصليب المقدس بعد حروبه الطويلة مع الفرس سيعيد الوحدة للصف المسيحي ويجعل منهم قوة واحدة يستعين بهم على أعدائه لا العكس².

خامساً: اجتياح كسرى الثاني أبرويز أراضي الامبراطورية البيزنطية (603م):

إنَّ ما وصلت إليه الامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور فوقاس (602-610م) من ضعف واضطراب دفع الناس إلى عزله وتعيين هرقل ابن أرخون قرطاجة امبراطوراً جديداً للامبراطورية (610-641م) علَّه ينقذ ما تبقى من أراضيها ويستعيد ما فرط به فوقاس جراء ضعفه، وخاصة أن الشاهنشاه الساساني كسرى أبرويز (590-628م) لم يكن ليفوت هكذا فرصة للإطاحة بالذَّ أعدائه ولا سيما بتوفير بعض المبررات كالفوضى الداخلية في بيزنطة والتي نجمت عن اغتيال الامبراطور موريق (582-602م) - الذي أنقذ كسرى أبرويز من انقلاب أوشك أن يطيح بحكمه - على يد خليفته الامبراطور فوقاس، إلى جانب استتجاد ابن الامبراطور موريق بكسرى أبرويز وطلبه للمساعدة في استعادة عرش أبيه، فاتخذ من ذلك ذريعة للتدخل في الأمور البيزنطية مستترّاً على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا الهجوم كالعداء القديم الأزلي بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية للسيطرة على تجارة الحرير المربحة وطُرُقها وما يترتب عليه من خلافات على مناطق الحدود، وهذا ما سيتبين جلياً من مجرى الأحداث التالية، ومهما يكن

¹ بيغوليفسكيا: ثقافة السريان في العصور الوسطى، ص 276، 277، 282، 305؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 94؛ زغلول (الشحات): السريان والحضارة الإسلامية، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م، ص 98؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 121، 122؛ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 2 ص 628؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 469، 470.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 143، 144، 146، 147.

من سبب فقد هيا كسرى أبرويز جيوشه لتغزو الأراضي البيزنطية¹ واختار لقيادتها أفضل رجاله المعروف شهربراز (خنزير الدولة)² Shahrbaraz والذي انطلق برفقة ثيودوسيوس Theodosius بن الامبراطور موريق على رأس جيش جرّار توجهوا به نحو أرمينيا³.

وكانت أولى المدن التي وصل إليها مدينة دارا عام 603م التي انتظر فيها عدة أيام ريثما أتى كسرى أبرويز نفسه إليها حيث قسّم الجيش إلى قسمين كلّف أحدهما بحصار دارا بينما يقود بنفسه القسم الآخر ويتوجّه به نحو مدينة الرّها، وحين لم تنفع محاولة الامبراطور فوقاس لشراء رضى كسرى أبرويز بالطرق السلمية أرسل قائده جيرمان German على رأس جيش بيزنطي ليمنعه من دخول الرّها، ولكنه لم يكن على قدر المهمة الموكلة إليه إذ أنزل كسرى أبرويز بهم أفدح الخسائر وأعمل فيهم القتل والتكيل، فقتل من قُتل وهرب من هرب وفتحت المدينة أبوابها للشاهنشاه الساساني، ليعود بعد ذلك إلى مدينة دارا لكي يساعد جيشه الباقي هناك في حصارها الذي استمر لما يقارب عاماً ونصف إلى أن ضاقت المدينة ذرعاً بالحصار واستسلمت للمحاصرين وفتحت أبوابها لهم عام 605م ، فعاد كسرى أبرويز إلى عاصمته طيسفون مُحملاً بالغنائم والأسلاب، وأمام هذه الهزائم استسلم فوقاس لمصير الأحداث راضياً بما سيؤخذ من أراضيه دون إبداء أية مقاومة⁴.

ثم ألحق كسرى أبرويز سيطرته على دارا والرّها بهجمات متلاحقة على مدن أرمينيا المختلفة ما بين عامي (603-608م) بقيادة دجوان فاه Djouan-veh والقائد داتويان Datoyean وأسفر عنها وقوع الجزء الأكبر من أرمينيا تحت السيطرة الفارسية، كما أرسل قائده الشهير شهربراز إلى بلاد ما بين النهرين عام 606م وحاصر آمد ثم انتقل بجيوشه إلى آسيا الصغرى وفرض نفوذه على قيصرية في قبادوقيا⁵ ومنها تقدّم حتى طرق أبواب خلدونية¹.

¹ الدينوري: الأخبار الطوال، ص106؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص44؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج1 ص110؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص69؛ شينية: تاريخ بيزنطة، ص54؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص153؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص71؛ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص430.

² لقب شهربراز بخنزير الدولة ليدل على براعته في القيادة العسكرية وشخصيته الحربية، لأن الخنزير كان يمثل النصر في الديانة الزرادشتية.

<https://en.wikipedia.org/wiki/Shahrbaraz> 10.4.2019

³ كريستسن: إيران في عهد الساسانيين، ص431.

⁴ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص44-47؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص69.

⁵ قبادوقيا: إقليم في آسيا الصغرى يحدها من الشرق نهر الفرات والمرتفعات الأرمينية، ومن الغرب ملاطية الشرقية ومن الشمال يجاورها إقليم بنطس وفي الجنوب يوجد جبال طوروس.=

وفي ظل هذه التطورات لم يجد أهل القسطنطينية بُدّاً من عزل الامبراطور العاجز فوقاس وتعيين هرقل امبراطوراً جديداً للبلاد، فقام فور اعتلائه للعرش بقتل فوقاس وإنهاء فلول نظامه الفاسد، كما عمل على تحسين الأوضاع الداخلية في البلاد وإصلاح النظام العسكري والإداري وتنشيط الاقتصاد فيها إضافة إلى عقد معاهدة مع الشعوب الشمالية التي تهدد القسطنطينية أيضاً من قبائل السلاف والآفار فدفع بمقتضاها مبلغاً كبيراً من المال وبعث إليهم برهائن وكل ذلك من أجل أن يتفرغ للخطر الأكبر وهو الخطر الفارسي الساساني في الشرق²، في حين كان كسرى أبرويز قد أصدر أوامره إلى قادته بالتحرك فانطلق شهربراز وتمكن من احتلال مدينة أنطاكية في صيف عام 611م واستطاع فرض نفوذه عليها، رغم ما تتمتع به هذه المدينة من موقع حصين تحيط به الجبال من جهتي الجنوب والشرق ومجرى نهر العاصي من الغرب ومن الشمال أحاطت بها مستنقعات وأحراش فضلاً عن وجود قلعة حصينة في داخلها يصعب الاستيلاء عليها، ولكن الاضطراب الذي كان فيها إزاء ثورة اليهود مكّنه من دخولها فأخذ منها الأسرى وأرسلهم إلى فارس كما قتل بطريك المدينة المسيحي، مما يعد أول ضربة يوجهها الفرس للمسيحية لأن انطاكية كانت تمثل ثالث مدن العالم في عصر الامبراطورية الرومانية وفيها أُطلق على أتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين وفيها أسس القديس بطرس³ أول أسقفية له⁴، ومن أنطاكية توجّه شهربراز جنوباً نحو الداخل الشامي فدخل أرامية وحمص ثم دمشق عام 613م ومن بعدها اتجه شمالاً واستولى على مدينة

=https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D9%88%D9%83%D9%8A%D8%A7#cite_note-2 10.4.2019

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 46-47.

² ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص 136؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 71؛ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 66، 67؛ أبو الجدايل: الامبراطورية البيزنطية، ص 175؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 61؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 78؛ عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص 124؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 117، 118.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P100.

³ القديس بطرس: هو أحد الرسل المبشرين بالمسيحية إلى العالم يعود الفضل إليه في تأسيس كنيسة أنطاكية ورعايتها عدة سنوات ولكنه لم يمكث فيها بل استمر بالتجوال شأنه شأن جميع الرسل الآخرين. رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية، ج 1 ص 19، 20.

⁴ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 199؛ الحموي: معجم البلدان، ج 1 ص 267، مادة أنطاكية؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 207-208؛ داوودي: أنطاكية القديمة، ص 18؛ زكار، اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 107، 116؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 118.

طرسوس¹ وقلعتها الحصينة فأخرج بذلك أرمينيا عن النطاق البيزنطي ثم قيسارية الشام² وذلك دون مقاومة تذكر.³

وما فاق أثر السيطرة على مدن بلاد الشام إلا دوي سقوط بيت المقدس، حيث ظهر الفرس عند أسوارها عام 614م وأرسل قائدهم رسلاً إلى حاكم المدينة يطالبه بتسليمها وعندما عجز عن المقاومة فتح الأبواب وسلّم المدينة للقوات الفارسية، ولكن بعد شهور قليلة قام الأهالي بثورة على الحامية الفارسية وقتلوا رجالها مما استدعى مجيء شهربراز بجيشه الأساسي بكل غيظه وحنقه، فدخل المدينة واستباحها وجعلها عرضة للحريق ثلاثة أيام، كما دمر جنوده كنائسها ومقدساتها واستولوا على خزائنها وأموالها وكان أهم ما سلبوه خشبة الصليب المقدّس، على الرغم من أن نصارى المدينة قد أحكموا إخفاءه ولكن الفرس استخدموا طرق تعذيب مروعة في حقهم مما دفعهم للاعتراف بمكانه، وإمعاناً في المذلة أسروا بطريرك المدينة زكريا وأرسلوه مع الصليب المقدّس إلى عاصمة الفرس طيسفون.⁴

ولم يكتفِ الفرس بما سيطروا عليه من أراضي بيزنطية بل أكملوا طريقهم إلى مصر خلال خريف عام 616م فاستقبلهم سكانها ورحبوا بهم، حتى وصلوا إلى الاسكندرية التي صمدت بعضاً من الوقت لحصانتها واتصالها بالبحر ووجود حامية بيزنطية فيها ولكنها لم تكن كافية لأن هرقل قد سحب عدداً وفيراً

¹ طرسوس: هي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. الحموي: معجم البلدان، ج 4 ص 28، مادة طرسوس.
² قيسارية الشام: بلد على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) تعد من أعمال فلسطين. خسرو: سفر نامه، ص 65؛ الحموي: معجم البلدان، ج 4 ص 421، مادة قيسارية الشام.

³ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص 103؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 69، 75؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 149؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص 431؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 102

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P430. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P168. Gregory: A history of Byzantium, P160. Haldon: Byzantium in the seventh century, P42. Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P77. Mango: The oxford history of Byzantium, P54. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P95.

⁴ المقدسي: البدء والتاريخ، ج 4، 158، 159؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 148؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج 2 ص 212؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص 103؛ شينيه: تاريخ بيزنطة، ص 54؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 72؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 118؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 150؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص 153؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 102.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P431. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P168. Gregory: A history of Byzantium, P160. Haldon: Byzantium in the seventh century, P43. Kaegi: Heraclius emperor of Byzantium, P79. Mango: The oxford history of Byzantium, P53. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P95. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P3.

منهم للدفاع عن العاصمة القسطنطينية والدفاع عن مناطق أخرى أكثر أهمية غير مدرك لحجم الخسائر التي نجمت عن خروج مصر من دائرة نفوذهم إذ كانت مصر مصدر القمح الأول والموارد الأساسي للامبراطورية ومنبعاً بشرياً مما أدى إلى ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية في العاصمة.¹

ويرى الباحث في خضوع بلاد الشام ومصر بما فيها من مدن للفرس، احتمالية ألا يكون ذلك ناتجاً عن مجرد ضعف في المقاومة، فربما يكون هذا الضعف مقصوداً لمساعدة الفرس في دخول بلادهم والسيطرة عليها علّ ذلك يخلّصهم مما كانوا يعانون منه من اضطهاد ديني وغيره، وقد ساعد على ذلك عجز بيزنطة عن حماية مقدساتها مما أسقط هيبتها من أعين رعاياها.

وفي الوقت الذي أرسل فيه كسرى أبرويز قائده شهربراز للهجوم على بلاد الشام، أرسل أيضاً في العام نفسه 611م قائده شاهين Sahin نحو قيليقيا Cilicia² بأربع وعشرين ألف رجل لكي يحمي ظهر شهربراز، ولكنه توسّع ليسيطر على جميع آسيا الصغرى مبتدئاً من قبادوقيا حيث نجح في السيطرة على أهم مدنها خلقدونية حيث وصل مضيق البوسفور والشاطئ المقابل للقسطنطينية، وهناك اختلاف حول المدينة التي عسكر فيها الجند فيقول البعض أنها خلقدونية³ بينما يؤيد آخرون أنها كريسوبوليس Chrysopolis (اسكودار Uskudar)،⁴ ومهما كان من أمر فقد أرسل الفرس من مكانهم غارات بحرية

¹ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 1 ص 182؛ ابن البلخي: فارس نامه، ص 95؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 155؛ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص 135؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 76؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص 72؛ الكعبي: الدولة الساسانية، ص 154، 153؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 150؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 103-104؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P432. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P168. Mango: The oxford history of Byzantium, P55. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P95. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P3. Whittow. M: The making of Orthodox Byzantium, P76. Vasiliev: History of the byzantine empire, volume1, P196.

² قيليقيا: اقليم قديم في جنوب شرق اسيا الصغرى بين البحر المتوسط و جبال طوروس.

<https://arz.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D9%8A%D9%84%D9%8A%D9%83%D9%8A%D9%87> 15.4.2019

³الدينوري: الأخبار الطوال، ص106؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص182؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص155؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص24؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص226؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص71؛ كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص431؛ اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص94.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P429. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P95.

⁴ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص165؛ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص67؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص119؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص186.

إلى القسطنطينية بغية إسقاطها ولكن قوتهم البحرية لم توازِ عراقية وخبرة الامبراطورية البيزنطية في الأعمال البحرية فلم تتمكن من هزيمتها، وإلا لسقطت بيزنطة قبل موعد سقوطها الفعلي بثمانية قرون.¹ إن هذه الحرب التي خاضها الفرس والبيزنطيون أعمت بصائر كل منهما وشغلتهما عن إدراك خطورة ما كان يحصل في الجزيرة العربية وبالتحديد مكة المكرمة في الوقت نفسه، إذ شهدت هذه المنطقة ظهور دين جديد يدعو للتوحيد وهو الدين الإسلامي متمثلاً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم والذي ضمَّ إلى جانبه خلال بضع سنوات عدداً قليلاً من الرجال ليتحملوا جميعاً أذى المشركين من أجل ترك هذه العقيدة الجديدة ولكنهم تمسكوا بما آمنوا في سبيل بناء القاعدة الأساسية للأمة ثم للدولة التي ستعز عرش كبرى الامبراطوريات وتكون سبباً في تدوين نهايتها.

سادساً: حروب هرقل المضادة ضد فارس:

لم يقف هرقل مكتوف الأيدي كما فعل سلفه الامبراطور فوقاس أمام التجاوزات التي تطال بلاده بل أعدَّ خطة توصله إلى النصر الذي يريده، فبدأ أولاً بإصلاح الداخل البيزنطي اقتصادياً حيث عمل على تشجيع زراعة القمح داخل الأقاليم التي مازالت ضمن نطاق النفوذ البيزنطي إضافة إلى الدور الكبير الذي قام به رجال الدين المسيحيون إذ قدّموا للامبراطور هرقل كنوز الكنائس وجواهرها من أجل صهرها وتمويل حرب يستعيد بها أراضي الدولة وهيبتها، وذلك إلى جانب تغييراته الإدارية والعسكرية والسياسية كإنشاء نظام الثغور وتوحيد الأحزاب المتخاصمة في العاصمة² وزيادة الاعتماد على سلاح الفرسان³ ثم بدأ بمجموعة من الحملات المتلاحقة بغية تحقيق هدفه.

1. استعادة آسيا الصغرى 1هـ/622م:

وعندما تحققت لدى هرقل كل الأسباب التي تدعوه للانطلاق بدأ حملته الأولى وغادر العاصمة لاستعادة أراضي عام 1هـ/622م وجعل البطريرك سرجيوس والبطريق بونس Bonus وصيَّين على ولده الصغير أثناء تغيبه عن العاصمة وتوجه بجيشه إلى أرمينيا كي لا يلتحم بمعركة مباشرة مع الفرس في مناطق تمركزهم الأساسية في آسيا الصغرى، فما إن دخل تخوم أرمينيا حتى واجهته كتيبة فارسية استطاع التغلب عليها، ولكن بحلول بداية الشتاء تقابل مع الجيش الفارسي وجهاً لوجه وهذا ما كان يخشاه، فأكمل

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص209؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص165؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص119.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص109؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص104؛ ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص61؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص123، 124؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص70؛ غنيم: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص39، 40؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص104، 105.

Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P169.

³ Ostrogorsky: History of the byzantine state, P101.

طريقه باتجاه منطقة بونطس¹ Pontus شمال آسيا الصغرى وتظاهر بأنه سيقضي الشتاء هناك مما أسفر إلى انخداع الفرس وانسحابهم، لذلك عندما عاد هرقل أدراجه لإكمال طريقه نحو بلاد فارس عبر أرمينيا فما كان من القائد الفارسي شهربراز إلا أن ترك الشمال الغربي القريب من القسطنطينية وترك تهديده لها من أجل اقتفاء أثر الجيش البيزنطي، وتوارى في منطقة التلال وأخذ يقوم بمناوشات متتالية معهم مدة خمسة عشر يوماً إلى أن اضطر الفرس إلى الالتحام في معركة مباشرة معهم، فتظاهر البيزنطيون بالهرب منهم مما أرغم الفرس للخروج من كمائنهم واللاحق بهم، فانقض عليهم البيزنطيون بسرعة أجبرت الفرس على الانسحاب والفرار، ولكن طاردهم البيزنطيون وشتتوا شملهم وقضوا عليهم²، ورغم هذا النصر الحاسم اضطر الامبراطور هرقل إلى ترك الجيش في الميدان والعودة إلى القسطنطينية لتجديد المعاهدة مع الآفار ورفع قيمة الجزية التي يدفعها لهم لأنهم نقضوا المعاهدة التي كانت بينهما وكانوا على وشك مهاجمة العاصمة البيزنطية.³

والجدير بالذكر أن هرقل قبل مغادرته أرض الميدان ورغم الانتصار الذي حققه على القوات الفارسية عرض على كسرى أبرويز الصلح فردّ عليه بأغلظ الألفاظ وأساليب الرفض وقال له إنه لن يقوم بذلك حتى ينكروا عبادة الصليب ويعبدوا الشمس مما يعني الاستهزاء بجيشه ودينه المسيحي.⁴ ويتبين للباحث أن قام به الامبراطور هرقل برهن على مدى حنكته العسكرية فإن هجومه على منطقة لم يكن يتوقعها الفرس وهي أرمينيا عوضاً عن آسيا الصغرى دفع بالفرس إلى تركها لحماية أرمينيا

¹ بونطس: منطقة تقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود.

<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%B7%D8%B3>
17.4.2019

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 237-239؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص 105؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص 165؛ السيد: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 64؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 79؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص 25؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P435. Gregory: A history of Byzantium, P160. Morgan: Byzantium, P72. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P101.

³ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 183؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 124، 125؛ عمران: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 72؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 152؛ فرح (نعيم): تاريخ بيزنطة السياسي، دمشق، مطبعة طربين، 1978م، ج 1 ص 207؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 105.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P101. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P78.

⁴ Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P439. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P168. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P101,102.

مما أدى إلى هزيمتهم وخروج كل من آسيا الصغرى وأرمينيا من منطقة سيطرتهم، وهنا تتجلى استراتيجية بيزنطة في خداع خصمها وعدم مواجهته بشكل مباشر.

2. غزو غزنك¹ 2 Ganzak هـ/623م:

استغل شهربراز غياب الامبراطور هرقل بإعادة تعبئة جيشه وتهيئته من جديد وانطلق به مجدداً نحو مدينة خلقدونية، بينما لم يبدد هرقل جهوده على قتال شهربراز من جديد بل توجه عام 2 هـ/623م إلى مدينة ساتالا² Satala وتزود بالرجال والمقاتلين ثم قصد أرزن روم³ Erzurum وسيطر عليها ومنها انتقل إلى مدينة دفين Dvin وأضرم النيران فيها، ونظراً لما وجده الشاهنشاه كسرى أبرويز من سرعة تقدم هرقل في بلاد فارس جمع جيشاً ضخماً تحت قيادة شاهين ووجهه لقتال هرقل، كما بعث برسالة للقائد شهربراز يأمره فيها بالعودة من خلقدونية للمشاركة في القتال مباشرة ولكن وقعت هذه الرسالة بيد الامبراطور هرقل الذي غير فحواها لما يضمن بقاء شهربراز في خلقدونية وعدم مجيئه للقتال.⁴

وريثما يصل القائد شاهين بالجيش سار كسرى أبرويز على رأس أربعين ألفاً من الجنود وتمركز في مدينة غزنك فأتى إليه هرقل مسرعاً بجيشه الجرار يتقدمه بعض العرب الذين يستطلعون له الأوضاع فالتحموا مع حرس كسرى أبرويز وقتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر، مما أفزع كسرى أبرويز ودفعه للفرار والهرب تاركاً المدينة والجيش لمصيرهما، فما لبث البيزنطيون أن دخلوها دون مقاومة ودمروا بيت النار الشهير فيها انتقاماً لما فعله الفرس في بيت المقدس، كما لاحقوا كسرى أبرويز إلى مدينة تبريز Tabriz جنوب أذربيجان وأحرقوها عن بكرة أبيها واستمروا بمطاردته من مكان إلى آخر حتى حل الشتاء

¹ غزنك: عاصمة إقليم أذربيجان وتعد من المراكز الدينية الرئيسية في بلاد فارس، حيث يقال أنها مكان ولادة زرادشت نبي الزرادشتيين. اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص243.

² ساتالا: قرية صغيرة تقع في الأناضول (تركيا) شمال الفرات بمسافة صغيرة.

<https://en.wikipedia.org/wiki/Satala> 18.4.2019

³ أرزن روم: مدينة مشهورة قرب بحيرة خلاط (فان Van) ولها قلعة حصينة وكانت أعمر نواحي أرمينية. خسرو: سفر نامه، ص51؛ الحموي: معجم البلدان، ج1 ص150، مادة أرزن روم.

⁴ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص105، 106؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص79، 80؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص153، 154؛ فرج: تاريخ بيزنطة السياسي، ج1 ص207؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص105.

Ostrogorsky: History of the byzantine state, P102.

وغادر هرقل نحو نهر الرس¹ ليقضي الشتاء هناك، فاتصل ببعض القبائل القوقازية علّها تمده بالمقاتلين، فكان له ما أراد وانضمت إليه بعض القبائل التي شاركتها في صدّ بعض الغارات الفارسية على مدى سنتين 3-4هـ/624-625م إذ لم يحرز الامبراطور البيزنطي خلالهما أي تقدم يذكر داخل الأراضي الفارسية.²

وتعود أهمية هذه الحملة إلى كونها جعلت من الامبراطور هرقل سيداً على أرمينية الفارسية وعلى أذربيجان وفتحت أمامه باب الدخول إلى بلاد فارس على مصراعيه.

3. الحصار الفارسي الآفاري للقسطنطينية 5هـ/626م:

حاول شاهنشاه الفرس أن يعرقل تقدّم الامبراطور هرقل بشتى الطرق فعمل على خطة كان هدفها إرغام الجيش البيزنطي على الانسحاب من الأراضي الفارسية لحماية عاصمتهم، إذ أمر كسرى أبرويز قائده شهربراز بشن هجوم على القسطنطينية بالتعاون مع الآفار الذين نقضوا معاهدتهم مع الامبراطور هرقل وأعلنوا تأييدهم للفرس، فأقام شهربراز معسكره في خلقدونية على شاطئ البوسفور وحاصر العاصمة القسطنطينية من الشرق بينما حاصرها الآفار الذين بلغ عددهم 80 ألف مقاتل من ناحية الشمال يساعدهم في ذلك أتباعهم من الجيوت والبلغار Bulgars والسلاف، حتى أن هؤلاء البرابرة كان باستطاعتهم رؤية الفرس المتمركزين في آسيا عبر الماء، وهكذا حُوصرت العاصمة ثلاثة أشهر حزينان وتموز وآب من عام 5هـ/626م حاول خلالها البطريك سرجيوس الأول (Sergius I 17هـ/610-638م) أن يتوصل إلى اتفاق سلمي مع الآفار ولكن دون جدوى إذ أرسل إليهم رسالة يطالبهم فيها بالاستسلام: "أريد ان يغادر المدينة جميع سكانها بقمصانهم ومعطفهم فقط، فأنتم لا تستطيعون أن تنقلبوا سمكاً فتغوصوا في البحر ولا طيوراً فتطيروا في البحر"³، فما كان لدى سرجيوس وهو القيّم على المدينة في غياب

¹ نهر الرس: ينبع من أرمينيا وينحدر من الهضاب الداخلية ويلتقي بنهر الكور ويصب في بحر قزوين. ابن رسته (أحمد ابن عمر ت نحو 300هـ/912م): الأعلام النفيسة، ليدن، مطبعة بريل، 1891م، ج 7 ص 89؛ العبد الغني: أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، ص 20.

² اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 241-244؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 110؛ السيد: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 64؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 125، 126؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 72.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P439. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P169. Gregory: A history of Byzantium, P160. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P102.

³ فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ج 1 ص 208.

الامبراطور سوى التضرع والصلاة وبث الحماس الديني في نفوس أهل المدينة، والاعتماد على حامية المدينة والأسطول.¹

وعندما طالّت مدة الحصار استعان الآفار بحلفائهم السلاف لخبرتهم الواسعة في المواجهات البحرية من أجل شن أكثر من هجوم بحري على العاصمة البيزنطية، ولكن رغم استخدامهم لجميع أدوات الحصار لم يتمكّنوا من الانتصار على الأسطول البيزنطي والذي ألحق بهم أشد هزيمة وكبدهم خسائر فادحة، فما كان أمام من خرج سالماً من هذا الهجوم إلا الهرب قبل أن يقضي عليهم البيزنطيون جميعاً، وهكذا أخفق الآفار في الحصار وعادوا إلى بلادهم وأسرع الفرس بقيادة شهربراز بالانسحاب من خلقدونية.²

ويُستنتج مما سلف أنه على الرغم من إهمال الامبراطورية البيزنطية لإسطولها وما عُرف به السلاف من المقدرة البحرية وبراعتهم في استخدام قواربهم، إلا أنهم لم يستطيعوا الانتصار والتفوق على الأسطول البيزنطي العريق سيد البحر.

4. معركة نينوى³ Nineveh 627هـ/م:

أراد كسرى أبرويز أن يشنت قوات هرقل على جبهتين علّ ذلك يضعفه ويحيط من قوته، ففي الوقت الذي أمر فيه شهربراز بحصار القسطنطينية مع الآفار حشد جيشاً كانت عناصره من الأجانب والغرباء والمواطنين والخدم ومن كل الأجناس والطبقات، ودعمهم ببعض القوات النظامية وأرسلهم لقتال الامبراطور هرقل الذي ما إن علم بالأمر حتى قسّم جيشه إلى ثلاثة أقسام يذهب أولهم إلى العاصمة للدفاع عنها والآخر سخره لمهاجمة شاهين تحت قيادة أخيه ثيودور أما القسم الثالث من الجيش فجعله

¹ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص137؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص165؛ السيد: تاريخ الدولة البيزنطية، ص65؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص26؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص73؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص166.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P446. Haldon: Byzantium in the seventh century, P44,45. Morgan: Byzantium, P72. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P102. Vasiliev: History of the byzantine empire, volume1, P197. Vlasto: The entry of the Slavs into Christendom, P5.

² أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص107؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص80، 81؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص127؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص74؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص154؛ فرج: تاريخ بيزنطة السياسي، ج1 ص208.

Maurice: Maurice's Strategikon, P120,121. Gregory: A history of Byzantium, P161. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P79.

³ نينوى: قرية قرب الموصل يمر بينهما نهر دجلة، وهي بلاد عامرة فيها ثمار كثيرة، يذكر أن كثيراً من الأنبياء مروا خلالها كالنبي أيوب ويونس، الحموي: معجم البلدان، ج5 ص339، مادة نينوى؛ الحميري: الروض المعطار، ص585.

تحت إمرته وذهب معه إلى منطقة لازيكا وأقام حلفاً مع الخزر هناك مقدماً الهدايا والوعود لخانهم زيبل Ziebil الذي قدّم له 40 ألفاً من أقوى رجاله للمساعدة، وفعلاً تمكن الجيش البيزنطي وحلفائه من السيطرة على مدينة تفليس¹ Tiflis بعد طول حصار، ثم عبر نهر الرس والتقى بجيش أخيه ثيودور الذي كان قد هزم القائد الفارسي شاهين² وانطلقوا معاً وأغاروا على بلاد فارس ومعهم الخرز فوصل عددهم إلى 110 آلاف مقاتل، فأرسل كسرى أبرويز جيشاً يُقدر عدده 12 ألف مقاتل بقيادة رازاتوس Rhazatus ضدهم، وبذل أقصى جهده لكنه لم يتمكن من عرقلة تقدّم هرقل ومنعه من التوجه جنوباً نحو نينوى Nineveh حيث أقام معسكره هناك بينما لحقه رازاتوس وأقام معسكره على مقربة منه، فبعث هرقل قائد جيشه مع عدد من الرجال لاستطلاع أوضاع الفرس فقتلوا مجموعة منهم وأسروا آخرين اعترفوا أنهم عازمون على قتال البيزنطيين ولكنهم ينتظرون مدد كسرى أبرويز لهم بثلاثة آلاف رجل لم يصلوا بعد، ودفع هذا الخبر هرقل إلى مباشرة القتال مسرعاً قبل وصول المدد، فالتحم الجيشان بمعركة حامية الوطيس هُزم بعدها الفرس هزيمة فادحة.³

وتعد معركة نينوى معركة فاصلة في الحرب البيزنطية الفارسية إذ أعلنت بمجرد انتهائها هزيمة الامبراطورية الساسانية وعجزها عن صد الامبراطور هرقل حاضراً ولاحقاً لاسيما أن كسرى أبرويز قد بذل فيها كل ما لديه من قوة وجمع إليها ما استطاع من مقاتلين، أي أن الفرس لن يقووا بعد ذلك على القتال أبداً ولم يعد أمامهم إلا الاستسلام.

ثم استغل هرقل الفرصة وأكمل مسيره على طول نهر دجلة فسيطر على المدن ودمر قصور كسرى أبرويز المترامية هنا وهناك، حتى وصله خبر بأنه قد عسكر في قصر داستاغرد Dastagerd

¹ تفليس: مدينة في أرمينية قرب مدينة باب الأبواب، وهي مدينة قديمة يجري فيها نهر الكُر. الحموي: معجم البلدان، ج 2 ص 35، 36، مادة تفليس.

² أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص 107؛ السيد: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 66؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 82؛

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P446,447. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P170. Gregory: A history of Byzantium, P161. Mango: The oxford history of Byzantium, P57. Morgan: Byzantium, P72,73. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P103. Vasiliev: History of the byzantine empire, volume1, P197.

³ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1 ص 432؛ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص 137؛ اربري: تراث فارس، ص 65؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 254-261.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P450. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P170. Gregory: A history of Byzantium, P161. Haldon: Byzantium in the seventh century, P46. Mango: The oxford history of Byzantium, P57. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P103. Vasiliev: History of the byzantine empire, volume1, P198.

فدخله هرقل واستولى عليه عام 628هـ/628م وعلى ما فيه من كنوز وأموال، وذلك بعدما لجأ كسرى أبرويز وعائلته سراً إلى مدينة سلوقية Seleucia، وعوضاً عن أن يلاحقه هرقل إلى هناك قرر البقاء على مقربة من قناة النهر وان وهي النقطة الأقرب لعاصمة الفرس طيسفون، وكان خلال هذه الأثناء قد أصاب الجيش البيزنطي ما أصابه من إنهاك ونقص بالمعدات والمؤن، إضافة إلى أن ما علم به هرقل من قيام الثورات ضد حكم كسرى أبرويز دفعه إلى ترك الأحوال الداخلية في فارس تتولى الإطاحة به.¹

وخلال العام نفسه 628هـ/628م كان قد مضى على هجرة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة (يثرب) سبع سنوات حيث وجد الملاذ الآمن، فأنشأ الدولة العربية الإسلامية وشرع بنشر تعاليم الدين الجديد وتوسيع نطاقه خارج الجزيرة العربية، فبعث رسلاً إلى زعماء بعض القبائل العربية وإلى أبرز حكام عصره فمنهم من استقبل هؤلاء الرسل باحترام كالامبراطور البيزنطي هرقل والمقوقس (كيروس) حاكم مصر البيزنطي وهناك من أساء إليهم كالشاهنشاه الفارسي كسرى أبرويز والذي لم يكتف بذلك بل مزق خطاب النبي أيضاً²، غير مُعتبرٍ بالهزيمة الفادحة التي ما لبث أن تلقاها من البيزنطيين، وغير عابئٍ بالغضب الذي تملك شعبه جراء أفعاله التي راح ضحيتها خيرة القواد وآلاف الأرواح وإنهيار الاقتصاد، فكانت له الضربة القاسمة عندما قامت ثورة ضده انتهت بعزله عن العرش، قادها ابنه شيرويه سواء كان ذلك برضاه³ أو مرغماً تحت تهديد الشعب بتعيين أحد إخوته الكثيرين عوضاً عنه⁴، وقد أُلقي القبض على كسرى أبرويز في طيسفون ومعه القادة والضباط ثم أمر بقتله، وتوج شيرويه نفسه حاكماً على الفرس مبتدئاً أعماله بعقد صلح مع هرقل أنهى فيه الحرب على فارس.⁵

¹ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 183؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 1 ص 432؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 262، 263، 266؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 111؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص 26؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 73؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص 187.

Theophanes: chronicle of Theophanes confessor, P451,452. Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P170. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P103.

² الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 645، 646، 654؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 91، 92، 94؛ الجاف: موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج 1 ص 113؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص 76.

³ ابن البلخي: فارس نامه، ص 97؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 268، 269؛ بيرنيا: تاريخ إيران القديم، ص 374-375؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص 166.

⁴ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 714.

⁵ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 1 ص 216؛ الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص 716؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج 1 ص 149، 150؛ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 68؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص 127؛ فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص 155.

سابعاً: معاهدة الصلح 628هـ/628م وانتهاء الحرب:

أرهقت الحرب بلاد فارس واستنزفت مواردها ومقدّراتها، وهذا ما أدركه الشاهنشاه شيرويه بن كسرى أبرويز بعد توليه العرش والذي حكم ما يقارب ثمانية أشهر فقط فأثر إنهاء الحرب وخاصة أنه لم يعد باستطاعة البلاد أو الجيش صد هرقل الذي وصل إلى مشارف العاصمة الساسانية طيسفون وعلى وشك الهجوم عليها وتحمل مزيد من الهزائم، فأوفد بعد موافقة المجلس العسكري الساساني على إقامة الصلح سفارة إلى هرقل يخبره فيها ارتقاءه للعرش وأعلن رغبته الشديدة في عقد الصلح والسلام بين البلدين¹ فأظهر الامبراطور تسامحاً مع الوفد وتأييده للصلح بشرط إعادة الحدود بين الدولتين على ما كانت عليه عام 591م أي حسب الاتفاق الذي دار بين كسرى أبرويز وموريق ونصّ على التخلي عن أرمينيا الفارسية بما فيها مدينتي دارا وميفارقين، وبالتالي فإن المعاهدة الحالية ما بين كسرى أبرويز وهرقل تفرض جلاء الفرس عن جميع الأراضي التي احتلوها إضافة إلى إطلاق سراح الأسرى البيزنطيين وإعادتهم بسلام إلى بلادهم، والأهم من ذلك كله إعادة الصليب المقدس إلى أصحابه.²

وبموافقة شيرويه على الشروط وضعت الحرب أوزارها فانسحب الفرس من مصر وبلاد الشام كما هو متفق عليه في المعاهدة ودخل عوضاً عنهم البيزنطيون إلى تلك الأراضي بزعامة ثيودور أخي هرقل كما أعاد الامبراطور بنفسه الصليب المقدس إلى بيت المقدس عام 630هـ/630م بموكب مهيب وسط التهليل والترتيل ثم عاد هرقل إلى عاصمته القسطنطينية ظافراً بنصر قلّ نظيره، تتلقفه هتافات سكانها حاملين أغصان الزيتون والشموع الموقدة وسط مظاهر الفرح والسرور.³

=Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P486. Mango: The oxford history of Byzantium, P57. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P103. Vasiliev: History of the byzantine empire, volume1, P198. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P80.

¹ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص269، 270؛ السيد: تاريخ الدولة البيزنطية، ص66؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص73؛ العريني: الدولة البيزنطية، ص127 - 130؛ عمران: معالم تاريخ الامبراطورية، ص73-75؛ عوض: الامبراطورية البيزنطية، ص187.

² ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص152؛ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص272؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص67، 68؛ شيخو: مجاني الأدب، ج2 ص316.

Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P170. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P103. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P80.

³ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص273، 276، 278؛ ابراهيم، حسن: معالم التاريخ البيزنطي، ص137، 138؛ أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص108؛ بل: الهلينية في مصر البيزنطية، ص165؛ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص68؛ الشيخ: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص81، 82؛ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص26؛ =

ثامناً: موقف ودور العرب (المناذرة والغساسنة) في الحروب البيزنطية الفارسية (611-628م):

اعتادت قبائل العرب عيشة الصحراء والبادية فهم أصحابها وملاكها، ومن ينافسهم عليها لا بد له من الهزيمة، ففي ظل وصول النفوذ الساساني والبيزنطي إلى حدودهم شرعوا بشن الغارات على أراضيهم دون تفريق وإن قاومتهم قوة مدافعة تراجعوا إلى البادية حيث يصعب على غير العرب خوض غمارها، كما تربك قبائل العرب الجيوش النظامية التابعة للامبراطوريتين خلال الحروب بينهما فتكبدت الخسائر وربما الهزائم ثم أنها كانت تنتقل من موضع إلى آخر أي من الأراضي الخاضعة لسلطان البيزنطيين إلى الأراضي التابعة للساسانيين وبالعكس، وقد تثور وتهاجم القرى في دولة ما، فإذا عاقبتها هاجرت إلى الدولة الأخرى المعادية لها مما يسبب الاضطراب في الدولتين معاً¹، فكان لا بد لذلك من حل لذلك دعمت بيزنطة تأسيس مملكة عربية قوية موالية لها وتدافع عن مصالحها في المنطقة وهي مملكة الغساسنة وملكها الحارث بن جبلة (528-569م) في بلاد الشام، بينما ساند الساسانيون أيضاً زعيم المناذرة المنذر بن النعمان (418-462م) ومملكته في الحيرة²، وزرعت كل من الامبراطوريتين بذور الفتنة بينهما³.

وكما ساءت العلاقات بين فارس وبيزنطة ودُقت طبول الحرب بينهما اشترك كل من المناذرة والغساسنة في القتال، فيقتلون بعضهم البعض ابتغاء مرضاة ساداتهم أو لمجرد الحصول على ألقاب تشريفية من قبلهم وبعض المكافآت المالية⁴.

=فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، ص155؛ نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ص166؛ اليوسف:

الامبراطورية البيزنطية، ص95؛ يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص107.

Gregory: A history of Byzantium, P161. Haldon: Byzantium in the seventh century, P46. Morgan: Byzantium, P73. Ostrogorsky: History of the byzantine state, P103,104. Reinink, Stolte: The Reign of Heraclius, P4. Vasiliev: History of the byzantine empire, volume1, P198. Whittow: The making of Orthodox Byzantium, P80.

¹ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2 ص627، 652.

² الحيرة: منطقة خصبة في وادي الفرات جنوب الكوفة، وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة واقتربه منه خمسين كيلو متراً، ولفظها سرياني معناه الحصن أو المعقل. الصعيدي (عبد المتعال): تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، القاهرة، مطبعة العلوم، 1933م، ص29؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص577.

³ الشاعر: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، ص165، 166.

⁴ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص587.

ولكن العلاقات بين العرب والدول الكبرى قد تغيرت مع مرور الأيام وخاصة أن توقيع هدنة عام 562م مع البيزنطيين فرض السلام معهم وبالتالي قلَّ احتياج الفرس للمناذرة¹، ولكن تزامن ذلك مع تولي النعمان بن المنذر (580-602م) عرش الحيرة الذي ترك الوثنية واعتنق المسيحية وأوصل مملكته إلى غاية رفعتها ووسع نفوذها في شبه الجزيرة العربية والبحرين كما جمع في بلاطه شعراء العرب وأدبائهم، فتوجَّس كسرى أبرويز خيفة من علو شأنه وخاصة أن ذلك ترافق مع استهانة العرب بالفرس حيث تقدم بعضهم نحو شواطئ الفرات بقيادة من يقال له عباس الأسود وعمرؤ الأزرق وهاجموا أرض السواد وهو أمر لم يكن ليتجرؤوا عليه فيما مضى مستغلين انشغال الفرس بالحروب المستمرة مع الترك والبيزنطيين، ويقال أن وصول هؤلاء العرب كان بالتعاون مع اللخمين أنفسهم الذين أرادوا أن يظهروا لأخوانهم من العرب أنهم ليسوا عمالاً للساسانيين بل مستقلين عنهم²، وهذا ما يتجلى واضحاً من خطاب النعمان بن المنذر ملك الحيرة لوفد من القبائل العربية جاء إليه: "إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانتكم وليس شيء أحب إلي من ما سدد الله أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزتكم والرأي أن تسيروا أيها الرهط ... وليعلم كسرى أن العرب على غير ما ظن أو حدَّث نفسه"³ وكل ذلك أدى إلى حقد كسرى أبرويز على النعمان فاستدعاه وقتله راجياً قتل النزعة الاستقلالية التي بدأت تظهر على تصرفاتهم وعيَّن إياس بن قبيصة من قبيلة طيء عوضاً عنه، ولكن ذلك لم يمر بسلام وحدث ما لم يُعهد من قبل إذ تكاتف العرب مع بعضهم البعض ونازلوا الفرس في معركة ذي قار الشهيرة وانتصروا عليهم⁴ مؤذنين بأقول نفوذ الفرس على العرب حيث عُين على عرش الحيرة حكام ضعاف لا يتمردون ولكنهم أيضاً لم يتمكنوا من هزيمة جحافل الجيوش العربية الإسلامية الزاحفة إليها بقيادة خالد بن الوليد عام 13هـ/633م خلال خلافة أبي بكر الصديق (11-13هـ/632-634م)⁵.

¹ برو: تاريخ العرب القديم، ص137؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص65؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص18.

² الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص174؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص144؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1 ص444؛ برو: تاريخ العرب القديم، ص140؛ العلان: فارس وبيزنطة، ص175، 176.

³ العلان: فارس وبيزنطة، ص176.

⁴ الأصفهاني: الأغاني، ج2 ص125، 126؛ مسكويه: تجارب الأمم، ج1 ص159، 160؛ ابن البلخي: فارس نامه، ص95؛ مغنية، تاريخ العرب القديم ص87؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص593.

Frye: Cambridge history of Iran, volume3(1), P608.

⁵ حرب (محمد): تاريخ دول العرب والاسلام، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2007م، ط3، ص200؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص596، 597.

ويتضح هنا جلياً أن كسرى أبرويز لم يدرك أن قتله للنعمان سيؤدي في النهاية إلى سقوط دولته، إذ تولدت الأحقاد لدى العرب من جراء فعلته مما دفعهم للاتحاد بغية كسر النير المفروض عليهم، كما أن تعيينه لحكام لا قوة لهم على التمرد لم يكن في صالحه فقد عجزوا عن صد العرب المسلمين وربما قد وجدوا فيهم خلاصاً لما يطالهم من ظلم الفرس وسيطرتهم فنصرهم في ذي قار منحهم الثقة بقدرتهم على تولي زمام الأمور وخاصة أنهم مشتركون معهم بالأصل العربي مما يعزز نزعتهم الاستقلالية التي كان قد قمعها كسرى أبرويز.

وخلال تلك الأثناء لم تكن العلاقات بين البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة تنعم بالهدوء إذ تولى عرش مملكتهم المنذر بن الحارث (570-582م) المعاصر للامبراطور البيزنطي جوستين الثاني (565-578م)، فعمد في بداية عهده إلى تنفيذ أوامر البيزنطيين وخوض حروب لصالحهم ولكن عندما اعتنق المذهب المونوفيزتي المناقض للمذهب الرسمي للامبراطورية بدأت العلاقات بينهما يصيبها التوتر¹ إذ بدأ الامبراطور يشكك بولائه السياسي وقرر التخلص منه إلا أن المنذر علم بنيته وهرب إلى البادية وصالح المناذرة الذين تشجعوا من جراء ذلك على مهاجمة الأراضي البيزنطية فاضطر البيزنطيون مرغمين على مصالحة المنذر الغساني الذي زار القسطنطينية في عهد الامبراطور تيبيريوس (578-582م) حيث أنعم عليه بعظيم النعم.²

إلا أن العلاقات بينهما ما لبثت أن عادت للاضطراب حيث اتهم المنذر بالتعاون مع الفرس وإن كانت ريبتهم صائبة أم لا فإن ما قاموا به نتيجة لذلك كلفهم الكثير إذ ألقوا القبض عليه ونفوه إلى جزيرة صقلية عام 582م كما قطعوا المعونة لآل جفنة أي الغساسنة مما دفع بأبناء المنذر إلى الثورة ومهاجمة الحدود البيزنطية بقيادة أحد أبنائه وهو النعمان الذي أُلقي القبض عليه أيضاً وأُرسل إلى القسطنطينية³، فتصدع ملك الغساسنة وانقسموا على أنفسهم ولكن استمروا على ولائهم لبيزنطة رغم ما مرَّ عليهم من سيطرة الفرس ومحاولتهم لتغيير ولائهم بل وشاركوا في حروب هرقل ضد فارس حيث تقدّم طليعة من العرب جيش هرقل عند دخوله مدينة غزناك⁴، كما تعاونوا مع البيزنطيين في معاركهم ضد إخوانهم العرب

¹ برو: تاريخ العرب القديم، ص 144؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، 572.

² برو: تاريخ العرب القديم، ص 144؛ بيغوليفسكا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص 247؛ الصعيدي: تاريخ العرب، ص 36؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 573.

³ برو: تاريخ العرب القديم، ص 145، 146؛ بيغوليفسكا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص 250؛ محمد: علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية، ص 105-106؛ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 574.

⁴ اسماعيل: الدولة البيزنطية، ص 243.

المسلمين فيما بعد إلى أن تمكن خالد بن الوليد من فرض السيطرة التامة على المنطقة عام 13هـ/634م.¹

وبالتالي يتجلى مما سلف أن قمع الثورات أو كم الأفواه لا تسلم عقباه في كل مرة وهذا ما حصل مع المناذرة والغساسنة في الوقت نفسه مما يدل على أنهما قد وصلا إلى مرحلة قد سئمو بها ما هم قابعون فيه من تبعية للظلام دون تحريك أي ساكن.

وهكذا طويت صفحة من صفحات الحروب الفارسية البيزنطية مثبتة أن النصر لا يكون فقط بكثرة العدد والعُدّة إنما يكمن أيضاً بالحنكة العسكرية والمهارة في إدارة حجر الرحي، وهذا ما يفسر رجحان الكفة البيزنطية على الفارسية بعد تفوق الأخيرة لسنوات طوال، مع أن هذا الانتصار المبهر لبيزنطة وما حظيت به كان يساوي ما خسرت فيها، فعلى الرغم من أنها استعادت أراضيها من الفرس واستردت بذلك مواردها إلا أنها لم تستعد قوتها التي خسرتها في ميادين المعارك، حيث فقدت قدرتها على الصمود أمام عدو جديد كان على وشك الوصول من الجزيرة العربية تحلى بالقوة والوحدة والإيمان، ذلك الإيمان الذي ارتدته هذه الحرب الأخيرة بين فارس وبيزنطة حلةً لها، فاتسم ظاهر هدفها بغاية دينية سامية تقوم على نصرته المسيحية والانتقام لها ممن أساء إليها وأهان رموزها وخاصة بعد اتخاذ هرقل أيقونة المسيح المخلص شعاراً له في هذه الحرب، إلى جانب مساهمة رجال الدين بتوفير الأموال اللازمة لتمويلها، والإعلان عن سعيها لإعادة الصليب المقدس إلى موطنه الأصلي في بيت المقدس، إلا أنه من الخطأ غض البصر عن الدوافع الأخرى لهذه الحرب، فالمناطق التي دارت حولها وعليها الحرب لها أهمية اقتصادية بالغة لما تتميز به من غنى بالحبوب وغيرها من الموارد، إضافة إلى كونها مصدراً بشرياً هاماً لتجنيد الرجال المعروفين بالشجاعة والخبرة القتالية، ناهيك عن الموقع الاستراتيجي المتوسط للعالم والذي تمر به طرق المواصلات التي تربط أقصى الشرق بأقصى الغرب، كما لا يمكن تغييب الحقد السياسي الدفين والثأر الأزلي بين معسكري العالم الشرقي والغربي والرغبة الجامحة لكل منهما في فرض السيطرة على مساحات أوسع من أراضي الطرف الآخر وإنزال أشد الهزائم وأفدح الخسائر به وكسر شوكته ليكون المهيمن الوحيد وصاحب النفوذ الأقوى إن لم يكن الأوحد على العالم.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو هل كان السبب وراء هذه الحروب دينياً فقط؟ أم أنها استترت بمظلة الدين لتحقيق أهداف اقتصادية وسياسية أيضاً، وذلك للإدراك المسبق لفاعلية دور الدين في إثارة حماس الشعوب وزيادة رغبتها ببذل ما يستطيعون في سبيله؟

¹ مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص574.

الفصل الرابع: انعكاسات الحرب البيزنطية الفارسية على حركة الفتوحات العربية الإسلامية

أولاً: استراتيجية الفتوحات العربية الإسلامية خلال عهد هرقل.

ثانياً: عوامل نجاح الفتوحات العربية الإسلامية.

ثالثاً: عوامل هزيمة البيزنطيين والفرس.

أولاً: استراتيجية¹ الفتوحات العربية الإسلامية خلال عهد هرقل:

دامت الحرب البيزنطية الساسانية ست سنوات (622-628م) وقد انتهت بانتصار ساحق للامبراطور البيزنطي هرقل الذي أثبت من خلالها قوته وقدرته على هزيمة نظيره ومنافسه الوحيد الشاهنشاه كسرى أبرويز، ولكن انتصاراته المبهرة أغفلت ناظره عما كانت تشهد الجزيرة العربية من تشكل النواة الأولى لدولة الإسلام في المدينة المنورة على يد نبي التوحيد محمد ﷺ الذي هاجر إليها مع مَنْ آمَن بدعوته من رجال وأتباع سنة 1هـ/622م لاجئاً مما كان يناله من قبيلته وعشيرته من صنوف التعذيب والاضطهاد، فتمكن بإخلاصه خلال عشر سنوات (1-10هـ/622-631م) أن يرسى قواعد الدولة العربية الإسلامية التي لم يزحزحها وعد ولا وعيد، فخاض عدداً من المعارك والغزوات ضد المشركين في مكة المكرمة دفاعاً عنها، متطلعاً بانتصاراته التي حققها نحو نشر شرائعها في أصقاع الأرض، وساعياً لتحقيق أول مبادئها في عالمية الدعوة وعدم حصرها في أرض أو قوم محددين، ليتترك بوفاته ﷺ سنة 10هـ/632م دولة ستمكن بيد خلفائه من إكمال ما بدأه.

حيث ورث أصحاب النبي ﷺ دولة غضة اهتزت دعائمها بغيابه وارتد عدد من القبائل في الجزيرة العربية عن هذا الدين، فرداً لخطر ذلك على الدولة الناشئة والمهدد لوجودها وإحباطاً لما هو في الوقت الحاضر بمثابة الخيانة العظمى للدولة وإعلان العصيان عليها، وجّه الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ الجيوش إلى الجزيرة العربية كلها لقتال أعدائه بحروب عُرفت باسم حروب الردة، واختار لهذه المهمة الصعبة أقوى الرجال والقادة حيث درّبهم بذلك على خوض غمار المعارك جاعلاً منهم قادة الفتوحات وهازمي أكبر دول العالم القديم.²

¹ الاستراتيجية: هي التي تعالج أنواع العمليات الحربية وأساليبها والوسائل الضرورية لإنجاحها، كدراسة العدو وقوته وإمكاناته وتحديد الضربة الرئيسية والثانوية ومحاور تحرك القوات ومناطق زجها في القتال، وكذلك أعداد القوات المسلحة ثم تنسيق كل ذلك ووضع مخطط متكامل يحقق الهدف. صالح (قاسم): العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، (د.م)، مكتبة المهديين، 1989م، ط1، ص 13؛ العسلي (بسام): فن الحرب الإسلامي، بيروت، دار الفكر، 1988م، ج1 ص318.

² البلاذري (أحمد بن يحيى ت 279هـ/892م): فتوح البلدان، تح عبد الله الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987م، ص131-133؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج3 ص225؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2 ص201؛ ابن كثير (اسماعيل بن عمر ت 774هـ/1372م): البداية والنهاية، تح عبد الله التركي، الجيزة، دار هجر، 1997م، ط1، ج9 ص440، 441.

ولم تشغل حروب الردة الخليفة الأول عن إرسال سرية أسامة بن زيد رضي الله عنه¹ التي كان قد هيأها النبي ﷺ لقتال عرب الشام الغساسنة عمال البيزنطيين الذين يطلق عليهم العرب تسمية (الروم)، غير أنه بسنة اليافع ذي الثمانية عشر سنة فقد كان مؤمناً بكفائه وقدرته على تنفيذ ما يؤمر به ، وبالفعل تمكن أسامة رضي الله عنه من سنة 11هـ/632م من تأديب الغساسنة فقد تمادوا قبل ذلك في مضايقة العرب المسلمين واستفزازهم، حتى أن هذه السرية لم تكن أول احتكاك عسكري ما بين البيزنطيين والعرب المسلمين فقد سلفها في عهد النبي ﷺ سرية مؤتة 8هـ/629م وغزوة تبوك 9هـ/630م اللتين حقق فيهما العرب المسلمون النصر الذي خرجوا من أجله.²

ويتضح جلياً من المعارك الثلاثة مؤتة وتبوك وسرية أسامة رضي الله عنه أن العرب المسلمين لم يبدؤوا القتال بل خرجوا دفاعاً عن أرضهم أو تأديباً لتجاوزات العرب وأسيادهم البيزنطيين المتكررة، وقد عادت هذه المعارك بفائدة على العرب المسلمين فالى جانب فرض هيبتهم فقد تعرفوا على طبيعة أرض الشام وأسلوب القتال البيزنطي بمعارك صغيرة، فكانت تمهيداً لما سيخوضونه فيما بعد من معارك ضخمة حاسمة مع الدول الكبرى.

ويتبين من إطلاق أبي بكر رضي الله عنه لسرية أسامة رضي الله عنه وعدم تغيير قائدها يافع السن، التزامه الشديد بأمر النبي ﷺ ورؤيته العسكرية في استخدام الرجل المناسب في المكان المناسب بغض النظر عن عمره ومكانته، فقد كثر من هم أصحاب الأفضلية بأسبقيتهم إلى الإسلام من صحابة رسول الله ﷺ، كما أوجت هذه السرية للبيزنطيين والغساسنة على حد سواء أن الدولة العربية الإسلامية لها من القوة والإمكانات الشابة ما تتمكن به من غزو أقوى الدول والانتصار عليها حتى في أقصى الأوقات صعوبة لها ك وفاة نبيها وقائدها والاضطراب السياسي الذي تلاه، فكل دولة يموت حاكمها تمر بحالة ضعف ويطمع أعداؤها بها، وباجتياح كسرى أبرويز للامبراطورية البيزنطية بعد مقتل الامبراطور موريق أبرز مثال على ذلك، فلربما كان كل من الفرس والبيزنطيين يراقبان الوضع العربي الإسلامي المضطرب وينتظران كعادتهما

¹ أسامة بن زيد: صحابي هو ابن زيد بن حارثة، وكان يسمى حب رسول الله ﷺ، أخرجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بسرية إلى الشام وتوفي سنة 59هـ/678م. ابن الأثير (علي بن محمد ت 630هـ/1232م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح علي معوض وعادل الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج 1 ص 194، 195.

² الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 3 ص 36-40؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 145؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 4 ص 226، 227؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9 ص 420، 421؛ سالم (عبد الرحمن): المسلمون والروم في عصر النبوة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1997م، ص 87، 88، 109.

حتى يقتتل العرب مع بعضهم البعض ويصابوا بالإنهاك ليقوموا بعد ذلك بهجومهم الساحق، لذلك كان إرسال سرية أسامة رضي الله عنه قراراً صائباً منع الامبراطوريتين من الإقدام على أية حركة.

وبعد انتهاء حروب الردة واستقرار الوضع الداخلي للدولة العربية الإسلامية بإعادة كل من ارتد إلى سالف عهده من الولاء، استشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه أصحابه رضي الله عنهم ثم باشر فور تأييدهم بإرسال جيوش الفتح العربي الإسلامي ضد كل من فارس وبيزنطة بالتتابع حيث ينطلق كل جيش في اليوم التالي للجيش الذي سبقه، واختار أحنك الرجال وأشجعهم لقيادتها كخالد بن الوليد رضي الله عنه الذي أمره بالتوجه إلى بلاد الرافدين لدعم المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه الذي سلفه إلى هناك، كما بعث أربعة جيوش إلى مناطق مختلفة من الشام حيث تخرج إلى هناك بفارق يوم واحد بين كل جيش وآخر، فكانت وجهة يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه دمشق كما توجه عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى فلسطين وانطلق شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه إلى الأردن لحماية قاعدة انطلاق العرب المسلمين وكان أقوى المقاتلين بجيش أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ينطلقون نحو مدينة حمص.¹

وقد يسأل القارئ عما دفع الخليفة الأول للاستعجال بإرسال جيوش الفتح بعد انتهاء حروب الردة مباشرة، فمن الواضح أنه أراد للعرب المسلمين أن يحققوا مبدأ دينهم الأساسي الساعي لعالمية الدعوة ونشرها بين شعوب الأرض، إلى جانب خشيته من أن التأخر بالأمر قد يدفع البعض إلى السكينة والراحة أو قد يولد قضية الثأر بين القبائل العربية بعد المقتلة الكبيرة بين صفوفهم، فأراد أن يوجه هذا الغضب إلى خارج شبه الجزيرة العربية علّ العرب يتوقفون عن قتال بعضهم ويقاتلون عدوهم الحقيقي، وقد كان قرار أبي بكر الصديق رضي الله عنه بشن الحملات على جبهتي الشرق والشمال معاً قراراً صائباً لأن الفرس ما لبثوا أن منبوا بهزيمة ساحقة وبالتالي فجيوشها ضعيفة وغير قادرة على المواجهة والصمود، إضافة إلى أن القضاء على نفوذ الفرس في بلاد الرافدين يؤمّن الجبهة الشرقية للمسلمين عند قتال البيزنطيين ويمنع قيام أي اتحاد بيزنطي فارسي يفصل العرب المسلمين عن قاعدتهم في الجزيرة العربية.

وقد كانت خطة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه في فتح بلاد الرافدين قائمة على الإطباق على حاضرتها الحيرة من الشمال بقيادة عياض بن غنم ومن الجنوب بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وذلك في آن واحد وهي الخطة المعروفة بفكي الكماشة، وعندما يتم لهم ذلك يبقى أحدهما في الحيرة ويتوجه الآخر للسيطرة على عاصمة الفرس طيسفون (أو كما يسميها العرب المسلمون المدائن) مما يجعل من الحيرة قاعدة للعمليات العسكرية فتؤمن الحماية للجيش الذي ينقذ عملية طيسفون، وقد تم حشد الجيوش ممن لم تسبق لهم ردة

¹ البلاذري: فتوح البلدان، ص 149، 337؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 3 ص 394؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 249، 250.

قبل ذلك وفقاً لأوامر الخليفة وانطلقوا بهم لتحقيق النصر¹، ووصل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بلاد الرافدين وخير أهل كل منطقة يمر عليها ما بين الدخول بالإسلام أو دفع جزية أو القتال، فاختار البعض الصلح وكان لهم ما أرادوا²، بينما اختار البعض الآخر القتال فحاضوا المعارك واحدة تلو الأخرى حتى وصل عددها لما يقارب الاثني عشر معركة خلال سنة واحدة فقط 12هـ/633م أحرز فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه النصر فيها كلها³.

ومن الطبيعي أن تثير هذه الانتصارات المتتالية التساؤل حول الاستراتيجية التي اتبعها خالد بن الوليد رضي الله عنه لتحريك جيوشه ولا سيما أنه لم يهزم بأحدها قط، ولكن من يتمعن بقراءة أحداث هذه المعارك لوجد ما تشترك به وخاصة أن الجيش العربي الإسلامي قد تكون منذ البداية من رجال مخلصين ثبت الإيمان في صدورهم صدقوا الله ما عاهدوه عليه ومضوا بقوة إيمانهم لا يردهم شيء، فخلا من كل متردد مرتد سبقت له الخيانة لعل هذه الانتصارات تكون عبرة لهم تشعروهم بفداحة الجرم الذي ارتكبه حيث حرموا من شرف المساهمة بما يحققه أخوانهم من إنجازات.

إلى جانب ما تحلى به الجيش العربي الإسلامي قادة وجنوداً من حنكة عسكرية تمثلت بإدراك أهمية تدمير الروح المعنوية للجيش الخصم بقتل قائده منذ اللحظات الأولى لبداية المعركة فبيعت الحماس في نفوس الجنود العرب المسلمين، كما اعتمدوا على عنصر المباغته الذي يمكنهم من تطويق خصمهم وإرغامه على الاستسلام ويسلبه الفرصة لحشد قواته والتهيؤ للمعركة، وكذلك كان من أهم عوامل الانتصار أيضاً تنظيم الكمائن ودقة اختيار الوقت المناسب للالتحام قبل وصول المدد للأعداء، ونظراً لإدراكهم أن عدوهم لا يستهان به كان الحذر مرافقهم إذ أرسلوا العيون والاستخبارات وحتى حملات الاستطلاع لتأتي لهم بأخبار تحركات الخصم، إضافة إلى تقسيم الجيش لمجموعات صغيرة تقوم بإغارات متلاحقة على العدو فتنهكه وتحطم قوته بالتدريج وتضمن النصر مجتنبين الخوض في معركة كبرى حاسمة احتمال الهزيمة فيها وارد وخاصة أن أعداد جيش العدو يزيد جيش العرب المسلمين أضعافاً كثيرة، فكل انتصار يكمله العرب المسلمون بملاحقة العدو والقضاء عليه بأعداده الضخمة خوفاً من إعادة الحشد والهجوم عليهم مرة أخرى، ولا شك أن هذا الحذر يتضح من خلال إلقاء نظرة شاملة على مجريات المعارك فقد

¹ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 3 ص 346، 347؛ صالح: العسكرية الإسلامية، ص 45.

² صالح خالد بن الوليد رضي الله عنه كل من بانقيا وأليس وباروس والحيرة سنة 12هـ/633م. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 3 ص 364؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص 339؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 234.

³ وهذه المعارك هي ذات السلاسل في الأبله، المذار، الولجة، أليس، المقر، الأنبار أو ذات العيون، عين التمر، دومة الجندل، ومعركة حصيد، كما أغار على مصيخ، الثني والزمل، وخاض معركة الفراض. البلاذري: فتوح البلدان، ص 344؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9 ص 526-535.

عمد الفرس إلى استدراج العرب المسلمين نحو داخل بلادهم (السواد¹) بما في ذلك من خطر عزلهم وتطويقهم ثم تدميرهم، إلا أن العرب المسلمين تجنبوا ذلك بعدم الابتعاد عن الصحراء والبادية حيث قاموا بجميع معاركهم على الضفة الغربية لنهر الفرات مما يجعل الصحراء خلفهم فتحميهم في حال الهزيمة والانسحاب من الملاحقة والإبادة لأن الفرس كجيرانهم البيزنطيين يجهلون الصحراء ولا يعرفون كيفية الاهتداء فيها بينما خبرها العرب فهي موطنهم ومستقرهم الأول.²

فنجاح العمليات العسكرية العربية الإسلامية في بلاد الرافدين لم تنته بعد وكان العرب المسلمون على بُعد مرحلة واحدة عن الهجوم على طيسفون والقضاء نهائياً على الدولة الساسانية، عندما وصل أمر خليفة الله ﷺ الأول إلى خالد بن الوليد ﷺ بالتوجه إلى الشام، فما هي تطورات الأوضاع هناك التي أدت إلى استدعاء خالد بن الوليد ﷺ إليها؟

لقد شهدت بلاد الشام في تلك الآونة تطورات خطيرة حققت خلالها جيوش أبي بكر الأربعة بعض النجاحات تراوحت ما بين الصلح والخوض بمعارك قصيرة حاسمة، ولكن تطور الوضع واحتدام الموقف فيما بعد إذ جعل البيزنطيون يشعرون بالخطر، فأرسل هرقل المتمركز في القدس (إيلياء) جيشاً ضخماً يفوق جيش العرب المسلمين بستة أضعاف وذلك لخوض معركة كبرى وحاسمة معهم واختار اليرموك³ موقعاً لها لما تتميز به من موقع دفاعي حصين، إذ يحدها نهر اليرموك من الجنوب ونهر الرقاد من الغرب ووادي علان شرقاً فينتقي بذلك التقاف العرب المسلمين من حوله، كما ربط جنوده بالسلاسل ليمنعهم من الهرب فقد تكرر هربهم أمام العرب المسلمين عدة مرات قبل ذلك.⁴

ومن الجلي أن اختيار البيزنطيين لموقع المعركة ينم عن مدى الخوف الذي أصابهم بدليل حرصهم الشديد على اختيار موقع تحده التحصينات من كل جانب ولكن ذلك انقلب عليهم عكسياً إذ حصروا أنفسهم وضيقوا المخرج أمامهم، فاستغل العرب المسلمون ذلك وضيقوا الخناق عليهم فكانت الأنهار مكاناً لإغراق الهاربين، وقد قال عمرو بن العاص ﷺ: "أبشروا أيها الناس، فقد حصرت والله

¹ السواد: ضياع بلاد الرافدين سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار، حده الشمالي هو الموصل والجنوبي هو عبادان، ومن الغديب بالقادسية شرقاً إلى حلوان غرباً. الحموي: معجم البلدان، ج3 ص272، مادة السواد.

² صالح: العسكرية الإسلامية، ص78؛ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج1 ص35، 36، 40، 43، 185.

³ اليرموك: وادٍ بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة (البحر الميت) وكانت به حرب بين المسلمين والبيزنطيين. الحموي: معجم البلدان، ج5 ص434، مادة اليرموك.

⁴ صالح: العسكرية الإسلامية، ص117.

الروم، **وقلما جاء محصور بخير**¹ كما أن ربط الجنود بالسلاسل ما هو إلا برهان على عدم ثقة القادة بإخلاص جنودهم ولكن ذلك لن يجدي نفعاً إذ أن الثبات ثبات الإيمان بالهدف الذي يسعون إليه.

وتبعاً لهذه الأوضاع استدعى أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضي الله عنه للحاق بالشام وقيادة جيوشها، فغادر خالد رضي الله عنه الحيرة جاعلاً أمرها بيد المثنى بن حارثة رضي الله عنه، وخلال مدة وجيزة غير معهودة وصل إلى الشام² وجمع القادة في الجولان وقرروا جميعاً صهر الجيوش الأربعة بجيش واحد يتولى خالد بن الوليد رضي الله عنه قيادته، ثم أنفذ جيشان لمواجهة طلائع الجيش البيزنطي التي بدأت بالوصول وتمكنت بصعوبة بالغة انتزاع النصر منهم، لذلك أمر هرقل بتهيئة جيش اليرموك لتكون المعركة الحاسمة.³

ومن سرعة تنقلات الجيش العربي الإسلامي يظهر ما تميز به من مرونة وخفة الحركة حيث خاض العرب المسلمون عدة معارك ريثما يصل البيزنطيون بجيشهم إلى موقع المعركة مما يدل على ثقله وبطء حركته مما أثر سلباً عليهم باستغلال العرب المسلمين لهذه الثغرة فأخذوا يقضون عليهم بالتدريج قبل وصول الكتلة الرئيسية للجيش، وما عمد إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه من توحيد الجيوش العربية الإسلامية في جيش واحد يعد قراراً صائباً إذ يؤدي تعدد القادة إلى جعل كل جيش يخوض المعركة وحده وينسق كل منهم حركته تبعاً للموقف الذي يواجهه فيتشتت الشمل ويضيع الجهد، فإن القوة بالوحدة كما يتبين من موافقة أبي عبيدة رضي الله عنه ثم القادة الأربعة على تسلم خالد رضي الله عنه لزام الأمور مدى إخلاص هؤلاء القادة للهدف الذي يسعون إليه غير آبهين بسلطة أو جاه فلم يستأثروا بها لأنفسهم ولم يتشبثوا بها عندما كانت المصلحة العليا في غير ذلك، وهنا يكرر أبو بكر رضي الله عنه استراتيجيته بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب بصرف النظر عن مكانته.⁴

وقد تركز كل من العرب المسلمين والبيزنطيين في مواقعهم من اليرموك وقد نظم خالد بن الوليد رضي الله عنه جيشه بحيث يتقدم المشاة أولاً بينما جعل الفرسان قوة احتياطية خلف المشاة وذلك لرؤيته المسبقة لتفوق سلاح الفرسان البيزنطي على نظيره الإسلامي بشكل يستحيل الانتصار عليه، ومن بعدهم معسكر

¹ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص550، 551.

² الواقدي (محمد بن عمر ت207هـ/822م): فتوح الشام، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ط1، ج1 ص22، 23؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص152؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2 ص253؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص549.

³ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج3 ص395، 396؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2 ص256؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص553.

⁴ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج1 ص111، 186، 187، 188.

النساء الذين أوكلهم بعمليات الاستطباب ومنع الرجال من التراجع، أما البيزنطيون فقد اعتمدوا في خطتهم على القتال بأسلوب التعرض والمباردة وتشكيل صفوف المشاة التي يدعمها الفرسان.¹

وقبل بداية القتال حاول البيزنطيون محاولتهم الأخيرة بالتفاوض مع العرب المسلمين للانسحاب مقابل الاكتفاء بالغنائم والخيول والأموال، فرفض خالد عليه السلام ذلك فكانت معركة اليرموك 13هـ/634م التي استمرت خمسة أيام وليلة، اقتتل خلالها الطرفان قتالاً شديداً، حيث بدأ البيزنطيون هجومهم بالطليعة المؤلفة من القبائل العربية ونظراً لهزيمتها بدأت الكتلة الرئيسية بهجوم مزدوج على جناحي الجيش العربي الإسلامي الأيمن والأيسر مستغلين التفوق العددي الهائل لهم، فطوقوهما بحركة استدارة واسعة أجبرتهم على الاختلاط بقوات القلب، كما لم يثبت إلا عدد قليل من حملة الرايات والشجعان بينما تراجع معظمهم، ورغم خروج القوة الاحتياطية من كمينها وشنها للهجوم المباغت وإحرازها بعض الانتصارات إلا أن العرب المسلمين استمروا بالتراجع تحت الضغط البيزنطي حتى كاد ينكشف قلب جيشهم، فانطلق خالد بن الوليد عليه السلام الذي كان يراقب مجريات المعركة بمجموعة من الفرسان وتصدى لكل تقدم نحو القلب بمعركة ضارية،² كما أن وصول البيزنطيين إلى معسكر النساء الذين دافعوا عن المعسكر وقتلوا وفرقوا مجموعات كبيرة من جنود الخصم فثارت حمية الرجال وزاد من صمودهم في القتال وأجبروهم في النهاية على الانسحاب، ثم هيا خالد بن الوليد عليه السلام كميناً باغت فيه معسكر البيزنطيين فانفصل المشاة عن الفرسان مما سهّل القضاء عليهم بأعداد أكبر، حتى قرروا الهرب على غير هدى فسقط منهم أعداد ضخمة في الوادي ولاحق العرب المسلمون من نجا.³

ومن خلال هذه النظرة السريعة على معركة اليرموك يتضح حجم التحديات التي كان على العرب المسلمين أن يتجاوزوها لينتزعوا النصر من خصمهم القوي، المتفوق بشرياً ومادياً بأضعاف مضاعفة ولكنهم تغلبوا عليه بخوض معارك قصيرة حاسمة معه واتباع أسلوب الإبادة والقضاء على أكبر عدد من قواته حتى استنفذوا قواه وحطموا معنويات جيشه بكثرة هزائمه، بينما اكتسب العرب المسلمون خبرة القتال في المعارك الكبيرة وزادت حماسهم وارتفعت روحهم المعنوية بما حققوه من انتصارات على أحد أقوى امبراطوريات العالم القديم، وقد ساعدهم على ذلك عدم إدراك البيزنطيين لقوة العرب المسلمين الحقيقية فدفَعوا إليهم بمجموعات صغيرة معتقدين أنها قادرة على هزيمتهم فيكتفي العرب المسلمون بما جمعوه من

¹ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص554.

² البلاذري: فتوح البلدان، ص184؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص564.

³ الواقدي: فتوح الشام، ج1 ص195، 196؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص184؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج5 ص96؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص565.

غنائم ويعودوا إلى جزييرتهم ولكن عندما لم يتحقق ما أرادوا زجوا بأنفسهم في معركة كبيرة حاسمة كانت عليهم كارثة كبرى، في حين درس العرب المسلمون نقاط ضعف خصمهم وقوته واستعدوا لمواجهة فطوروا أساليب قتالهم واستراتيجيتهم العسكرية فثبتوا وصمدوا ولم يترددوا في تنفيذ وعيدهم، كما التزموا بصرامة وطواعية بتعليمات القيادة العليا حيث كان الخليفة هو من يحدد الأهداف المتتابعة وينسق الجهد بين مساح العمليات يرافقه تواصل القادة الميدانيين المستمر فيما بينهم والإسراع إلى دعم بعضهم، وقد ظهر جلياً في هذه المعركة دور النساء الذي لم يقتصر فقط على مداواة الجرحى بل شاركوا الرجال في قتال العدو في الميدان، كما كانت هذه المشاركة دافعاً قوياً لعودة من حاول الانسحاب وثباته في المعركة.¹

ومن الخطأ إغفال بطة حركة البيزنطيين ودوره في حسم نتيجة المعركة فتنظيماتهم الإدارية وضخامة إمداداتهم وتموينها ساهمت في ذلك، بينما تميزت القوات العربية الإسلامية بالخفة وسرعة التنقل والتحرك لا يتقلها تموين ولا إمداد إذ يتعايشون بما تقدمه لهم المنطقة ويكتفون بالقليل من الزاد.²

وهكذا مني البيزنطيون بهزيمة نكراء سيدفعون ثمنها عما قريب، فانتصار العرب المسلمين في اليرموك فتح أمامهم الطريق لمتابعة فتح باقي بلاد الشام مستندين على قاعدة قوية أمينة لا يمكن تطويقها وعزلها، كما جعلوا من الجابية³ مقر القيادة الأمامية لقربها من مسرح العمليات أكثر من المدينة المنورة، إلى جانب ما أحدثته هذه المعركة من تغيير جذري في ميزان القوى إذ الغلبة اليوم للمسلمين محطمين الهيمنة البيزنطية منطلقين نحو أهداف جديدة بما اكتسبوه من تطور في فن الحرب وصقل لمواهبهم القتالية، مبرهنين أن الكفاءة القيادية وضخامة العدد والعدة غير قادرة على تحقيق ما يحققه الإيمان العميق والفتنة العسكرية والروح المعنوية القوية.⁴

ولقد كان انشغال العرب المسلمين في بلاد الشام فرصة لم يهدرها الفرس لاستعادة ما فقدوه من أراضي وحماية ما تبقى منها، فأرسلوا جيشهم المزود بالفيلة لقتال العرب المسلمين الذي كانوا بقيادة المثنى بن حارثة رضي الله عنه بعد خروج خالد بن الوليد رضي الله عنه من بلاد الرافدين، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمته بل كانت الهزيمة من نصيبهم.⁵

¹ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 135، 136.

² العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 137.

³ الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان شمال حوران، وانتقل إليها عمر بن الخطاب كلما احتدمت أمور الحرب بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام ليكون قريباً من مسرح العمليات. الحموي: معجم البلدان، ج 2 ص 91، مادة الجابية.

⁴ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 137، 138.

⁵ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 259.

في حين كانت المدينة المنورة في هذه الأثناء تودع خليفتها الأول وتستقبل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تابع مسيرة سلفه فوجه رسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يعلمه بها بعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه وتعيينه على رأس جيوش الشام كما أرسل الجيوش الداعمة بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه¹ إلى بلاد الرافدين التي اندلعت فيها الثورات ضد العرب المسلمين بفعل فتنة الفرس، فالتحم العرب المسلمون مع الفرس بعدة معارك تمكنوا فيها من كسب العرب إلى جانبهم في القتال وإحراز النصر الحاسم الذي يرجون.²

وفي خضم هذه التطورات والأحداث لماذا أزاح الخليفة خالدًا عن مركز القيادة؟ لكن السبب فيما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه: "إني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه، ولكن الناس فخموه، وفتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله ﷻ هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنته".³

وقد كانت أشهر هذه المعارك تلك التي جرت أحداثها عند نهر دجلة وعُرفت بمعركة الجسر 13هـ/634م إذ عبر العرب المسلمون الجسر القائم على النهر بعد إصرار قائدهم على ذلك إلى الطرف الآخر حيث كان يعسكر الفرس والتحموا معهم بمعركة في غاية الضراوة خافت فيها الخيول من فيلة الفرس واضطرب استقرارها فاحتدم القتال الذي راح ضحيته قائد جيش العرب المسلمين أبي عبيد الثقفي رضي الله عنه وكثير ممن معه إلى أن أنقذ المثنى رضي الله عنه الموقف وأمر بالانسحاب والتراجع.⁴

ويتبين مما سلف أن النصر لا يأتي بالاندفاع والعجلة بالقتال، بل بالروية والحذر والدراسة الحكيمة لكل الاحتمالات، وكذلك تظهر أهمية الالتزام بتعليمات القائد إذ أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا عبيد رضي الله عنه أن يستجيب لمشورة جماعة القادة العرب المسلمين وألا ينفرد برأيه دونهم.

ولكن الهزيمة ما لبثت أن أردفت بنصر قريب رفعت معنويات العرب المسلمين وجددت الثقة في نفوسهم المحطمة، إذ استتفر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كل من له سلاح أو خيل أو رأي وأمره

¹ أبو عبيد بن مسعود الثقفي: صحابي جليل أسلم في عهد النبي ﷺ، وقاد معركة الجسر واستشهد فيها. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج6 ص201.

² معركة النمارق 13هـ/634م ومعركة السقاظية بكسر 13هـ/634م، كما أغاروا على منطقة الخنافس وسوق بغداد 13هـ/634م، البويب 13هـ/634م. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج3 ص446، 450، 454، 460؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2 ص274-276؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص590-594، 597-599.

³ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج1 ص172.

⁴ البلاذري: فتوح البلدان، ص351؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2 ص276-278؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج5 ص111-113؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص594، 595.

بالالتحاق بجيش بلاد الرافدين، كما سمح للمرتين بالاشتراك في القتال ولكن دون إعطائهم مراكز قيادية، فشعر الفرس بالخطر يهدد مصيرهم فبثوا الفتنة بين أهل السواد ضد العرب المسلمين مما دفع بهم إلى نكث عهودهم معهم، فغادر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى صرار¹ وأراد قيادة الجيوش بنفسه إلا أن إصرار الصحابة دفعه إلى تعيين أحد غيره فوقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص قائداً لجيوش العراق واستمر بإرسال جيوش المدد دون توقف.²

وإن لم يكن خالد بن الوليد رضي الله عنه هو القائد كان النصر حليف العرب المسلمين في أقصى معركة لهم مع الفرس وهي القادسية 14هـ/635م وقد تم اختيار موقعها لقربه من الصحراء حصن العرب الحصين، ولضيق مساحتها بحيث لا تتسع لجيوش العدو الضخمة ولا تساعد على الحركة، كما تتحكم بالقناطر التي على نهر دجلة فتمنع الفرس من الهرب فلا يكون أمامهم سوى الغرق في النهر، كما أن وصول سعد ابن أبي وقاص إلى الموقع قبل خصمه مكنه من دراسة الأرض وموقف السكان وعوامل النصر والهزيمة واحتياط لها.³

عُرف عن العرب المسلمين انتظار العدو حتى بدء الهجوم الأول من أجل تحطيم حدة الهجوم وتحطيم الروح المعنوية، ولكن مكوث الفرس أربعة أشهر دون تحريك ساكن دفع العرب المسلمين إلى مباشرة المعركة بعد أن رفض الفرس لما خيروهم به⁴، فتصاعدت صيحات البدء وبدأ القتال الذي استمر ثلاثة أيام بلياليها⁵، والتي شن فيها الفرس هجومهم مستعينين بالفيلة التي تنشر الذعر بين خيول العرب المسلمين وتدفعهم للفرار مما يساعد الفرس على التوغل ضمن صفوفهم وتثير الفوضى في تشكيلاتهم، ولكن تمكن العرب المسلمون فيما بعد من معرفة سر القضاء عليهم فاستوت موازين القوى بين الجيشين إلا أن وصول مدد القعقاع على دفعات متتابعة أوهم الفرس بأن مدد العرب المسلمين لا يتوقف وأن

¹ صرار: موضع بئر قديمة قريب من المدينة المنورة على طريق بلاد الرافدين. الحموي: معجم البلدان، ج 3 ص 398، مادة صرار.

² البلاذري: فتوح البلدان، ص 356؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 287، 288؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 5 ص 166؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9 ص 613، 614؛ كمال (عادل): القادسية، بيروت، دار النفائس، 1989م، ط 9، ص 12.

³ صالح: العسكرية الإسلامية، ص 163؛ كمال: القادسية، ص 238.

⁴ البلاذري: فتوح البلدان، ص 359؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 298؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج 5 ص 168؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9 ص 620.

⁵ وقد أطلق على هذه الأيام يوم أرمات، يوم أغواث، يوم أعماس. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 302-311.

النصر محال مع أعدادهم المتزايدة باستمرار، فذب الإحباط في نفوسهم وأوصلهم إلى الهزيمة النكراء التي خافوها.¹

لقد أراد كل من العرب المسلمين والفرس في هذه المعركة إثبات صموده وقدرته على انتزاع النصر من الآخر وسعى كل منهما وراء ذلك، فابتدأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتغيير نوع التجنيد من الطوعي إلى الإلزامي وتشكيل جيش احتياطي جاهز لمد يد العون وقت الحاجة والذي عُرف بجيش البدلاء، ويظهر في هذه المعركة دور الحرب النفسية التي قدمت نتيجة لم يحظَ بها أصحاب الأعداد الكبيرة والمعدات المتطورة.²

وهنا يتأكد القارئ أن معركة القادسية لا تقل أهمية عن معركة اليرموك إذ أن القادسية كانت فاتحة لبوابة فارس أمام العرب المسلمين، وبداية النهاية للدولة الفارسية الساسانية كما كانت اليرموك من قبل المعركة الفاصلة للتواجد البيزنطي في بلاد الشام، كما يتجلى في هاتين المعركتين أكثر ما ميز العرب المسلمين عن غيرهم كمدى تقبل القادة لأوامر الخليفة ودرجة التزامهم بتعليماته سواء بالعزل أو التعيين، فلم يستأثروا بجاه ولا سلطة ولم يفضلوا أنفسهم على غيرهم بل رضوا قانعين بما قُسم لهم، فعندما عُزل خالد بن الوليد رضي الله عنه لم يساوره أي شعور بالغضب بل قبل التغيير كما فعل أبو عبيدة رضي الله عنه عند عزله وتعيين خالد بن الوليد رضي الله عنه عوضاً عنه.

كما يظهر من خلال المقارنة بين المعركتين الفرق بين نوع القيادة من قبل الخليفة، فالخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يطلق أوامره ويترك لقائد الميدان حرية التصرف لتجاوز التحديات بما يقتضيه الوضع هناك، أما الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ظهرت فيه القيادة المركزية فالرسائل بينه وبين قادته لم تتوقف بينهما، فيعرف فيها أدق تفاصيل المعركة وموقعها ومجرياتها ويطلق أوامره تبعاً لذلك.³

وأن أبا بكر الصديق اعتمد على أسلوب الحرب الشعبية التي يدعو إليها من استطاع، بينما أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجيوش النظامية كجيش البدال، وفرض التجنيد الإلزامي وأنشأ ديوان الجند لتسجيل المقاتلين، وأقام الحصون والمعسكرات الدائمة ليضمن بها راحة الجند عند التنقل، كما طور الأسلحة وبدأ

¹ البلاذري: فتوح البلدان، ص 360، 361؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 302-311؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9 ص 630، 631.

² العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 18.

³ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 139؛ كمال: القادسية، ص 240.

باستخدام الثقيلة منها كالمنجنقات، كما جعل التموين والإمداد أكثر تنظيماً، فیتبین من خلال ذلك مدى تطور العمليات القتالية منذ عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه وازدياد متطلباتها إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.¹

وإن كانت القادسية بداية النهاية لفارس فإن معركة نهاوند 21هـ/642م كانت بمثابة تصفية نهائية لهذه الدولة قبل التوغل العربي الإسلامي إلى قلب الهضبة الفارسية والوصول حتى حدود الصين، فلم يكن لدى القبائل العربية التي استوطنت أطراف بلاد الرافدين ثقة بقدره العرب المسلمين على الاستمرار وكانت جذور الإسلام لم تترسخ بعد في أعماق نفوسهم فاتخذوا موقفاً وسطاً بين العرب المسلمين والفرس وهنا كانت الثغرة التي تسلل منها الفرس وبدؤوا بإثارة الفتنة ضد العرب المسلمين فكان لا بد على العرب المسلمين أن يتابعوا مسيرة الفتوحات وتصفية جذور العدو في أرضه.²

ثانياً: عوامل نجاح الفتوحات العربية الإسلامية:

ومن خلال عرض سريع لحركة الفتوحات العربية الإسلامية يُلاحظ أن الجيوش العربية الإسلامية قد أزلت أكبر دولتين عرفهما العالم القديم وهم فارس وبيزنطة خلال مدة قصيرة مثيرة للعجب، خاضت خلالها القوات العربية الإسلامية سلسلة من الحروب الصعبة في ظروف غير متكافئة ورغم ذلك استطاعت هذه القوات انتزاع النصر في معظمها، فما هي العوامل التي أدت إلى هذا الانتصار المفاجئ؟

لقد ترسخت جذور الدين الإسلامي في صدور رجاله الداعي أولاً لنشر الدعوة الإسلامية بين الناس في أصقاع الأرض ورفع الظلم عنهم، فهم قوم يقاتلون عن دين لا بحثاً عن مال أو جاه أو سلطة وفي تخيير العرب المسلمين لأعدائهم قبل كل معركة دليل على محافظة العرب المسلمين على هدفهم الساعين من أجله، ولهذا دلائل عدة كقول الصحابي عبد الله بن رواحة إلى العرب المسلمين قبل التوجه إلى معركة مؤتة: "يا قوم والله إن التي تكهون للتي خرجتم تطلبون -الشهادة- وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين"³ وكذلك قول البيزنطيين عن خالد بن الوليد رضي الله عنه: "هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم والله لينصرن ولنخذلن"⁴، كما أن ما يتضح من اختلاف بين طرق تعامل البيزنطيين والفرس والعرب المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى ومقدساتهم أشد دليل، فعندما اجتاحت الفرس أراضي بيزنطة استباحوا بيت المقدس ومقدساته وسفكوا دماء الكثير من الناس وأهانوا رجال

¹ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 16، 174.

² البلاذري: فتوح البلدان، ص 424، 425؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 390-396؛ سبط ابن الجوزي: مرآة

الزمان، ج 5 ص 304-307؛ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 331.

³ صالح: العسكرية الإسلامية، ص 15.

⁴ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 278.

الدين واستلبوا الصليب المقدس رمز المسيحية إمعاناً في الإذلال، كما أن البيزنطيين عندما دخلوا فارس وخاصة مدينتها غزناك ذات المكانة الدينية الرفيعة قاموا بتدمير معابد النار وقتلوا رجال الدين والمتعبدین بحجة نصره المسيحية مما يدل على أن حربهم هذه حرب دينية يمكن تسميتها بصليبية القرن السابع، أما العرب المسلمون فقد حافظوا على تنفيذ وصية قائدهم أبي بكر الصديق ﷺ خلال الفتوحات جميعها إذ قال إلى يزيد بن أبي سفيان: "استعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور وإذا نصرتهم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم".¹

ويُستنتج مما سلف أن العرب المسلمين قد استعدوا قبل بدء المعركة بعدة أمور أوصلتهم إلى النصر كالإدراك والتقدير المسبق لإمكانات تحقيق الهدف بإرسال جيش واحد لفتح بلاد الرافدين وأربعة جيوش لفتح الشام حتى أن هذه الجيوش احتاجت إلى الدعم أيضاً وأُرسل قسم من جيش العراق لمساندتهم، وفي هذا إشارة إلى حسن التنسيق بين الجبهات وما تحلى به العرب المسلمون من روح التساند والتعاون فيما بينهم، وكذلك لم يكونوا يحركون جيوشهم قبل إقامة اجتماع لكبار القادة فيستشيرون بعضهم بعضاً، وينطلقون معتمدين على خطة متقنة لحركة الجيوش وإدارة مجريات المعركة فيلتزمون بهذه التعليمات ولا يزيحون عنها وإلا تتألم الهزيمة كما حصل في معركة الجسر.

كما كان الحذر يرافقهم في جميع تحركاتهم فيرسلون قبلهم حملات الاستطلاع ويثبون العيون والجواسيس ولا يبتعدون عن الصحراء لأنهم يخبرون أسلوب التحرك فيها بينما يعجز أعداؤهم عن ذلك، كما يتجنبون الخوض بمعارك كبيرة مع عدو يفوقهم بالعدد والعدة بل يخوضون معارك قصيرة وحاسمة معه تدمر الروح المعنوية للعدو بكثرة هزائمه، ويجهزون إلى جانبهم جيشاً خاصاً بالطوارئ يستدعونه حين الأزمات والاضطرار يكون لهم عوناً ومساعداً لإحراز النصر.²

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، فقتال أكبر امبراطوريات العالم آنذاك والانتصار عليها لا يكفيه رسم الخطة والحذر، بل يستدعي تحقيق أسباب النصر في ميدان المعارك أيضاً حيث طبق العرب المسلمون مبدأ المبادرة فلم يمنحوا أعداءهم فرصة لغرض موقع المعركة وزمانها كما يتمتعون عن زج قواتهم قبل إعداد الظروف المناسبة لتحقيق النصر، وكذلك مبدأ المباغته فقد أجاد العرب حتى قبل ظهور

¹ الواقدي: فتوح الشام، ج 1 ص 8.

² العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 24، 29، 43، 187، 319.

الإسلام قتال الإغارة والهجوم المباغت والانسحاب السريع وتنفيذ عملياتهم القتالية بهجمات حاسمة¹، وكذلك إقامة الكمائن وإحاكة الخدع واستغلال الفرص وبدء القتال قبل وصول المدد للخصم إضافة إلى تحين لحظة إنهاكه لشن الهجوم المضاد فيُكتسح جيشه ويُدمر عن آخره، وقد ساعد العرب المسلمون على النصر أيضاً هو ما تحلى به جيشهم من مرونة وسرعة فنجاح الالتفافات والانتقال من جبهة إلى أخرى وقطع المسافات خلال مدة قصيرة كانت بدلاً عن تفوق الخصم العددي الذي أثقل حركته وأبطأها.² وكانوا يعمدون إلى تحطيم قوة العدو بالحرب النفسية إذ ينجحون بقتل قائد قواتهم خلال المبارزة الأولى أو بعد مرور وقت وجيز على المعركة وبموت القائد منذ البداية تتحطم معنويات الجنود وتفقدهم الثقة بالانتصار، كما اتبع العرب المسلمون أسلوب إرسال المدد القتالي بالتتابع إلى ميدان المعركة لإيهام الطرف الخصم بكثرة إمدادات الجيش العربي الإسلامي وبعجزهم عن إنزال الهزيمة بأعدائهم المتزايدين باستمرار، واستخدموا العنف في إنهاء المعارك فيلاحقون فلول الهاربين ويقتلونهم لإحباط الروح القتالية لدى جيوشهم.³

ثالثاً: عوامل هزيمة البيزنطيين والفرس:

ومما سلف يمكن إجمال ما دعا إلى هزيمة أقوى امبراطوريتين في العالم القديم في عدة عوامل تمثلت أولها بضعف الامبراطوريتين داخلياً الناتج عن الاضطراب الديني والصراع المستمر بين أصحاب المذاهب المختلفة، وتدهور الوضع السياسي المتمثل بالصراع على العرش وتعاقب عدد كبير من الحكام على سدة الحكم خلال مدة قصيرة جداً، وكذلك إنهاك قوى كل منهما عسكرياً بالحرب الطويلة وما سلف ذلك من استنزاف موارد الدولة حيث اضطرت بيزنطة في آخر حرب لها ولعجز خزينتها إلى صهر كنوز الكنائس وأموالها لتمويل هذه الحرب، كما لم يحسنوا التعامل مع حلفائهم من الغساسنة والمناذرة وأسأؤوا إليهم مما زرع البذرة الأولى لمعاداتهم، ومع كل ذلك اعتد الفرس والبيزنطيون بأنفسهم واستهتروا بالعرب المسلمين كدولة ناشئة، فأهان كسرى أبرويز رسل النبي ﷺ ومزق كتابه كما قتل الغساسنة حلفاء البيزنطيين رسل النبي ﷺ وهذا ما يخالف كل أعراف التعامل مع سفراء الدول الأخرى، والجدير بالذكر أن رفض هرقل لدعوة النبي ﷺ بنشر الدين الإسلامي داخل بلاده كان قراراً خاطئاً لأن بقبوله كان قد جنب نفسه وبلاده حرباً طويلة وسلسلة من الهزائم المهينة وكان قد تمكن من توحيد رعاياه المتخبطين بين

¹ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 13، 185، 186.

² صالح: العسكرية الإسلامية، ص 181.

³ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 35، 36.

المذاهب بدین جدید مع الحفاظ على نفوذه لأن الإسلام ذو هدف غير سياسي ولا يسعى لسلطة أو حكم بدليل التخيير الذي يسبق كل المعارك التي خاضوها.

كما استمرت استهانتهم من خلال استصغار قوة العرب المسلمين عسكرياً فأرسلوا جيوشاً صغيرة ستتمكن من هزيمتهم حسب اعتقادهم ولكن ذلك انقلب عليهم عكسياً وكان سبباً في انتصارات العرب المسلمين وتحطيم روحهم المعنوية وفقدان ثقتهم بجنودهم، فأى قيادة تربط جنودها بالسلاسل وتحرز النصر الذي تريد.

ولكن عندما تمكن العرب المسلمون من هزيمة الفرس والقضاء على امبراطوريتهم بشكل نهائي، خشي البيزنطيون من ذلك المصير بعدما حُرمت من مصادر اقتصادية واسعة وتقلصت رقعتها وحُصرت ضمن حدود ضيقة، فتحيّنت كل فرصة سانحة لاستعادة تلك الأراضي إلا أن العرب المسلمين كانوا لهم بالمرصاد ومنعوا كل محاولة لهم من خلال عدة إجراءات كإقامة الحصون والمعسكرات الدائمة وتطوير استخدام الأسلحة، وإرسال قوات قتالية لغزو ما واء الدروب¹ وتهديدهم داخل بلادهم وقد نظموا جيوشاً واجبها غزو بلاد البيزنطيين صيفاً وتسمى الصوائف، وأخرى تغزوها شتاءً وتدعى الشتاتي وتكون واجباتها أقل عمقاً وأكثر قرباً من الحدود العربية الإسلامية، وهكذا تطور النظام الحربي العربي الإسلامي من الهجوم الدفاعي إلى الهجوم الوقائي، كما أقاموا المدن والمراكز المجاورة لحدود بيزنطة وكان يتم في هذه المدن والمراكز حشد الجيوش وتنظيمها والانطلاق بها للغزو، ومن هذه الثغور قنسرين وأنطاكية، وإلى جانبها مراكز للمراقبة المتقدمة واجبها مراقبة العدو والإنذار ثم الانضمام إلى الجيش وتدعى المسالح، وهكذا وصل العرب المسلمون إلى ما لم يتمكن غيرهم من الوصول إليه بتدمير أحد أكبر امبراطوريات العالم القديم وتقويض نفوذ الأخرى دون عودة.²

¹ ما وراء الدروب: هي المحاور التي تخترق سلسلة الجبال الفاصلة بين بلاد الشام وبيزنطة. العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج1 ص223، 224.

² العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج1 ص174، 223، 224.

الخاتمة:

وهكذا احتدمت النزاعات بين الامبراطورية البيزنطية والفارسية الساسانية في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين، ومن خلال هذا العرض التفصيلي للحرب بينهما يمكن منذ البداية ملاحظة ضعف الشاهنشاه كسرى أبرويز الواضح، فهزيمته أمام بهرام جوبين الذي لم يمتلك دعم رجال الدين أو حتى محبة الشعب - وهما من أهم دواعي نجاح أي ثورة - وكذلك طلبه النجدة من الامبراطور البيزنطي موريق ليسا إلا دليلاً على ذلك، كما أن مساعدة موريق له لم تكن فقط لأهداف سياسية بل ربما يكون قد أدرك ضعفه وأراد استغلاله فخصم تقليدي وضعيف خير من خصم جديد وقوي.

ومن جهة أخرى فإن عدم إحسان كسرى أبرويز في سياسته مع عماله وحلفائه العرب المناذرة مرة تلو أخرى وإهانته لهم بقتل كبار رجالهم دفعهم في النهاية إلى التكاثر ومساندة بعضهم بعضاً، فكانت معركة ذي قار التي تأكد من خلالها أن اتحاد العرب وتخليهم عن عصبيتهم لقبائلهم بإمكانها أن تجعل منهم قوة تهزم الفرس وتحقق النصر عليهم، فغرست تلك المعركة بذرة الثقة الأولى في نفوس العرب بأنفسهم وزعزعت إيمانهم بقوة الفرس، كما كشفت مدى الضعف الذي وصلوا إليه والذي حاول كسرى أبرويز باستمرار إخفاءه بمظاهر الغنى والعظمة.

ويُستنتج أيضاً أن ضعف أي دولة داخلياً يجذب الأعداء لها من الخارج فانهيار الاقتصاد البيزنطي والانقسامات الحزبية السياسية والتفكك الديني شغل الدولة عن تنمية قوتها وتقوية تحصيناتها ودفاعاتها، مما أدى إلى غزو الفرس لأجزائها الشرقية وتكرار السلاف والآفار تجاوزهم لنهر الدانوب والهجوم على أراضي الامبراطورية بغية سلبها وتشكيل مستعمرات داخلها.

ولكن عندما يكون الرجل المناسب في المكان المناسب يصبح بالإمكان إنقاذ دولة كانت على حافة الانهيار بل ودفعها لخوض حرب مع عدوها اللدود، وهذا ما تجلّى بشخص الامبراطور هرقل الذي بدأ بالداخل البيزنطي أولاً فتخلص من أسباب الضعف بالقضاء على سلفه الامبراطور فوقاس، ثم بتوحيد كلمة الشعب السياسية وتوجيه اهتمامه لما يخدم البلاد، وهكذا قدموا له أموال الكنائس المجمدة فاستثمرها للصالح العام، كما عوّض الامبراطورية عن موارد أراضيها المسلوبة باستصلاح أراضي أخرى وزراعتها وإصلاح النظام العسكري، مسبقاً بهدنة مع السلاف والآفار وذلك ريثما يستقر الوضع الخارجي ويكسب بعض الوقت لإرساء الدعائم الأساسية لدولته.

أما ما كان يجري في الامبراطورية من خلافات دينية، ورغم محاولات الأباطرة لإصلاحها والتوفيق بينها فإنه لا يمكن نفي احتمال كون الدولة نفسها هي أول من أشعل فتيل هذه الخلافات وأوعزت إلى رجال الدين بضمان استمرارها، فدوام الخلافات بين الرعايا شغلهم عن ملاحظة حكومتهم الفاسدة والثورة

عليها، فانقلب ذلك عكسياً على الامبراطورية حيث تضخمت هذه الانقسامات أكثر مما يمكن احتواؤه، وبالتالي تحولت مساعي الامبراطورية لضبط الوضع إلى محاولات ضغط ثم اضطهاد لأصحاب بعض هذه المذاهب على حساب الأخرى، فولد هذا الضغط الانفجار وتعلقت الرعايا بأول فرصة خلاص وجدوها، وهذا ما تجلّى بمساعدتهم للعرب المسلمين فيما بعد بدخول بلادهم علّ ذلك يكون منجاة لهم مما يقع عليهم من ظلم.

وبعد التمعن في أحداث الحرب البيزنطية الفارسية وأسبابها وأحداثها ونتائجها، يمكن القول أن النصر لم يكن يوماً بسبب كثرة العدد أو تطور العتاد، بل بالحنكة السياسية والعسكرية وهذا ما تحلّى به الامبراطور هرقل عندما رسم خطة محكمة لمسير جيوشه واختيار مواقع معاركه مع خصمه، فانقلبت هزيمته نصراً ورجحت الكفة البيزنطية على الفارسية بعد تفوق الأخيرة لسنوات طوال، وهكذا طويت آخر صفحة من صفحات الصراع بينهما.

أما عن ماهية هذه الحرب فالأمر كما هو معروف على الدوام أن للحقيقة أكثر من وجه فمن الممكن الاعتقاد أنها حرب اقتصادية بحتة تهدف إلى تعويض بيزنطة ما فقدته من مناطق استراتيجية ومصادر غنية للموارد المادية بسبب اجتياح الفرس وغارات السلاف والآفار، كما تعد هذه الحرب حرب سياسية طمحت إلى فرض النفوذ وإثبات الوجود فلطالما كانت جذور الحقد كامنة بينهما تنتظر شرارة خصام واحدة لتتقدح حرب لا راد لها، إضافة إلى وجود من يصنف هذه الحرب على أنها حرب دينية ابتداءً بالامبراطور هرقل نفسه عندما أعلن أن هدفه منها نصره الدين المسيحي وإعلاء كلمته وإعادة هيئته باسترجاع الصليب المقدس من الفرس وخاصة بعدما صُهرت كنوز الكنائس في سبيل ذلك، ولكن إن كان هدف هرقل دينياً كما ادعى فإذا لا مبرر له في تدمير بيوت النار الفارسية، فقد رد الإساءة بالإساءة ولم يختلف عن نظيره كسرى أبرويز الذي اتهمه بالإساءة إلى الدين، فمن يسعى لاحترام الدين لا يسيء للأديان الأخرى.

ومهما كان من أمر فإن هذه الحرب أنهكت الامبراطوريتين على حد سواء فالفرس جمعوا كل ما لديهم من جيوش وقوى وزجوا بها في معركة نينوى 627هـ/6م التي هُزموا فيها، وإن كانت بيزنطة هي المنتصرة عسكرياً فإنها خاسرة من ناحية أخرى حيث هُزمت أمام العرب المسلمين المفعمين بالإيمان وقوة الصبر والمنطلقين باندفاع لتحقيق هدفهم على الرغم من أنهم كانوا قوة ناشئة عملياً لا تتوفر لديهم ما لدى بيزنطة من مؤهلات للنصر، إلا أنهم أبدعوا بتوظيف ما ملكوه فالقيادة الحكيمة والطاعة والإخلاص لها كانت من أهم أسباب النصر العربي الإسلامي، تلك القيادة التي استخدمت عنصر الشباب بتسيير جيوشها إلى ميادين المعارك مستعينين بخطط محكمة واستراتيجيات متقنة في القتال، لذلك لم تصمد بيزنطة أمام ضرباتهم وخاصة بعدما خوت خزينتها في تمويل حرب دامت ستة سنوات مع فارس أنهكت خلالها جيشها

المخضرم في خوض الحروب، فلم ينقذهم حينها تاريخهم الحافل أو حتى تفوقهم العددي الكبير، وهكذا كانت انتصارات العرب المسلمين الحاسمة والمتلاحقة على أقوى امبراطوريتين في العالم القديم مدعاة للفت الأنظار إليهم ومعاملتهم كقوة لا يجدر الاستهانة بها.

الملاحق:

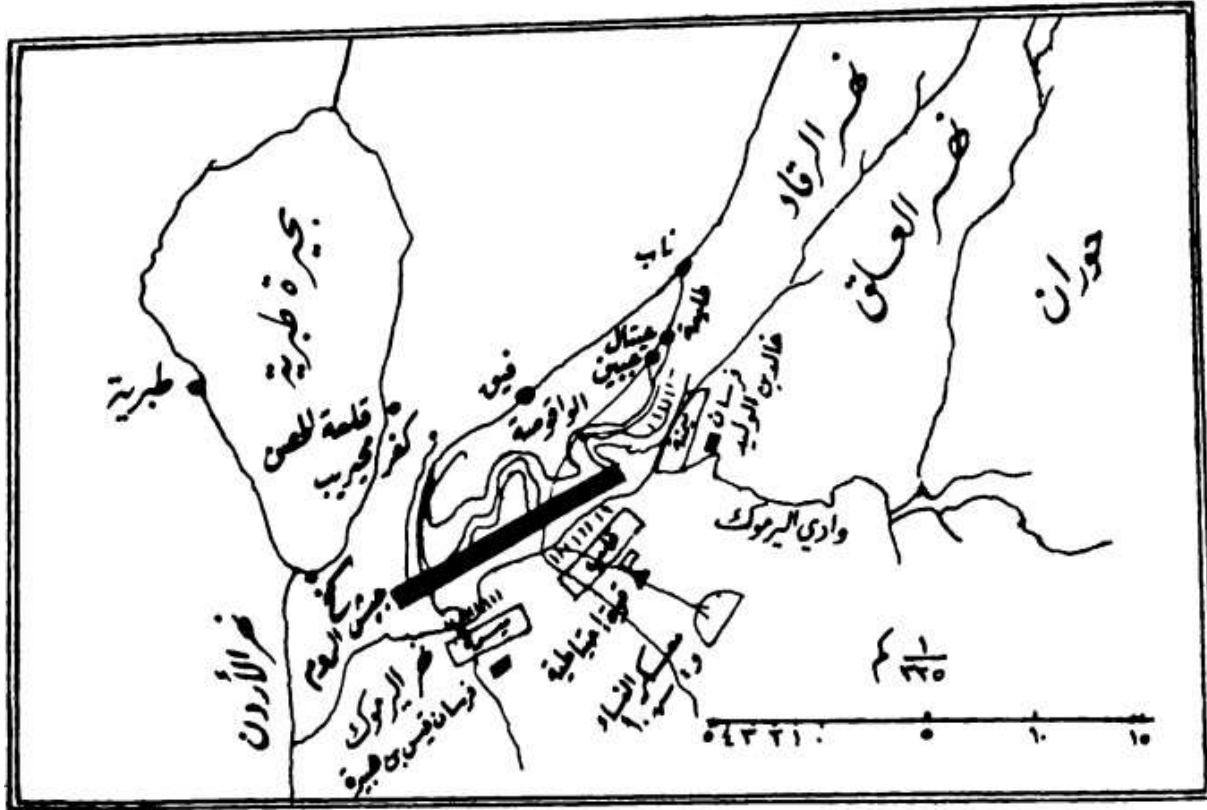
أولاً: الخرائط:



1. بنود آسيا الصغرى وإقليم العواصم والثغور¹

¹ العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ص 223.

¹ توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص 227.



3. خريطة معركة اليرموك¹

¹ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج 1 ص 115.

[illegible]

¹ العسلي: فن الحرب الإسلامي، ص312.

ثانياً: النقود:



1



2

نقود تعود لعهد الامبراطور هرقل

¹ <https://www.ancient.eu/image/7695/coin-of-heraclius/>

² https://en.wikipedia.org/wiki/Heraclius#/media/File:Heraclius_610-641.jpg

ثالثاً: الخطابات والرسائل:

كتاب النبي إلى هرقل:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتولّ فإن إثم الأكارين عليك"¹

كتاب النبي إلى كسرى:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس"²

رسالة توصيات الخليفة الأول أبو بكر الصديق إلى قائده قبل البدء بالفتوحات:

"استعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تتقضوا إذا صالحتم وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم"³

رسالة صلح الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لأهل إيلياء:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزّها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطى أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص (الصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه

¹ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 649.

² الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2 ص 655.

³ الواقدي: فتوح الشام، ج 1 ص 8.

مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يُحصّد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وخدمة رسوله وخدمة الخلفاء وخدمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان"¹

¹ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 3 ص 609.

المصادر والمراجع:

المصادر العربية:

• ابن الأثير (علي بن محمد ت 630هـ/1232م):

1. أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي معوض وعادل الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت.).

2. الكامل في التاريخ، تحقيق عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 2012م.

• الأصفهاني (علي بن الحسين ت 356هـ/966م):

3. الأغاني، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط1، 1928م.

4. تاريخ سني ملوك الأرض، بيروت، دار الحياة، (د.ت.).

• الباخري (علي بن الحسن ت 467هـ/1074م):

5. دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق محمد التونجي، بيروت، دار الجيل، ط1، 1993م.

• البروسوي (محمد بن علي ت 997هـ/1589م):

6. أوضح المسالك إلى معرفة الممالك، تحقيق المهدي الرواضية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2006م.

• البكري (عبد الله بن عبد العزيز ت 487هـ/1094م):

7. معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، دار عالم الكتب، 1945م.

• البلاذري (أحمد بن يحيى ت 279هـ/892م):

8. فتوح البلدان، تحقيق عبد الله الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987م.

• الحموي (ياقوت بن عبد الله ت 626هـ/1228م):

1. معجم الأدباء، تح إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م.
2. معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت.).

• الحميري (محمد بن محمد ت 900هـ/1494م):

3. الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

• الخطيب البغدادي (أحمد بن علي ت 463هـ/1070م):

4. تاريخ بغداد، تحقيق بشار معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م.

• ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ/1406م):

5. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط1، 2001م.

• ابن خلكان (أحمد بن محمد ت 681هـ/1282م):

6. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968م.

• الدينوري (أحمد بن داود ت 282هـ/895م):

7. الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الشيال، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1959م.

• الذهبي (محمد بن أحمد ت 748هـ/1347م):

8. سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان عبد المنان، عمان، بيت الأفكار الدولية، 2004م.

- ابن رسته (أحمد بن عمر ت نحو 300هـ/912م):
9. الأعلام النفيسة، ليدن، مطبعة بريل، 1891م.
- الرشيد (أحمد بن الزبير، ت القرن الخامس الهجري):
10. الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، 1959م.
- سبط ابن الجوزي (يوسف بن قز أوغلي ت 654هـ/1168م):
11. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق محمد بركات وآخرون، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط1، 2013م.
- ابن شداد (محمد بن علي ت 684هـ/1285م):
12. الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبّارة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م.
- الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت 548هـ/1153م):
13. الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، القاهرة، دار الحلبي، 1968م.
- الصفدي (خليل بن أبيك ت 764هـ/1362م):
14. الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد أرناؤوط وتزكي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2000م.
- الطبري (محمد بن جرير ت 310هـ/922م):
15. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1967م.

• ابن العماد (عبد الحي بن أحمد ت 1089هـ/1678م):

16. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر أرناؤوط ومحمود أرناؤوط، دمشق،

دار ابن كثير، ط1، 1986م.

• أبو الفداء (اسماعيل بن علي ت 732هـ/1331م):

1. تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه ماك ديسلان، باريس، الدار السلطانية، 1830م.

2. المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، (د.ت.).

• القزويني (زكريا بن محمد ت 682هـ/1283م):

3. آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، (د.ت.).

• ابن كثير (اسماعيل بن عمر ت 774هـ/1372م):

4. البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي، الجيزة، دار هجر، ط1، 1997م.

• المسعودي (علي بن الحسين ت 345هـ/956م):

5. مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به كمال مرعي، بيروت، المكتبة العصرية، ط1،

2005م.

• مسكويه (أحمد بن محمد ت 421هـ/1030م):

6. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2002م.

• المقدسي (المطهر بن طاهر ت بعد 355هـ/ بعد 966م):

7. البدء والتاريخ، تحقيق كليمان هوار، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1899م.

• مؤلف مجهول:

8. حدود العالم من المشرق إلى المغرب، (كُتب سنة 372هـ / 982م)، تحقيق يوسف الهادي،

القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط1، 1999م.

• ابن هشام (عبد الملك بن هشام ت 218هـ / 833م):

9. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وآخرون، بيروت، دار القلم، (د.ت.).

• الواقدي (محمد بن عمر ت 207هـ / 822م):

10. فتوح الشام، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1،

(د.ت.).

• اليعقوبي (أحمد بن اسحاق ت 292هـ / 905م):

11. تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، بيروت، دار الأعلمي، ط1، 2010م.

المصادر السريانية المعربة:

• مار ميخائيل السرياني الكبير (ت 596هـ / 1199م):

1. تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة غريغوريوس شمعون، ماردين حلب، دار الرها،

1996م.

• ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون ت 685هـ / 1286م):

2. تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطون اليسوعي، بيروت، دار الرائد اللبناني، ط2، 1994م.

• عطية (عزيز سوريال):

3. تاريخ المسيحية الشرقية، ت إسحاق عبيد، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005م.

المصادر الفارسية المعربة:

- ابن البلخي:

1. فارس نامه، ترجمة وتحقيق يوسف الهادي، القاهرة، دار الثقافة، 2001م.

- الثعالبي (عبد الملك بن محمد ت 429هـ/1037م):

2. غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، باريس، المطبعة الوطنية، (د.ت.).

- خسرو (ناصر خسرو ت 481هـ/1088م):

3. سفر نامه، تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1993م.

- الطوسي (حسن بن علي ت 485هـ/1092م):

4. سياست نامه، ترجمة يوسف بكار، بيروت، دار المناهل، ط1، 2007م.

- الفردوسي (أبو منصور بن فرخ ت 411هـ/1021م):

5. الشاهنامه، ترجمة سمير مالطي، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1979م.

المصادر اللاتينية:

- **Maurice:**

1. Maurice's Strategikon, Handbook of Byzantine Military Strategy, translated by George T. Dennis, the university of Pennsylvania press, Philadelphia, 1984.

- **Theophanes:**

2. chronicle of Theophanes confessor, translated by Cyril Mango and Roger Scott, Oxford, clarendon press, 1997.

المراجع العربية:

1. ابراهيم (ابراهيم)، حسن (حسن): معالم التاريخ البيزنطي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2003م.
2. أحمد (حسن): جغرافية أوروبا، الرياض، دار المريخ، 1982م.
3. أحمد (محمد): تاريخ الحضارة البيزنطية، دمشق، دار التكوين، ط1، 2010م.
4. أحمد (مصطفى): الموسوعة الجغرافية، القاهرة، دار العلوم، ط1، 2004م.
5. اسماعيل (إلى عبد الجواد): الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، دار النهضة العربية، 1985م.
6. بخيت (رجب): تاريخ الإسلام في أنريجان، القاهرة، دار العلم والإيمان، 2009م.
7. برو (توفيق): تاريخ العرب القديم، دمشق، دار الفكر، ط2، 1996م.
8. ترحيني (محمد): المؤرخون والتأريخ عند العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت.).
9. تركماني (أسامة): تاريخ الأتراك والتركمان، حمص، دار الإرشاد للنشر، 2007م.
10. توفيق (عمر): تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعارف، 1967م.
11. الجاف (حسن): موسوعة تاريخ إيران السياسي، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1، 2008م.
12. أبو الجذائل (عائشة): الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي، الرياض، دار المفردات، ط1، 1995م.

13. حرب (محمد): تاريخ دول العرب والاسلام، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط3، 2007م.
14. خطاب (محمود): أرمنية بلاد الروم، بيروت، دار قتيبة، ط4، 1990م.
15. خطاب (محمود): قادة فتح بلاد فارس، بيروت، دار الفتح، ط1، 1965م.
16. درادكة (صالح): دراسات في الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، عمّان، مطبعة السفير، ط1، 2011م.
17. الرازي (محمد): مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، 1986م.
18. ربيع (حسنين): دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، دار النهضة العربية، ط5، 1995م.
19. رستم (أسد): الروم، بيروت، دار المكشوف، 1955م.
20. رستم (أسد): كنيسة مدينة الله انطاكيا العظمى، بيروت، منشورات النور، (د.ت.).
21. رفعت (محمد): معالم تاريخ العصور الوسطى، القاهرة، المطبعة الرحمانية، ط1، 1925م.
22. زغلول (الشحات): السريان والحضارة الإسلامية، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م.
23. زكار (سهيل)، اسماعيل، (اكتمال) وآخرون: حروب الفرنجة، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2004م.
24. زكار (سهيل)، المحمد (أنس): تاريخ العصر العباسي الثالث، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2017م.
25. سالم (عبد الرحمن): المسلمون والروم في عصر النبوة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1997م.
26. السيد (محمود): تاريخ الدولة البيزنطية، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت.).

27. الشاعر (محمد): السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في القرن السادس، المنوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989م.
28. شاعر (محمود): قفقاسيا، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1972م.
29. شاعر (مصطفى): التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1978م.
30. الشامي (فاطمة): الحضارة البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية، 2002م.
31. الشيخ (محمد): تاريخ الامبراطورية البيزنطية، اسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994م.
32. الشيخ (محمد): تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1990م.
33. شيخو (لويس): مجاني الأدب في حقائق العرب، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ط23، 1913م.
34. صالح (قاسم): العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، (دم)، مكتبة المهتدين، ط1، 1989م.
35. الصعيدي (عبد المتعال): تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، القاهرة، مطبعة العلوم، 1933م.
36. طقوش (محمد): تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار النفائس، ط1، 2009م.
37. العابد (مفيد): معالم تاريخ الدولة الساسانية، دمشق، دار الفكر، ط1، 1999م.
38. عاشور (سعيد): أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1986م.
39. عاقل (نبيه): الامبراطورية البيزنطية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1969م.
40. العبادي (مصطفى): الامبراطورية الرومانية، اسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1999م.

41. عبد الجليل (عمر): تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، 2003م.
42. العبد الغني (عبد الرحمن): أرمينية وعلاقتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، (د.م)، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط1، 1989.
43. عبده (سمير): السريانية العربية، دمشق، دار علاء الدين، ط2، 2002م.
44. عبيد (طه): تنظيمات الجيش البيزنطي، الموصل، ط1، 2005م.
45. العدوي (ابراهيم): الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1951م.
46. العريني (السيد الباز): الدولة البيزنطية 323-1081م، بيروت، دار النهضة العربية، 1982م.
47. العريني (السيد الباز): مصر البيزنطية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1961م.
48. العريني (السيد الباز): أجناد الروم، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1956م.
49. عزت (يوسف): تاريخ القوقاز، استنبول، مطبعة عيسى الحلبي، 1912م.
50. العسلي (بسام): فن الحرب الإسلامي، بيروت، دار الفكر، 1988م.
51. عطا (زبيدة): الدولة البيزنطية، المنيا، دار الفكر العربي، (د.ت).
52. العلان (أرواد): فارس وبيزنطة، دمشق، دار رسلان، 2009م.
53. علي (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (د.م)، ط2، 1993م.
54. علي (أحمد): تاريخ بلاد الشام، دمشق، دار دمشق، ط3، 1994م.
55. عمارة (محمد): قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، بيروت، دار الشروق، ط1، 1993م.

56. عمران (محمود): تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 2006م.
57. عمران (محمود): معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2000م.
58. عوض (محمد): الامبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ط1، 2007م.
59. غنيم (اسمت): تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1990م.
60. فرج (وسام عبد العزيز): دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، 1982م.
61. فرح (نعيم): تاريخ بيزنطة السياسي، دمشق، مطبعة طربين، 1978م.
62. فرح (نعيم): الحضارة البيزنطية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1992م.
63. فرزات (محمد): مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة قبل الإسلام، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، 1988م.
64. الكعبي (نصير): الدول الساسانية، دمشق، دار رسلان، 2015م.
65. كمال (عادل): القادسية، بيروت، دار النفائس، ط9، 1989م.
66. الكيالي (عبد الوهاب): موسوعة السياسة، بيروت، دار الهدى، 1985م.
67. معلوف (لويس): المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار المشرق، ط20، 1969م.
68. مغنية (أحمد): تاريخ العرب القديم، بيروت، دار الصفاة، ط1، 1994م.

69. منصور (طارق): بيزنطة مدينة الحضارة والنظم، القاهرة، دار الفكر العربي، ط1، 2015م.
70. المنصوري (محمد): الحياة الدينية في بيزنطة، صفاقس، دار أمل، ط1، 2003م.
71. مهران (محمد): دراسات في تاريخ العرب القديم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، (د.ت.).
72. الموحى (عبد الرزاق): العبادات في الديانات القديمة، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، ط2، 2007م.
73. النفراوي (محمد): فارس بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع، تونس، دار الجنود، (د.ت.).
74. يوسف (جوزيف): تاريخ الدولة البيزنطية 284-1453م، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1984م.
75. يوسف (جوزيف): تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1984م.
76. اليوسف (عبد القادر): الامبراطورية البيزنطية، بيروت، المكتبة العصرية، 1966م.

الرسائل الجامعية:

1. حمودي (شيرين): أعمال المراقبة والمثاغرة بين بلاد الشام وبيزنطة، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة، إشراف الدكتورة اكتمال اسماعيل، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2012م.

2. العلان(أرواد): السياسة الساسانية تجاه بيزنطة في القرن السادس الميلادي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم غير منشورة، إشراف الدكتور محمود فرعون، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2005م.
3. محمد (يونس): علاقة مملكة الحيرة مع الامبراطورية البيزنطية من القرن الرابع الميلادي حتى مطلع القرن السابع الميلادي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم غير منشورة، إشراف محمود فرعون، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2011م.

المراجع المعربة:

1. اربري (ا.ج): تراث فارس، ترجمة محمد كفافي ومحمد خفاجة وأحمد عيسى، القاهرة، 1959م.
2. أو مان (تشارلز): الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة، دار الفكر العربي، 1953م.
3. بارتولد (فاسيلي): تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1952م.
4. بل (سيرهارولد): الهلينية في مصر البيزنطية، ترجمة زكي علي، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1948م.
5. بيرنيا (حسن): تاريخ إيران القديم، ترجمة محمد عبد المنعم والسباعي السباعي، الفجالة، دار الثقافة، ط2، 1992م.
6. بيغوليفسكيا (نينا): العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين هاشم، الخرطوم، 1983م.

7. بيغوليفسكا (نينيا): ثقافة السريان في العصور الوسطى، ترجمة خلف الجراد، (د.م)، دار العلم، 1979م.
8. بينز (نورمان): الامبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1950م.
9. داووني (جلانفيل): أنطاكية القديمة، ترجمة ابراهيم نصحي، القاهرة، دار نهضة مصر، 1967م.
10. دنلوب (د.م): تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، 1986م.
11. رنسيमान (ستيفن): الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1997م.
12. ساليغان (ريتشارد): ورثة الامبراطورية الرومانية، ترجمة جوزيف يوسف، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط1، 1985م.
13. شينية (جان كلود): تاريخ بيزنطة، ترجمة جورج زيتاني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008م.
14. فيزهوفر (يُزف): فارس القديمة 550ق.م-650م، ترجمة محمد جديد، مراجعة زياد منى، بيروت، دار قدمس، ط1، 2009م.
15. كريستسن (آرثر): إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.
16. لسترنج (كي): بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بيروت، مؤسسة الرسالة، (د.ت).

17. لورنس (يوحنا): تاريخ الكنيسة المسيحية، ترجمة هنري هرس، بيروت، المطبعة الاميركاني، 1875م.

18. مكاريوس (شاهين): تاريخ إيران، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2003م.

19. نولدكه (ثيودور): أمراء غسان، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1933م.

20. نيكول (دونالد أ.): معجم التراجم البيزنطية، ترجمة حسن حبشي، (د.م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003م.

21. هالدون (جون): بيزنطة في حرب، ترجمة فتحي محمد، الكويت، دار ناشري، 2011م.

22. هسي (جون): العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، 1997م.

23. ولبر (دونالد): إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم حسنين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1985م.

المراجع الأجنبية:

1. Barford: The early slavs, New York, The Cornell University Press, 2001.
2. Baynes. N, Moss. H: Byzantium, London, Oxford university press, 1948.
3. Bury. J: A history of the later Roman empire, London, R. Clark, 1889.
4. Curta, Florin: The Making of the Slavs, Cambridge, Cambridge University Press, 2004.
5. Dvornik. F: The Slavs, Boston, American academy of art and science, 1956.

6. Frend. W: The rise of the Monophysite movement, Cambridge, Cambridge university press, 1972.
7. G. J. Reinink, Bernard H. Stolte: The Reign of Heraclius, Paris, Peeters, 2002.
8. Gregory. T: A history of Byzantium, USA, Blackweel publishing, 2005.
9. Haldon. J: Byzantium in the seventh century, Cambridge, Cambridge university press, 1990.
10. Herbert. C: The first half of the seventeenth century, Palala Press, 2016.
11. Hussy. J, Louth. A: The Orthodox church in the byzantine empire, Oxford university press, 1990.
12. Kaegi. W: Heraclius emperor of Byzantium, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.
13. Kardaras. G: Byzantium and the Avars, Brill Academic Publishers, 2018.
14. Kmietowicz, Frank: Ancient Slavs, USA, Worzalla, 1976.
15. Mango. C: The oxford history of Byzantium, London, Oxford university press, 2002.
16. Morgan. G: Byzantium, Spain, pocket essentials, 2007.
17. Ostrogorsky. G: History of the byzantine state, translated by Joan Hussy, Oxford, Alden press, 1968.
18. R.N. Frye: Cambridge history of Iran, London, Cambridge university press, 1975.
19. Tockner, Klement: Rivers of Europe, USA, The university of Albama, 2008.
20. Vasiliev. A: History of the byzantine empire, Canada, the university of Wiscnsin press, 1952.
21. Vlasto. A. P: The entry of the Slavs into Christendom, Cambridge, Cambridge university press, 1970.

22. Whittow. M: The making of Orthodox Byzantium, London, Macmillan press, 1996.

المواقع الالكترونية:

1. <https://ar.wikipedia.org/>
2. <https://www.ancient.eu/>